

سلسلة

وَلَكِنْ شَيْءٌ وَقَرَّ فِي قَلْبِهِ

6

أَلَمْ يَأْنِ

الْخُشُوعِ

أَلَمْ يَأْنِ - الخشوع

أَلَمْ يَأْنِ

الخشوع

المجلد السادس من سلسلة «ولكن شيءٌ وقرَّ في قلبه»

إهداء

إلى قلب طال عليه الأمد، ثم سمع النداء فاختار أن يعود.
جهدٌ مشتركٌ، نسألُ اللهَ فيه الإخلاصَ والقبولَ.

الفهرس

إهداء	2
مقدمة	7
الباب الأول: ما الخشوع؟	8
1 التظامن الذي يبدأ من القلب	9
2 الخشوع والخضوع	15
3 الخشوع والإخبات	19
4 الخشوع والضراعة	23
5 خوف مع سكون	30
6 خشوع القلب وخشوع الجوارح	39
7 خشوع صادق وخشوع متكلف	44
8 أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا	51
الباب الثاني: الخشوع في القرآن	57
9 قد أفلح المؤمنون	58
10 وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين	63
11 وكانوا لنا خاشعين	70
12 لو أنزلنا هذا القرآن على جبل	78
13 خشعت الأصوات للرحمن	83
14 خاشعة أبصارهم	91
15 تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم	97
16 آيات تبني قلباً خاشعاً	104

الباب الثالث: الصلاة التي يحضر فيها القلب	113
17 قبل التكبير	114
18 الله أكبر: ما الذي يصغر؟	119
19 الفاتحة حوار عبد ورب	125
20 الركوع: تعظيم	131
21 السجود: أقرب ما تكون	136
22 التشهد: سلام وعبودية	141
23 بعد السلام: ماذا بقي؟	146
24 صلاة واحدة نبدأ بإصلاحها	151
الباب الرابع: من هدي النبي ﷺ	157
25 بكاءه ﷺ في الصلاة	158
26 قيام الليل حتى تنفطر القدمان	163
27 استعاذته من قلب لا يخشع	168
28 صلاته في الشدائد	173
29 رفقه بمن أخطأ في الصلاة	179
30 تخفيفه رحمة بالناس	185
31 خشوع لا يلغي الوعي	190
32 كان إذا حزبه أمر صلى	196
الباب الخامس: قصص الخاشعين من السلف	201
33 أبو بكر ورقة قلبه	203
34 الخشوع للحق قبل أثر الحكاية	210
35 عثمان وذكر القبر	212

36	معنى الصلاة قبل الرواية	216
37	ابن مسعود والقرآن	218
38	محاسبة القلب: الأصل القرآني	222
39	المحافظة على الصلاة: المعنى المحكم	226
40	أمانة الرواية في باب الخشوع	230
	الباب السادس: ما يسرق الخشوع	233
41	العجلة	234
42	الذنوب	240
43	فضول النظر	245
44	فضول الكلام	252
45	الهاتف قبل الصلاة	259
46	الانشغال بحقوق الناس	265
47	التكلف في الهيئة	271
48	اليأس من قلب شارد	276
	الباب السابع: الخشوع خارج الصلاة	281
49	خشوع عند القرآن	282
50	خشوع في الدعاء	289
51	خشوع عند الذكر	294
52	خشوع عند الموت	299
53	خشوع أمام النعمة	305
54	خشوع في العلم	310
55	خشوع لا يذل لغير الله	316

56		سكون القلب في الزحام	323
.....			
الباب الثامن:		الطريق إلى الخشوع	328
.....			
57		معرفة من تقف بين يديه	329
.....			
58		فهم ما تقول	336
.....			
59		التبكير والتهيو	342
.....			
60		إزالة الشواغل	348
.....			
61		النظر إلى موضع السجود	353
.....			
62		التدرج لا الادعاء	357
.....			
63		الدعاء بقلب خاشع	363
.....			
64		صحبة تذكرك بالله	368
.....			
الباب التاسع:		حين يخشع القلب	373
.....			
65		تلين الجوارح	375
.....			
66		تقل المعصية في الخلوة	381
.....			
67		يهدأ طلب المدح	386
.....			
68		تحسن الصلاة	391
.....			
69		يعظم القرآن	397
.....			
70		ترق المعاملة	402
.....			
71		يزداد الافتقار	408
.....			
72		خشوع يبقى بعد السجادة	414
.....			
خاتمة			422

مقدمة

الخشوع ليس هيئةً تُرتدى، ولا انفعالاً يُستدعى أمام الناس. هو معرفة تورث تعظيماً، وافتقاراً يرد القلب إلى الله، وصدقٌ يظهر في الصلاة ثم يمضي مع صاحبه إلى قوله وعمله وحقوق الخلق. ينطلق هذا الكتاب من القرآن والسنة الثابتة، ويفصل بين النص المنقول وشرح معناه والاستنباط التربوي منه. ولا يبنى أثره على حكاية لا يثبت أصلها، ولا يجعل اختلاف أحوال القلوب باباً للحكم على سرائر الناس.

الباب الأول: ما الخشوع؟

1 | التّطامن الذي يبدأ من القلب

الخشوع لين باطن يسبق هدوء الظاهر؛ فإذا خضع القلب لذكر الله انخفضت منازعته واستقامت الجوارح من غير تصنع. وعند شرح ابن القيم منزلة الخشوع في «مدارج السالكين» يشرح عبارة صاحب «المنازل» في الدرجة الأولى: «التذلّل للأمر والاستسلام للحكم»، فيفسر التذلّل بتلقي الأمر بذلة القبول والانقياد والامثال، مع الافتقار إلى الهداية للأمر قبل الفعل، والإعانة عليه حال الفعل، والقبول بعده. ويكشف هذا الجمع أن الخشوع ليس سكوناً فارغاً، بل قلب يعظم ويحب وينكسر، ثم يستسلم للأمر.

وموضع الاستدلال هنا [الحديد: 16].

خطوة قريبة: أن يدخل العبد الصلاة وهو يعترف بفقره، لا وهو يطالب نفسه بإحساس مصنوع.

القلب أصل المشهد

تعرض مادة «أعمال القلوب» الخشوع بوصفه عملاً يبدأ من القلب، ثم يظهر صدقه على الجوارح، وتحذر من قلب خال من المعنى مع هيئة ساكنة. وفي مباحث معنى الخشوع ومراتب الناس فيه، يظهر أن خضوع القلب سابق في التربية لخضوع البدن، وأن

تفاوت الناس في الخشوع تفاوت في العلم بالله والانقياد له، لا في شكل واحد ينسخونه جميعاً.

إذا كان القلب أصل المشهد، فالإصلاح لا يبدأ بمراقبة اليدين والعينين وحدهما. يبدأ بسؤال أصدق: لمن أقف؟ وما الذي أقرأه؟ وما حاجتي إلى الهداية والمغفرة؟ عندها يصير سكون الجارحة ثمرة لمعنى، لا حراسةً لصورة. وهذا لا يهون من شأن الظاهر؛ فالظاهر شاهد وتابع، لكنه لا يستطيع أن يمنح القلب ما لم يتعلمه ويستحضره.

وحين يشرد القلب لا يلزم أن يهجر صاحبه الصلاة أو يتهم نفسه بالنفاق. يعيده كلما ذهب، كما يعيد المسافر بصره إلى الطريق. المجاهدة المتكررة نفسها عبادة، والرجوع بعد الشرود خير من الاسترسال معه. لذلك يكون مقياس التقدم أحياناً في سرعة العودة، وفي قلة المواطن التي يختار فيها المرء الغفلة مختاراً، لا في دوام انفعال لا يملكه.

منبع الخشوع لا صورته

ويظهر من مبحث «أعمال القلوب» في مبحث «معنى الخشوع»، أن الخشوع عمل قلب ترجمه الجوارح. وهذا ترتيب مهم؛ لأن البدن قد يهدأ لعرف أو تعب، وقد يسكن المرء أمام الناس وقلبه مشغول بهم. أما إذا عرف القلب من يقف بين

يديه، وافقر إليه، واستقبل كلامه، صار هدوء الظاهر شاهداً على معنى لا بديلاً عنه.

يبدأ الإصلاح قبل الصلاة بسؤالين قصيرين: ما حاجتي إلى هذه الصلاة؟ ولمن أرفع حاجتي؟ لا يلزم جواب طويل؛ يكفي أن يتذكر العبد ذنباً يستغفر منه، ونعمة يحمد عليها، وهداية يسألها. فإذا دخل بهذا الافتقار صار لكل ذكر موضع، وإذا شرد لم يحكم على الصلاة كلها بالفشل. إنما يعيد قلبه كلما انتبه، فالعودة المتكررة تدريب على العبودية، لا دليل على انعدامها.

والميزان بعد السلام أدق من الهيئة في أثناء الصلاة: هل خرج أكثر حفظاً للسانه وحق غيره؟ إذا لم يظهر أثر، راجع السبب من غير يأس؛ فعمل القلب ينمو بالتعلم والمجاهدة، ولا يصنعه استعراض السكون.

أصل محكم: نادى الله المؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكره وما نزل من الحق، ثم أتبع التحذير من القسوة بذكر إحياء الأرض بعد موتها [الحديد: 16-17]. موضع الخطاب هو القلب، وسببه الذكر والحق، وثمرته أن ينتقل المؤمن من القسوة إلى الاستجابة. لا تساوي الآية بين الخشوع والحزن، ولا تجعل طبيعة الإنسان الهادئة أو الصاخبة ميزاناً وحيداً له.

وفي «مدارج السالكين»، عند شرح منزلة الخشوع، يشرح ابن القيم عبارة صاحب «المنازل» في الدرجة الأولى: «التدلل للأمر

والاستسلام للحكم»، ويبين فيها القبول والانقياد والامتثال والافتقار إلى الهداية والإعانة. وتعرض مادة «أعمال القلوب» في مباحث الدرجات والمراتب والأنواع والطريق والثمرات والمنافيات، درجات الخشوع ومراتب الناس وأنواعه وطرق تحصيله ومنافياته. ويظهر من ترتيب المبحثين أن الخشوع مركب من معرفة ومقصد وانقياد، لا من مظهر منفرد.

التطامن ليس محو الشخصية، ولا إلغاء القدرة على السؤال والتعلم والاعتراض المشروع على الظلم. الذي يخفض هو منازعة القلب لأمر الله واستعلاؤه بالهوى؛ أما المسؤولية فتبقى، بل تقوى. قد يكون الخاشع حازماً في حق، سريعاً في نجدة، قوي الصوت عند التعليم، ثم يكون قلبه ذليلاً لربه لا يرى القوة ملكاً ذاتياً. وقد يكون المرء هادئ الهيئة لكن قلبه يخاصم الحق. لهذا لا يصح بناء الحكم على النبوة والمشي والملاحم وحدها.

يسأل العبد عند كل أمر شرعي ثلاثة أسئلة: ماذا عرفت عن ربي؟ ماذا طلب مني النص؟ وأين تنازعني نفسي؟ هذه الأسئلة تنقل الخشوع من وصف غامض إلى موضع مجاهدة. فإذا وجد في نفسه نفوراً من نص صحيح لم يجمل النفور باسم الاستقلال، ولم يدع حالاً ليس عنده؛ يتعلم المعنى، ويسأل عما أشكل، ثم يجاهد على القبول. التطامن الصادق لا يمنع السؤال، لكنه يمنع السؤال من أن يكون ستاراً لرفض الجواب قبل فهمه.

درجات الخشوع: من الامتثال إلى حفظ الحقوق

تعرض مادة «أعمال القلوب» في مبحث «درجات الخشوع»، الخشوع في درجات تبدأ بالاستسلام لأمر الله، ثم يرجع الإنسان إلى نفسه فيرى تقصيره وضعفه، ثم بحفظ حق المخلوق وعدم الترفع عليه. وهذه الدرجات لا تنفصل بعضها عن بعض: فالتعظيم الذي لا يثمر امتثالاً يبقى دعوى، والانكسار الذي لا يمنع احتقار الناس يبقى ناقصاً، ومحاسبة النفس التي لا تفتح باب الإصلاح قد تتحول إلى دوران حول العيب.

يبدأ الخشوع إذن من جواب عملي: إذا ظهر الأمر لم يجعل العبد مزاجه حاكماً عليه. قد يفهم الحكمة، وقد تغيب عنه بعض وجوهها، لكنه يطلب العلم ثم ينقاد لما صح. وليس الانقياد إلغاء للعقل؛ العقل نفسه هو الذي يعرف حده أمام علم الله. ولذلك يجتمع السؤال للتعلم مع التسليم بعد البيان، ويختلف هذا عن الجدل الذي يطلب مهرباً من التكليف.

ثم ينظر المرء إلى نفسه بعينين: عين ترى التقصير فلا تزكي، وعين ترى نعمة الله فلا تقنط. لا يقول: أنا خاشع لأنني رقت مرة، ولا يقول: لن أصلح لأنني شردت. يصف الفعل المحدد ويعالجه. هذه الدقة أصدق من الأحكام الكلية؛ فهي تمنع العجب واليأس معاً.

وتظهر الدرجة الثالثة حين يخالط الناس. فمن عرف عظمة الله لم يحتاج إلى تصغير عبادته كي يشعر بقيمته. يؤدي الحق، ويقبل النصيحة، ويحفظ كرامة الضعيف، ولا يجعل هدوء صوته ستاراً لإهمال مظلمة. هنا يصير الخشوع عدلاً يرى أثره من لم ير سجود صاحبه.

2 | الخشوع والخضوع

الخضوع وصف أوسع يظهر في الانقياد، أما الخشوع فيجمع ذل القلب وسكونه ونظره إلى لقاء الله؛ ولذلك علق القرآن خفة الصلاة على يقين الرجوع إليه.

وموضع الاستدلال هنا [البقرة: 45-46].

خطوة قريبة: مراجعة الدافع قبل العبادة: هل أقف امتثالاً ومحبة ورجاء، أم أكتفي بصورة الحركة؟

الصلاة واللقاء

من القرآن: قرنت آيتا البقرة [البقرة: 45-46] بين الاستعانة بالصبر والصلاة، وبين ظن الخاشعين أنهم ملاقو ربهم وراجعون إليه. ليس المقصود مجرد توقع ذهني؛ فذكر اللقاء يعيد للصلاة وزنها. من وقف وهو يعلم أنه راجع إلى الله لم تعد الركعات قطعة زائدة في يومه، بل صارت تمريناً على الرجوع الأكبر.

الخضوع قد يطلق على الانقياد الظاهر، أما الخشوع في هذا السياق فيضم إليه حضور القلب وسكونه لعظمة الله. ومن هنا لا يكفي انحناء الظهر إذا بقيت الإرادة مستكبرة عن الأمر، كما لا تكفي دعوى خشوع باطن لا تحفظ الفريضة. اجتماع الباطن والظاهر هو الطريق الآمن من طرفي الجفاء والتكلف.

قبل التكبير بلحظات، يضع المصلي في قلبه حقيقة واحدة: هذه الصلاة من جملة رجوعي إلى الله. لا يحتاج إلى تركيب خواطر كثيرة، بل إلى معنى صحيح قصير يفتح الباب. فإن ثقلت الصلاة، لم يجعل ثقلها حجة على الترك، بل علامة تدعوه إلى إصلاح معنى اللقاء وإزالة ما يستطيع من الشواغل.

ذل لله لا امتهان للنفس

من القرآن: ربطت [البقرة: 45-46] خفة الصلاة على الخاشعين بذكر لقاء الله والرجوع إليه. فالخشوع خضوع وإع لرب كريم، وليس تحقيراً للنفس أو تعطياً لما أودع الله فيها من كرامة ومسؤولية.

الفرق بين الخشوع والمهانة يظهر في الثمرة. الذل لله يحرر العبد من عبودية المخلوق، ويجعله أصدق في الحق وأرحم بالخلق. أما امتهان النفس فيكسر قدرتها على أداء الواجب، أو يجعلها تقبل ظلم الناس باسم العبادة. ليس من الخشوع أن يسكت المرء عن حق يلزمه بيانه، ولا أن يترك علاجاً أو سبباً مباحاً، ولا أن يصف نفسه بما لم يخبر الله به.

تطبيق: حين يقول المصلي: «إياك نعبد وإياك نستعين» يجمع غاية الخضوع وطلب العون. فهو لا يعتمد على نفسه، ولا يلغي ما كلفه الله به. وبعد الصلاة يظهر هذا الجمع في موقف بسيط: يؤدي

واجبه، ويطلب المساعدة عند الحاجة، ولا يطلب من الناس ما لا يملكونه من سكينة القلب وقبوله.

أصل محكم: قرن القرآن الاستعانة بالصبر والصلاة بوصف الخاشعين أنهم يظنون لقاء ربهم وأنهم إليه راجعون [البقرة: 45-46]. وجه الدلالة أن الخشوع متعلق بالرجوع إلى الله، لا بتعظيم بشر أو مؤسسة أو جماعة. من عرف جهة الرجوع تحرر من جعل رضا الناس نهاية ميزانه.

الخضوع قد يقع بحق أو باطل، اختياراً أو قهراً؛ أما الخشوع الممدوح فعبادة لله، يضبطها الوحي. ولذلك لا يطلب من الإنسان أن يقبل الإهانة أو يأكل حقه أو يسلم عقله لمتحدث باسم الدين. المؤمن يوقر العلم وأهله، ويعرف فضل والديه ومعلمه، لكنه لا يمنح مخلوقاً حق التشريع أو العصمة أو الاطلاع على السرائر. وكل طاعة للمخلوق تبقى داخل طاعة الخالق وحدودها.

حد مانع للغلو: قد تستعمل لغة الخشوع لإسكات المظلوم: يقال له إن طلب حقه قسوة، أو إن بيان الضرر سوء أدب. هذا قلب للمعنى؛ فالذل لله يورث صدقاً وعدلاً، والعدل قد يحتاج كلمة واضحة. كما قد تستعمل قوة الشخصية ذريعة لتترك الانقياد للنص؛ وهذا الطرف المقابل لا يقل خطأ. الميزان أن يخضع القلب لله، ثم يؤدي الحقوق كما أمر، من غير كبر ولا مهانة.

تطبيق: حين يختار المرء في موقف بين الصمت والكلام، لا يسأل فقط: كيف أبدؤ خاشعاً؟ بل يسأل: ما الحق الواجب هنا؟ ما حدودي؟ وهل أستطيع قوله برفق وعدل؟ فإذا كان الكلام واجباً تكلم من غير تشف، وإذا كان الصمت أحكم صمت من غير خوف يلبس ثوب الورع. الخشوع يصلح النية وطريقة الأداء، لكنه لا يلغي فقه الموقف.

3 | الخشوع والإخبات

الإخبات دوام طمأنينة القلب إلى الله، والخشوع أثر يشتد عند الذكر والقرآن والصلاة؛ وبينهما قرب من غير أن يكونا لفظاً واحداً.

وموضع الاستدلال هنا [الحج: 34-35].
خطوة قريبة: أن يحمل الخشوع صاحبه على الصبر وإقامة الصلاة والإنفاق، كما جمعت الآيات صفات المحبتين.

المحبتون لا ينزلون عن العمل

من القرآن: جاءت صفات المحبتين في [الحج: 34-35] متتابعة: وجل القلب عند ذكر الله، والصبر على ما أصاب، وإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله. فهذا السياق يمنع اختزال الإخبات في حالة وجدانية مغلقة؛ إنه قلب يستجيب، ثم ترى استجابته في الصبر والصلاة والبذل.

قد يظن المرء أنه لا يزال بعيداً عن الخشوع لأنه لم يبك، بينما يكون قد كظم غضباً لله، أو ثبت على صلاة في تعب، أو أدى حقاً خفياً لا يراه الناس. هذه أعمال لا تقوم مقام حضور القلب، لكنها من شواهدة. والميزان هنا يحرر العبد من عبادة الانطباع: لا يطارد إحساساً معيناً، بل يبني أسباب العبودية التي سماها الوحي.

وللاِخبات أثر في طريقة تلقي البلاء؛ فهو لا يلغي الألم ولا يمنع الشكوى المشروعة، لكنه يمنع القلب من الاعتراض المتكبر. يتألم العبد، ويسأل ربه العافية، ويأخذ بالأسباب، ويظل يعلم أن له رباً حكيماً. هذا السكون العميق أقرب إلى حقيقة الخشوع من هيئة هادئة تنهار عند أول امتحان.

الإخبات الذي يتحرك

من القرآن: وصفت [الحج: 34-35] المخبتين بوجل القلب عند ذكر الله، والصبر، وإقامة الصلاة، والإنفاق. جاء الإخبات داخل سلسلة أعمال، لا بوصفه عزلة وجدانية عن الناس. سكون القلب لله لا يعني بروده أمام الواجب. قد يكون أصدق المخبتين أقلهم حديثاً عن حاله، لكنه أصبر عند المصيبة، وأحفظ للصلاة، وأسخى بما رزقه الله. لذلك لا يختبر المرء إخباته بقدره مؤقتة على التأثير، بل بقدرته على الثبات حين يطول الطريق ولا يصفق له أحد.

وللايتين ترتيب تربوي: التوحيد والتسليم في الآية الأولى، ثم صفات المخبتين في الثانية. كلما صح المقصود خفت منازعة القلب، وصار الذكر يوقظه بدل أن يمر به. والخطوة العملية أن يقرن العبد ذكراً يفهمه بعمل واحد: يصبر عن شكوى محرمة، أو يقيم صلاة

في وقتها، أو ينفق خفية. لا يجعل العمل ثمناً لحال القلب، بل شاهداً على استجابته.

أصل محكم: جمع وصف المختين في [الحج: 34-35] وجل القلب عند ذكر الله، والصبر على ما أصاب، وإقامة الصلاة، والإنفاق. هذه شبكة عمل كاملة: تأثر باطني، وثبات عند البلاء، وعبادة بدنية، وبذل مالي. لذلك يكون الإخبات سكون قلب إلى الله يظهر في الاستمرار، لا نحوذاً يقطع الإنسان عن واجبه.

قرب الإخبات من الخشوع لا يجعلهما لفظاً واحداً في كل سياق. الخشوع يبرز فيه الانخفاض والسكون للذكر والحق، والإخبات يبرز فيه استقرار القلب وإنابته وطمأنينته إلى ربه. والمقصود هنا ليس بناء فروق اصطلاحية قاطعة لا يحتملها النص، بل منع الخلط الذي يحو وظيفة كل سياق. آيات الحج نفسها هي الحارس: كل تعريف للإخبات لا يفسر الصبر والصلاة والإنفاق تعريف ناقص.

قد يشتد خشوع المرء في لحظة تلاوة، ثم يأتي امتحان الإخبات حين يطول المرض أو يتأخر الفرج أو يستمر واجب النفقة. هنا لا يقاس القلب بحرارة اللحظة السابقة، بل بثباته على الطاعة مع الألم. لا يعني الثبات غياب الشكوى المشروعة أو الدمع، وإنما يعني ألا يتحول الألم إلى اعتراض على الله أو سقوط متعمد للواجب.

تطبيق: يختار القارئ صفة من الصفات الأربع الواردة في السياق ويصلحها هذا الأسبوع: ذكراً يسمعه بقلبه، أو صبراً عن قول محرم، أو صلاة يحفظ وقتها، أو نفقة يؤديها. هذا ليس ورداً شرعياً مخصوصاً ولا عدداً تعبدياً، بل طريقة تنظيمية لمحاسبة النفس على دلالة الآيات. الإخبات الذي لا يجد طريقاً إلى الفعل يحتاج أن يعود إلى تعريفه.

4 | الخشوع والضراعة

الضراعة إظهار الافتقار والتذلل، والخشوع حال باطنة تضبط اللسان والجوارح؛ وقد تجتمعان في الدعاء حين يصدق الانكسار. وموضع الاستدلال هنا [الأنعام: 42-43].

خطوة قريبة: تليين القلب قبل الدعاء بذكر النعمة والتقصير، من غير تكلف بكاء أو رفع صوت.

من القرآن: يذكر القرآن أن أمماً أخذت بالبأساء والضراء لعلها تتضرع، ثم بين أن قسوة القلوب وتزيين العمل حالا دون ذلك [الأنعام: 42-43]. فالبلاء وحده لا يصنع خشوعاً؛ قد يمر الألم بالقلب فيرق، وقد يمر به فيزداد قسوة إذا لم يفتح صاحبه باب الصدق والمراجعة.

الضراعة إظهار الافتقار، والخشوع سكون وانقياد يملآن الباطن ويضبطان الظاهر. قد تجتمع الضراعة والخشوع في دعاء خفي، وقد يرتفع الصوت ولا يحضر القلب. لذلك لا تقاس حقيقة الدعاء بارتفاع النبرة، بل بحضور الحاجة، وصحة المسألة، واجتناب الاعتداء، وصدق الالتجاء إلى الله.

من أراد تليين قلبه قبل الدعاء فليسم نعمته وتقصيره وحاجته بعبارة واضحة. لا يخلق مشهداً ولا يستدعي دمة بالقوة. يقول ما

يعلم أنه حق: أنا فقير، وأنت الغني؛ أنا مقصر، وبابك مفتوح. هذا الصديق البسيط أرسخ من زخرفة تشغل الداعي عن مطلوبه.

الضراعة مراجعة لا ضجيج

من القرآن: في [الأنعام: 42-43] ذكر البأساء والضراء لعل الناس يتضرعون، ثم بيان قسوة القلوب وتزيين العمل. فالبلاء قد يوقظ، لكنه لا يضمن يقظة القلب ما لم يفتح صاحبه باب المراجعة.

الضراعة إظهار الحاجة، والخشوع سكون القلب وانقياده. قد يجتمعان في دعاء خافت، وقد يرتفع الصوت ويبقى القلب مشغولاً بصورة الداعي. لهذا لا يُختزل صدق الدعاء في نبرة أو دمعة. معيار أقرب: أن يعرف الداعي فقره، ويسأل سؤالاً مشروعاً، ويترك الاعتراض، ثم يأخذ بالسبب الذي أذن الله به.

تطبيق: قبل الدعاء يذكر العبد ثلاث حقائق: نعمة من الله، وتقصيراً من نفسه، وحاجة لا يقضيها إلا الله. هذا البناء القصير يمنع العموم البارد والتكلف المرهق. ثم يدعو بلسان واضح، ولا يراقب نفسه بحثاً عن أثر ظاهر. إن رق القلب ففضل، وإن لم يرق لم يترك الدعاء؛ فالافتقار حق ثابت وإن تأخر الشعور به.

أصل محكم: ذكر القرآن أن البأساء والضراء قد تكونان سبباً للتضرع، ثم كشف أن قسوة القلوب وتزيين العمل قد تمنعان

الاستجابة [الأنعام: 42-43]. وفي الذكر جاء الأمر بأن يذكر العبد ربه في نفسه تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول [الأعراف: 205]. هذان الموضعان يجمعان الحاجة والخفاء والخوف، ويمنعان اختزال الضراعة في ارتفاع الصوت.

الضراعة ليست تمثيل الضعف، بل اعتراف المخلوق بحاجته إلى خالقه. وهي لا تناقض استعمال السبب؛ المريض يتضرع ويطلب العلاج، والمظلوم يدعو ويسلك طريق رفع الظلم، وصاحب الدين يسأل الفرج وينظم وفاءه. ترك السبب الممكن باسم الانكسار قد يكون هروباً من المسؤولية، كما أن عبادة السبب ونسيان المسبب قسوة من نوع آخر.

حد الاستدلال: لا يجوز الجزم بأن كل بلاء عقوبة مخصوصة، ولا أن كل تأخر للفرج علامة على قسوة صاحبه. الآيات تكشف سنة تربوية عامة وتدعونا إلى التضرع، لكنها لا تمنح أحداً علم الغيب في أحوال الأفراد. نقول: البلاء موطن افتقار ومراجعة؛ ولا نقول بغير دليل: نزل بك لأنك فعلت كذا.

تطبيق: قبل الدعاء يحدد العبد حاجته بصدق، ويميز ما يطلبه من الله مما يجب عليه فعله. يقول: يا رب أصلح قلبي، ثم يبعد سبب الغفلة الذي يعرفه. يسأل الرزق، ثم يؤدي واجبه في السعي. يستغفر من ظلم، ثم يرد الحق. بهذا تخرج الضراعة من الانفعال المؤقت إلى عبودية تجمع القول والعمل.

حين يكون خفض الصوت عبودية لا صناعة هيئة

جمع القرآن في الدعاء بين التضرع والخفية، فقال تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [الأعراف: 55]. ليس المقصود أن تكون كل دعوة همساً لا يسمع، ولا أن الجهر المشروع في مواضعه نقص، وإنما المقصود أن يعرف الداعي مقامه: عبد محتاج يسأل رباً قريباً، فلا يحول الدعاء إلى عرض لقدرة صوته، ولا يتجاوز فيه حدود الأدب والشرع. التضرع وصف للقلب والطلب، والخفية سياج يحفظ القرب والإخلاص، والنهي عن الاعتداء يمنع أن يتخذ العبد حرارة الشعور ذريعة لطلب محرم أو تعدي حد.

الخشوع هنا لا يُقاس بدرجة انخفاض الصوت وحدها. قد يخفض المرء صوته وقلبه مشغول بأن يراه الناس خاشعاً، وقد يجهر الإمام بدعاء مسموع لحاجة التعليم أو الاجتماع وهو مستحضر فقره. الهيئة تخدم المعنى ولا تخلقه من تلقاء نفسها. ولهذا لا يصح أن نبني حكماً على الصورة المفردة؛ ننظر إلى موافقة السنة، وحضور القلب بقدر الاستطاعة، وسلامة الطلب من العدوان.

ومن الاعتداء أن يجعل الإنسان دعاءه وسيلة للخصومة أو التعدي على من لا يستحق، أو أن يتكلف السجع حتى يضيع المقصود، أو أن يطلب منزلة تناقض ما شرع الله ثم يسمي ذلك حسن ظن. أما حسن الظن الحق فيدفع إلى سؤال واسع مع

عبودية وتسليم، ويجمع الرجاء بالعمل، ولا يحول الربوبية إلى وعد يصوغه العبد على هواه.

التطبيق أن يختار العبد دعاء ثابتاً أو دعاء واضح المعنى، فيقوله بعيداً عن مراقبة أثره في السامعين. يبطئ بقدر ما يفهم، ولا يلزم نفسه بنبرة خاصة. إن انكسر قلبه شكر، وإن لم يجد حرارة ظاهرة استمر في السؤال؛ فصدق الافتقار أوسع من علامة صوتية عابرة. قال تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف: 205]. الآية تربط أربعة معان: دوام الذكر في طرفي النهار، وحضور التضرع، وصحبة الخيفة، والبعد عن الغفلة. فهي لا تقدم تقنية صوتية منفصلة، بل منهج علاقة يتكرر حتى يصير ذكر الله مرجعاً للقلب في بداية الحركة ونهايتها.

الذكر الخفي امتحان لطيف للإخلاص؛ لأنه لا يقدم لصاحبه شهادة اجتماعية. لا يسمع الناس حسن ترتيبه، ولا يرون عدد كلماته، ولا يعلمون ما جاهد به شروده. لذلك يصلح أن يكون نصيباً ثابتاً يعالج تعلق القلب بالشهود. وليس معنى هذا احتقار خلق الذكر المشروع أو التعليم الجهري؛ فالشرع جاء بهذا وذاك، وإنما لكل مقام حكمته.

والخيفة في الآية ليست ذعراً يقطع الرجاء. إنها وعي بجلال من يذكر، وخوف من الغفلة والتقصير، مع بقاء باب القرب

مفتوحاً. من أخطأ ثم ذكر الله لا يطرد نفسه من الباب، بل يعود. ومن أطاع لا يأمن مكر قلبه، بل يسأل القبول. بهذه الموازنة يزول طرفان: أمن يجعل الذكر عادة باردة، ويأس يجعل المذنب يترك الذكر لأنه لا يرى نفسه أهلاً له.

يمكن أن يبدأ التطبيق بدقائق معلومة في أول اليوم وآخره، مع ذكر ثابت صحيح وفهم موجز لمعناه. لا يحولها إلى منافسة عددية، ولا يتركها إذا شرد. كل عودة من الشرود جزء من التربية؛ فالهدف أن يتعلم القلب جهة الرجوع، لا أن يدعي صفاءً لا ينقطع.

قد يظن بعض الناس أن التضرع الصادق يقتضي ترك التخطيط، كأن كتابة الموعد أو مراجعة الطبيب أو استشارة الخبير تناقض الافتقار. وهذا خلط بين اعتماد القلب وحركة الجوارح. العبد يتضرع لأنه لا يملك النتيجة، ويأخذ بالسبب لأنه مأمور بما يقدر عليه. كلما اتضح له عجزه عن خلق الأثر، ازداد صدقه في الطلب وحسن استعماله للوسيلة.

في الصلاة يسأل الهداية، ثم عليه أن يفتح كتاب العلم ويسأل أهل الذكر ويترك طريق الفتنة. ويسأل الرزق، ثم يمشي في مناكب الأرض بصدق. ويسأل صلاح أهله، ثم يعطيهم وقتاً وقدوة وحدوداً عادلة. الدعاء الذي لا يثر مسؤولية قد يكون أمنية

تتزين بلسان العبادة، والعمل الذي يستغني عن الدعاء قد يتحول إلى عبادة للسبب.

الخشوع يعيد ترتيب العلاقة: السبب عبد مثلنا لا يخلق، والنتيجة بيد الله، والتكليف فيما نستطيع. فإذا نجح السبب لم يعبد الإنسان ذكاءه، وإذا تعطل لم يكفر بكل وسيلة. يراجع ويبدل ويصبر، ويعلم أن تدبير الله لا يقاس بلحظة واحدة.

ومما يحفظ الضراعة من الوهم أن يكون الطلب محددًا من غير اشتراط على الله. يقول حاجته بوضوح، ويستشير في خطته، ثم يرضى بأن الاستجابة قد تأتي بصورة أخرى أو وقت آخر. هذا الرضا لا يمنعه من تكرار الدعاء؛ بل يحرره من عبادة الصورة التي تخيلها.

5 | خوف مع سكون

ليس الخشوع فزعاً يبعثر القلب، بل خوف يعرف عظمة من يخافه فيسكن له، ويجاوره رجاء يدفع إلى المسارعة في الخيرات. وموضع الاستدلال هنا [الأنبياء: 90].

خطوة قريبة: قياس الخوف بأثره: إن أورث طاعة ورجاءً فهو تربية، وإن أورث قنوطاً فليس هو الميزان القرآني.

من القرآن: وصف الله زكريا وأهله بأنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعونه رغباً ورهباً وكانوا له خاشعين [الأنبياء: 90].

جمع السياق الحركة إلى الخير، والرجاء، والخوف، والخشوع؛ فلم يجعل الخشوع ذعراً يشل الإرادة، ولا رجاءً آمناً من المحاسبة.

الخوف النافع يحدد الخطوة التالية: توبة، ورد مظلمة، حفظ صلاة، ترك سبب معصية. أما الخوف الذي يكتفي بتعذيب النفس ثم يتركها مكانها، فيحتاج صاحبه أن يراجع بنصوص الرجاء والعمل. وكذلك الرجاء الذي لا يحرك إلى طاعة أمنية لا تنهض بالقلب.

حين يجتمع الرغب والرهب يستقيم السير. يرجو العبد رحمة ربه فيجرؤ على العودة، ويخاف حسابه فيصدق في التصحيح. وفي الصلاة يورثه ذلك سكوناً: لا يهرب من الله، بل يهرب إليه؛ ولا يقف معتمداً على عمله، بل على فضل ربه مع أداء ما أمر.

خوف يجمع القلب

من القرآن: جمع وصف زكريا وأهله في [الأنبياء: 90] المسارعة في الخيرات، والدعاء رغباً ورهباً، والخشوع. الخوف هنا قوة تحرك إلى الخير، لا فرعاً يبعثر القلب أو يقنطه.

يعرف الخوف النافع من خطوته التالية. من خاف حساب المظلمة ردها، ومن خاف ضياع الصلاة نظم ما قبلها، ومن خاف قسوة قلبه أكثر من أسباب حياته. أما خوف يكرر الاتهام ولا يفتح باب التوبة، فيحتاج إلى أن يصحبه رجاء الله ونصوص رحمته. وكذلك الرجاء الذي لا يغير عملاً أمنية مريحة لا تربى.

وفي الصلاة يتحول هذا الجمع إلى سكون: يقف العبد خائفاً من تقصيره، راجياً قبول ربه، فلا يفر من الله بل يفر إليه. لا يطالبه الخشوع أن ينسى ضعفه، بل أن يضعه في موضعه الصحيح؛ ذنب يستغفر منه، وعجز يستعين عليه، ورحمة يرجوها من غير أمن ولا قنوط.

أصل محكم: في وصف زكريا وأهله [الأنبياء: 90] لم يأت الرهب منفرداً؛ أحاطت به المسارعة والرغب والدعاء والخشوع. البنية نفسها هي موضع الدلالة هنا: حين يستولي معنى واحد حتى يقطع بقية المعاني يحتل السير. الخوف الممدوح يحرس الوجهة، لكنه لا يأكل الرجاء ولا يعطل المسارعة.

السكون المصاحب للخشوع لا يعني انعدام الاضطراب النفسي أو الأعراض الجسدية. قد يخاف الإنسان ويحتاج إلى علاج أو استشارة، ولا يصح تحويل كل اضطراب إلى تهمة في الإيمان. وفي المقابل، لا يصح استعمال اللغة النفسية لمحو مسؤولية التوبة. لكل باب سببه وعلاجه، وقد يجتمع العلاج الطبي مع الذكر والدعاء وتصحيح العمل من غير تعارض.

ميزان عملي: الخوف النافع يحدد شيئاً يمكن إصلاحه: فريضة تحفظ، ومظلمة ترد، ومعصية تترك، وخلوة تصان. أما الخوف الذي يدور حول الذات بلا خطوة، ويقتط صاحبها من رحمة الله، فيحتاج إلى تصحيح بالرجاء ووعد المغفرة. والرجاء الذي لا يمنع من الإصرار يحتاج إلى تصحيح بالخوف. التوازن ليس نصف شعور من كل نوع، بل أن يؤدي كل معنى وظيفته.

تطبيق: عند ورود الخوف يكتب الإنسان — في نفسه أو ورقه — ثلاثة أعمدة: ما أخافه، وما أملكه من سبب مشروع، وما أفوضه إلى الله. هذه وسيلة تنظيمية لا عبادة مخصوصة. فائدتها أن تمنع اختلاط التكليف بالغيب: يفعل ما يقدر عليه، ويتوب مما يعلم، ولا يعذب نفسه بمحاولة السيطرة على ما لم يجعل الله إليه سبيلاً.

الخوف القرآني يعمل ولا يشل

وصف الله زكريا وأهله فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: 90]. ترتيب المعاني جدير بالتأمل: مسارعة في الخير، ودعاء يجمع الرغبة والرغبة، وخشوع لله. فالخوف الذي يورثه الإيمان ليس دورانا عقيماً حول توقع الكارثة، بل قوة ترد العبد إلى العمل والدعاء. والرجاء ليس راحة تمنع الحركة، بل رغبة تدفع إلى الباب. إذا زاد خوف الإنسان حتى ترك الصلاة أو قنط من التوبة أو عجز عن حق واجب، فقد دخل عليه خلل يحتاج إلى علم وعلاج، ولا يسمى ذلك كمال خشوع. وإذا خلا قلبه من الخوف حتى استهان بالحدود وأجل الرجوع، فهذه غفلة لا سكينة. الاعتدال الشرعي لا يعني تساوي الانفعال في كل لحظة؛ فقد يغلب الخوف عند هم المعصية، ويغلب الرجاء عند التوبة، لكن كليهما يبقى تحت سلطان معرفة الله ووعدده ووعدده.

وفي التعامل التربوي لا يصح استعمال أخبار العقوبة لإحداث انهيار ثم ترك السامع بلا طريق. البيان النبوي يفتح العمل: توبة، ورد مظلمة، صلاة، صدقة، دعاء. حين يعرف الإنسان الخطوة التالية يصير خوفه حارساً، أما إذا حبس في وصف نفسه بالسوء فقد يتحول الكلام عن الخشوع إلى تثبيت للعجز.

التطبيق عند خوف ديني محدد أن يسأل: ما الواجب الذي يدلني عليه هذا الخوف؟ إن كان ذنباً فالتوبة وشروطها، وإن كان حقاً للخلق فالرد أو الاستحلال بما لا يزيد الضرر، وإن كان وسواساً متكرراً فعدم الاسترسال وطلب المساعدة. الخوف النافع يدل على باب، لا يبني متاهة.

قال تعالى في وصف السابقين: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ { [المؤمنون: 60-61]. الرجل صاحب عمل لا بديل عنه، يعطون ويطيعون ثم يخافون الرد والتقصير، فلا يمنعهم الخوف من العطاء، ولا يحملهم العطاء على تزكية أنفسهم. هذه منزلة بين العجب والقنوط.

لكن الخوف من عدم القبول لا يبيح للعبد أن يجزم أن الله رد عمله. القبول غيب، فلا يشهد لنفسه به ولا عليها بنقيضه. يعمل بشروط العبادة، يستغفر من النقص، ويرجو فضل الله. أما إعادة الصلاة الصحيحة بلا سبب، أو تكرار النية لأن القلب يطلب يقين شعوري، فليست دليل ورع؛ قد تكون استرسالاً يضعف العبادة.

والفرق بين الرجل والوسواس يظهر في الثمرة. الرجل يقود إلى تحسين يمكن وصفه: علم بحكم، تصحيح مظلمة، ستر عمل، دعاء قبول. الوسواس يطالب بضمان لا يملكه البشر، ويعيد الفحص

بعد اكتمال السبب، ويكبر الاحتمال الضعيف حتى يبتلع الواجبات. لذلك يحتاج صاحبه إلى قاعدة يتوقف عندها، وإلى أهل اختصاص إذا استمر الضرر.

تربية القلب على الوجل تبدأ بعد العمل لا بإفساده أثناءه. يؤدي العبادة كما تعلم، ثم يستغفر ويسأل القبول وينتقل إلى حق آخر. لا يقف ساعات يفحص هل شعر بما يكفي؛ فالله كلفه عملاً ظاهراً وقصداً مستطاعاً، ولم يكلفه أن يطلع على سجل القبول.

قد يظهر على الإنسان سكون شديد في مجلس صاحب سلطة، ثم يظنه خشوعاً. الهيبة من الله تُصلح السر والعلن، أما الخوف من الناس فقد يصنع انضباطاً مؤقتاً يزول بغياهم. ليس كل ارتباك خشوعاً، ولا كل ثبات قسوة؛ فالميزان جهة القلب وآثارها في الطاعة.

الخوف من نظر الناس يكثر معه تعديل الصورة: ينتقي المرء الكلمات التي تحمي مكانته، ويؤجل الاعتراف، ويتشدد أمام جماعة ويرخص لنفسه في الخلوة. أما خشية الله فتعطيه شجاعة الاعتذار؛ لأنه لا يحتاج أن يبقى كاملاً في أعين الخلق. وتمنعه في الوقت نفسه من الفظاظة؛ لأنه يعلم أن القوة أمانة.

ولا يعني ذلك أن يتخلص الإنسان من كل اعتبار اجتماعي. مراعاة الحقوق والأنظمة والسمعة الطيبة مصالح معتبرة، لكنها لا تكون رباً خفياً. إذا تعارض رضا الناس مع واجب بين، قدم

الواجب بحكمة. وإذا كان الخلاف في مباح أو اجتهاد، لم يتخذ شعار الإخلاص ذريعة لإيذائهم.

اختبار عملي: ما الفعل الصالح الذي يستمر عند غياب المراقبة؟ وما الخطأ الذي يمكن الاعتراف به من غير صناعة بطولة؟ الإجابة لا تمنح حكماً نهائياً على القلب، لكنها تكشف موضع تدريب. ثم يوضع سبب: موعد خفي للطاعة، أو سجل خاص، أو صاحب أمين يذكر بالحق دون أن يتحول إلى بديل عن مراقبة الله.

الخوف الذي يفتح ولا يغلق

النص الشرعي: جمع الله في وصف أهل المسارعة بين الخشية والإيمان والتوحيد وبذل العمل مع وجل القلب: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ} إلى قوله: {أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} [المؤمنون: 57-61]. وفي وصف زكريا وأهله جمع المسارعة والدعاء رغباً ورهباً والخشوع [الأنبياء: 90]. لا تعرض الآيات خوفاً معزولاً، بل خوفاً داخل شبكة من الإيمان والعمل والرجاء.

الخوف النافع لا يجعل العبد واقفاً عند سؤال: هل هلكت؟ بل ينقله إلى سؤال: ما الحق الذي أستطيع أدائه الآن؟ إنه يمنع الأمل الكاذب من غير أن يقطع حبل الرجوع. فإذا اكتشف المرء تقصيراً لم يحتج إلى إصدار حكم على مصيره؛ يكفي أن يعرف

الباب الذي فتحه الله له: توبة، أو صلاة، أو رد حق، أو ترك سبب يحجره إلى المعصية.

وقد يختلط الخوف بالقلق. الخوف الشرعي له متعلق معلوم وطريق عمل معلوم: يخاف ذنباً فيتركه، أو حساباً فيستعد، أو تقصيراً فيستغفر ويصلح. أما القلق فقد يدور بلا موضوع محدد، ويطلب يقيناً نفسياً لا يملكه بشر. حينئذ لا يعالج صاحبه بكثرة اتهام نفسه، بل بالعلم والرفق وتنظيم السبب، وبالاستعانة بمن يحسن العلاج إن تجاوز الأمر قدرة الوعظ العام.

السكون الملازم للخشوع ليس بروداً تجاه الوعيد؛ هو ثمرة معرفة الطريق. من عرف أن باب التوبة مفتوح، وأن التكليف بحسب الاستطاعة، استطاع أن يتحرك من غير فوضى. ولذلك تكون علامة الخوف النافع أنه يضيق مساحة التسويف ويوسع مساحة الصدق، لا أنه يرفع صوت اللوم داخل النفس طوال اليوم.

في الصلاة يمكن اختبار ذلك عند آية وعيد: لا يفتش المصلي في اللحظة نفسها عن كل خطاياها، فيضيع عنه السياق، ولا يمر بالآية كأنها لا تعنيه. يسمعها، ويعتبر على الوجه المشروع، ثم يجعل لها بعد السلام أثراً محمداً. هكذا تبقى الصلاة موطن عبودية، ويستمر أثرها في القرار.

تطبيق: يكتب المرء بعد الصلاة أمراً واحداً يخاف عاقبته، ويقابله بخطوة مشروعة قابلة للإنجاز. فإن كان ديناً رتب سداداً،

وإن كان قطيعة بدأ بباب إصلاح، وإن كان تفريطاً في فرض أصلح وقته. لا يحول القائمة إلى سجل لإيلاام الذات؛ يجعلها جسراً من الرهبة إلى المسارعة.

6 | خشوع القلب وخشوع الجوارح

الأصل في القلب، لكن صدقه يترك أثراً في السمع والبصر والحركة. ولا يصح فصل الباطن عن الظاهر حتى يصير أحدهما دعوى والآخر هيئة.

وموضع الاستدلال هنا [المؤمنون: 1-2].

خطوة قريبة: تقليل الحركة في الصلاة مع معالجة سببها، لا الاكتفاء بتجميد البدن والقلب يطوف في شواغله.

صدق الجارحة تابع لا بديل

يقرر ابن رجب في «الذل والانكسار للعزیز الجبار» أن أصل الخشوع في القلب: انكساره لله وخضوعه وسكونه عن الالتفات إلى غير من يقف بين يديه، ثم تتبع الجوارح القلب. ومن هنا يكون إصلاح الظاهر ثمرة لإصلاح الباطن، لا بديلاً عنه؛ فالسكون وحده لا يصنع خشوعاً، وإنما يدل عليه حين يصدر عن تعظيم وحضور وخضوع لله. («الذل والانكسار للعزیز الجبار»، موضع: «وأصل الخشوع...»).

دليل نبوي مباشر: ثبت في صحيح مسلم 771a من دعاء النبي ﷺ في الركوع قوله إن سمعه وبصره ومخه وعظمه وعصبه قد خشعت لله. يجمع هذا اللفظ أعضاء الإدراك والحركة تحت عبودية

واحدة، فلا يبقى خشوع القلب دعوى معزولة عن السمع والبصر والبدن، ولا تتحول هيئة البدن إلى بديل عن القلب. إذا كثرت حركة المصلي، فليبدأ بأسباب محسوسة: يفرغ حاجته، ويبعد ما يلفت بصره، ويضع الهاتف خارج مجال الانتباه، ويتعلم هيئة الصلاة بهدوء. ثم يضم إلى ذلك عمل القلب: فهم الذكر واستحضار الوقوف. الجمع بين السببين أعدل من لوم النفس بكلمات عامة.

وقد يسكن البدن والقلب بعيد، وقد يتحرك المصلي لحاجة مشروعة وقلبه حاضراً. لذلك لا يصدر الإنسان حكماً على باطن غيره من حركة عارضة، ولا يترك إصلاح ظاهره بحجة أن العبرة بالقلب. الشريعة تجمع ولا تفرق: قلب يخضع، وجارحة تتأدب، ووعي يحفظ أحكام الصلاة وحقوق من حوله.

من القرآن: افتتحت [المؤمنون: 1-2] صفات الفلاح بالخشوع في الصلاة. ويفهم من اتصال بقية الصفات أن أثر القلب لا يبقى محبوساً داخله.

وتعنى مادة «أعمال القلوب» في مبحث «الأمر التي تنافي الخشوع»، بمنافيات الخشوع العملية، ومن ذلك الالتفات والعبث. ولا يعني هذا أن كل حركة تكشف باطن صاحبها، لكنه يجعل الجوارح مجالاً مشروعاً للتهديب.

تطبيق: إذا كثرت الحركة بحث المصلي عن سبب محدد: هاتف قريب، لباس يشغله، حاجة بدن، استعجال، أو جهل بالهيئة. يعالج السبب قبل أن يكتفي بلوم غامض. ثم يتعلم أن الطمأنينة ليست تجميداً للبدن؛ إنها إعطاء كل ركن زمنه ومعناه. وقد تقع حركة لحاجة مشروعة فلا يجوز تحويلها إلى حكم على القلب. العدل أن يصلح الإنسان نفسه، ويحسن الظن بغيره، ويجمع بين فقه الظاهر وتربية الباطن.

الجوارح تترجم ولا تكشف السر كله

أصل محكم: افتتح وصف المؤمنين المفلحين بخشوعهم في الصلاة [المؤمنون: 1-2]. وثبت في صحيح مسلم 771a أن النبي ﷺ قال في ركوعه إن سمعه وبصره ونخه وعظمه وعصبه خشعت لله. يجمع الحديث أعضاء الإدراك والحركة في عبودية واحدة، لكنه لا يجعل الناس قضاة على بواطن بعضهم من حركة عارضة.

قرر ابن رجب في «الذل والانكسار للعزیز الجبار» أن أصل الخشوع في القلب، وأن الجوارح تتبعه. أما العبارة المشهورة «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه» فليست حديثاً ثابتاً عن النبي ﷺ؛ وقد أخرج عبد الرزاق في «المصنف» هذا الأثر عن ابن المسيب عن طريق الثوري عن رجلٍ مبهم (رقم 3309 في ترقيم تحقيق الأعظمي)؛ لذلك لا نجعل ثبوت النسبة إليه أصلاً مستقلاً

في الاستدلال، وإن كان معنى تبعية الجوارح للقلب تشهد له الأصول الثابتة. وتعرض مادة «أعمال القلوب» في مباحث الطريق إلى الخشوع وثمراته وما ينافيه، طريق تحصيل الخشوع ومنافياته العملية. ويثبت من مجموع ذلك أصل التلازم التربوي، لا حق الحكم القطعي على السرائر.

قد يكون اضطراب الجارحة بسبب مرض، أو حاجة، أو جهل بالهيئة، أو شاغل عارض. وقد يسكن البدن تصنعاً والقلب أبعد ما يكون. العدل يقتضي أن يصلح الإنسان ما يراه من نفسه، وألا يبنى على ظاهر غيره دعوى في الباطن. كما أن الاحتجاج بالقلب لترك أدب الظاهر دعوى ناقصة؛ فمن صدق في طلب الخشوع عالج ما يستطيع من الحركة والالتفات والشاغل.

تطبيق: يراجع المصلي أربع بوابات قبل لوم قلبه بكلمة عامة: بدن محتاج، ومكان مشئت، ومعنى يجهله، وحق يشغله. يقضي الحاجة، ويهيئ المكان، ويتعلم الذكر، ويرد الحق أو يضع له خطة. ثم يدخل الصلاة ويعيد قلبه كلها ذهب. ليست العودة بعد الشرود فشلاً؛ الفشل أن يختار الاسترسال ثم يسميه عجزاً لا علاج له.

لا يقوم الخشوع على خوف مبهم من قوة لا يعرفها العبد؛ يقوم على معرفة الله بأسمائه وآياته ووعدته ووعيده. يعرف رحمته فلا يقنط، ويعرف عظمته فلا يأمن، ويعرف حكمته فلا يجعل تأخر مطلوبه دليل إهمال. كلما صحت المعرفة استقام الشعور تحتها.

ومصدر المعرفة الوحي، لا التخيلات التي يصنعها المزاج. قد يتصور الإنسان أن الله لن يغفر له لأن الناس لم يغفروا، أو يظن أن المحبة الإلهية تعني حصول كل ما يريد. تصحيح هذه الصور عبادة علم، وهو أسبق أحياناً من مطالبة القلب بمزيد من الانفعال.

يتعلم من القرآن والسنة وشرح أهل العلم، ويقف عند ما لم يعلم. ليس مطلوباً أن يخوض في دقائق لا يحسنها؛ يكفي من كل اسم معنى صحيح يثمر دعاء وعبادة. فإذا علم أن الله سميع حفظ قوله ودعائه، وإذا علم أنه غفور رجع، وإذا علم أنه حكيم سلم مع بذل السبب.

برنامج المعرفة لا ينفصل عن الصلاة. يختار اسماً ورد في الآيات التي يقرأها، ويراجع معناه من مصدر موثوق، ثم يدعو به. هكذا يصير العلم غذاء للخشوع لا معلومة على هامشه.

7 | خشوع صادق و خشوع متكلف

الخشوع الصادق استجابة للنص ومعرفة بالله، والمتكلف هيئة يراد بها نظر الناس أو استجلاب شعور سريع. ولا يلزم الصادق أن تبدو عليه صورة واحدة في كل حال.

وموضع الاستدلال هنا [الزمر: 23].

خطوة قريية: ترك مراقبة الناس في هيئة العبادة، ومحاسبة النفس على المعنى والعمل بعدها.

من القرآن: وصفت آية الزمر أثر القرآن في الذين يخشون ربهم: تقشعر الجلود ثم تلين الجلود والقلوب إلى ذكر الله [الزمر: 23]. نسبت الآية الأثر إلى سماع أحسن الحديث وهداية الله، لا إلى مشاهدة الناس أو استحسانهم. وقد يقع الأثر ظاهراً وقد يبقى في القلب، وليس للناس قالب واحد يحكمون به على الصادقين.

أخطر ما يفسد الخشوع أن يتحول صاحبه من مراقبة الله إلى مراقبة صورته عند الخلق. يسأل: هل بدا صوتي رقيقاً؟ هل رأوا دمعي؟ وحينئذ قد تصير الهيئة التي قصد بها العبادة حجاباً عنها. العلاج ليس ترك كل أثر ظاهر، بل صرف النظر عن تقييم الناس، وكتمان ما يمكن كتمه، وربط العمل بما بعد الصلاة.

والخشوع المتكلف لا يعالج بقسوة جديدة على النفس، بل بالعودة إلى الأصل: معرفة، وذكر، وفهم، وصدق. فإذا جاء

الدمعة حمد الله ولم يعرضها، وإذا لم تأت لم يهتم النص ولا يختلقها. ثم فتش عن العلامة الأصدق: هل نهته الصلاة عن ظلم؟ هل رق لضعيف؟ هل أسرع إلى توبة؟

الصدق لا يحتاج إلى جمهور

من القرآن: تصف [الزمر: 23] أثر القرآن في الذين يخشون ربهم: تقشعر جلودهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. نسب السياق الأثر إلى كلام الله وهدايته، لا إلى مشاهدة الناس. قد يظهر الخشوع وقد يخفى، ولا يملك الناس قلباً واحداً يزنون به القلوب. التكلف يبدأ حين ينتقل المصلي من مراقبة ربه إلى مراقبة صورته: كيف بدا صوته؟ هل لاحظوا دمعه؟ والعلاج ليس قمع كل أثر طبيعي، بل ترك عرضه وطلب الثناء عليه. بعد العبادة يختبر المرء صدقه في الغيب: هل بقي من الذكر ما يمنعه من معصية خفية؟ هل صار ألين عند الحق؟ هذا الامتحان لا يمنحه شهادة قطعية على قلبه، لكنه يصرفه عن التمثيل إلى العمل. وإن لم يجد أثراً كافياً، عاد إلى أسباب الخشوع: فهم، وذكر، وتوبة، وترك شاغل، لا إلى صناعة ملامح يراها الناس. أصل محكم: وصفت [الزمر: 23] أثر القرآن باقشعرار الجلود ثم لين الجلود والقلوب إلى ذكر الله. الآية تثبت أثراً ظاهراً وباطناً،

وترده إلى كلام الله وهدايته، ولا تجعل صورة واحدة شرطاً لكل قارئ في كل مرة.

الناس يتفاوتون في سرعة الدمع، ونبرة الصوت، وقوة التأثر الظاهر. لا يلزم من قلة الدمع قسوة قطعية، ولا من كثرتة صدق قطعي. المعيار الذي يملكه الإنسان هو أن يفتش عن قصده وأثر العبادة في اختياره، لا أن يمنح نفسه أو غيره حكماً على القلب. وقد يكون من الصدق أن يكتم أثراً ظهر، وقد يكون من الصدق أن يراه الناس من غير قصد؛ الفرق في الإرادة لا في مجرد المشهد. منع التكلف: التكلف لا يبدأ فقط باصطناع البكاء؛ قد يبدأ بمراقبة الذات مراقبةً تفسد العبادة: هل خشعت الآن؟ هل بلغت الدرجة؟ هل تغير صوتي؟ فينتقل القلب من المذكور إلى صورته هو. المحاسبة تأتي في موضعها، أما أثناء العبادة فالأصل أن يرد نفسه إلى المعنى كلما التفت إلى تقييم أدائه.

تطبيق: بعد الصلاة لا يسأل: كم دقيقة حضرت؟ وحده، بل يسأل أيضاً: ما المعنى الذي فهمته؟ وما الحق الذي سيبقى معي؟ إن وجد تقصيراً أصلح سبباً محدداً، وإن وجد فتحاً شكر الله ولم ينسب الفضل إلى خطته. الصدق لا يعد صاحبه بحال دائم، لكنه يعلمه ألا يبيع لحظة العبادة في سوق الشناء.

الخشوع الصادق لا يحتاج إلى إعلان نفسه

أخفى ما في الخشوع أنه عمل قلب، وأظهر ما فيه أنه يثمر اتباعاً وسكينة مشروعة. لذلك لا يملك أحد أن يشهد لنفسه بكماله، ولا أن يحكم على باطن غيره من لقطة. قد يبكي الإنسان صدقاً، وقد لا يبكي وقلبه حاضر، وقد تتحرك عينه لسبب جسدي. الدليل لا يجعل العلامة المفردة محكمة على السرائر.

التكلف يبدأ حين ينقل المرء انتباهه من الله إلى صورة نفسه: كيف يبدو صوتي؟ هل لاحظوا طول سكوتي؟ هل تشبه حركتي حركة من قرأت عنهم؟ هذه الأسئلة قد تعرض بلا اختيار، والعلاج ألا يجيبها بالفعل. يعود إلى معنى الآية أو الذكر، ويترك الهیئة تتبع الحاجة الطبيعية.

ولا يعني الخوف من الرياء ترك العمل الظاهر الذي شرع أو احتيج إليه. الإمام سيقراً مسموعاً، والمعلم سيشرح، والمتصدق قد يعلن لمصلحة معتبرة. المجاهدة أن يصحح القصد، ويقلل الفضول، ولا يحول كل خوف داخلي إلى قرار انسحاب. فالشيطان قد يفتح باب الرياء ليمنع العمل، وقد يفتح باب الخوف من الرياء للغرض نفسه.

علامة نافعة للصدق هي الاستقرار حين يغيب الثناء، وقبول التصحيح حين يظهر الخطأ، وترك ما لا يحتاج إليه الناس من وصف التجربة. هذه العلامات ليست شهادة قبول، لكنها أبواب

محاسبة قابلة للعمل. أما سؤال القلب بلا نهاية: هل أخلصت تماماً؟ فقد ينتهي إلى عجز؛ يكفي أن يجدد النية ويمضي.
ربط بعض الناس الخشوع بجمود الجسد حتى صار المصلي يقاوم حاجة يسيرة مشروعة، أو يترك دفع أذى، أو يتحمل ما يذهب فهمه. السكون في الصلاة مقصد تابع للطمأنينة والأدب، لكنه لا يلغي الحركة لحاجة. الحكم الفقهي يضبط الباب، ولا يتركه للذوق وحده.

وقد تكون الحركة القليلة لإصلاح الثوب أو سد فرجة أو حمل طفل أرحم بالقلب من صراع طويل مع التشوش. ليس المقصود فتح باب العبث؛ بل رد الحركة إلى مقدار الحاجة. من تحرك لا يحكم على نفسه بانعدام الخشوع، ومن سكن لا يزك نفسه.
وخارج الصلاة قد يكون الخشوع في سرعة إلى واجب. المسعف الخاشع لا يمشي ببطء مصطنع، والأب لا يؤخر إنقاذ طفله ليحفظ نبرة هادئة، وصاحب الحق لا يترك إجراء عاجلاً. انقياد الجارحة يتلون بالمأمور: تسكن حيث السكون طاعة، وتسرع حيث المسارعة خير.

المحاسبة العملية أن يميز المصلي بعد الصلاة بين ثلاث حركات: عبث يمكن قطعه، وحاجة يمكن تنظيمها قبل التكبير، وحاجة طرأت ولا حرج فيها. هذا التفصيل أعدل من حكم واحد قاس، ويمنح التحسن طريقاً واضحاً.

خشوع الإيمان وخشوع الصورة

تميز مادة «أعمال القلوب» في مبحث «أنواع الخشوع»، بين خشوع ينشأ من الإيمان والمعرفة، وخشوع تظهر صورته على الجوارح ولا يوافقها القلب. المقصود من هذا الفرق ليس فتح باب التفتيش في النيات؛ فالسراير إلى الله، وإنما حماية المرء من أن يكتفي بمشهد يصنعه لنفسه أو للناس.

خشوع الإيمان يبدأ بمعنى يطرق القلب: علم بالله، أو تذكّر للقاء، أو فهم لآية، ثم يهدأ البدن تبعاً لذلك على قدر الحال. قد تكون آثاره ظاهرة وقد تكون خفية. أما خشوع الصورة فيجعل الهيئة أصلاً، ثم يطلب من القلب أن يلحق بها كي يصدق الجمهور. ولهذا يمكن أن تجتمع قلة الحركة مع انشغال القلب بطلب المديح، كما يمكن أن يجاهد إنسان حركة عارضة وقلبه صادق في العودة.

الميزان العملي أن يسأل المرء عما يحدث حين يغيب الرائي. هل يحفظ الصلاة والحق في الخلوة؟ هل يقل أذاه؟ هل يقبل أن يصحح له أحد وضعاً أخطأ فيه؟ هذه الأسئلة لا تمنحه شهادة على باطنه، لكنها ترده إلى أعمال يملك إصلاحها. وكلما اشتد اهتمامه بنظر الناس احتاج إلى عبادة لا يعلمونها وإلى قطع الحديث عن أحواله إلا الحاجة.

ولا يعني ذلك إهمال الظاهر؛ للسكون والطمأنينة أحكام وآداب. إنما يصلح الظاهر باتباع السنة، ويصلح الباطن

بالإخلاص، ولا يغني أحدهما عن الآخر. فإذا استقاما معاً صار
الجسد ترجماناً لا مثلاً، وصار الوقار ثمرة لا قناعاً.

8 | أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا

النداء للمؤمنين يفتح باب المراجعة ولا يغلقه: طول الأمد يقسي، والذكر والحق يحييان، كما تحيا الأرض بعد موتها. وموضع الاستدلال هنا [الحديد: 16-17].
خطوة قريبة: اختيار آية واحدة تُقرأ في سياقها كل يوم حتى تسترد الكلمة معناها من العادة.

من القرآن: يبدأ النداء في [الحديد: 16] باستفهام يحرك القلب: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ؟ ثم يحذر من طول الأمد وقسوة القلب، ويتلو ذلك بيان إحياء الأرض بعد موتها [الحديد: 17]. قرب صورة الإحياء من خطاب الخشوع يفتح باب الرجاء ولا يترك القارئ في تشخيص القسوة وحدها.

لا يجعل العبد سنوات الغفلة حجة على دوامها. الأرض اليابسة لا تدعي أنها ستبقى كذلك حين يأتيها الماء، والقلب له أسباب حياة أذن الله بها: ذكر يفهم، وقرآن يتدبر، وتوبة تصحح، وصحبة تعين، وحقوق ترد. ليس في هذا ضمان لحال مخصوص، لكنه نفي لليأس.

وطول الأمد قد يعمل بصمت: تتكرر الكلمات حتى تفقد وقعها، وتتراكم الذنوب حتى يصير الإنكار ضعيفاً. لذلك يحتاج

القلب إلى مراجعة دورية لا إلى انتظار أزمة. يختار آية، يقرأ سياقها، ويسأل عن الأمر الذي ستغيره اليوم. حين تنتقل الكلمة من التلاوة إلى القرار يبدأ شيء من حياة القلب.

أَلَمْ يَأْنِ سؤَال بداية

من القرآن: خاطبت [الحديد: 16-17] المؤمنين بنداء الخشوع، وحذرت من طول الأمد وقسوة القلب، ثم ذكرت إحياء الأرض بعد موتها. اجتماع التحذير والإحياء يمنع اليأس كما يمنع التسويف.

لا يقول صاحب القلب القاسي: فات الأوان، ولا يقول: سأنتظر تغيراً بلا سبب. يسمع السؤال كتكليف حاصر: ما الذي آن اليوم؟ قد يكون رد حق، أو قطع عادة تغذي الغفلة، أو قراءة آية في سياقها، أو صلاة يؤديها من غير استعجال. الحياة لا تبدأ دائماً بانفعال كبير؛ أحياناً تبدأ بقرار صغير يحفظه صاحبه.

وطول الأمد ليس زمناً مجرداً؛ قد يكون تكراراً بلا فهم، أو تأجيلاً للتوبة، أو صحة تطبع الغفلة. لذلك يفحص العبد مجاري يومه: ما الذي يقسيه باستمرار؟ ثم يغلق باباً واحداً ويفتح باب ذكر واحداً. لا يدعي أنه أحيا قلبه، بل يسأل المحي أن يحياه ويسلك الطريق الذي دل عليه الوحي.

أصل محكم: يحمل استفهام [الحديد: 16] معنى التحريك إلى الحضور، ثم يأتي التحذير من طول الأمد، ثم آية إحياء الأرض [الحديد: 17]. يجمع السياق استعجال الاستجابة والرجاء في إمكان الحياة. فلا يجوز أن يجعل العبد التدرج حجة لتأخير التوبة، ولا أن يجعل استعجال الثمرة سبباً لليأس.

التوبة من ذنب معلوم تبدأ الآن بحسب الاستطاعة، أما بناء عادة الفهم والحضور فقد يحتاج زمناً. الخلط بين الأمرين يضر: من قال سأترك المعصية حين يرق قلبي أخر الواجب، ومن طالب نفسه بخشوع كامل في يوم واحد حملها على ادعاء أو قنوط. النداء القرآني يطلب بداية صادقة، لا شهادة كمال.

قراءة في طول الأمد: قد يطول الزمن ويقسو القلب بسبب تأجيل متكرر، أو قراءة بلا فهم، أو صحبة تزين الغفلة، أو ذنب صار مألوفاً. لا يعالج ذلك بخوف مبهم؛ يحتاج تحديد المجرى الذي يغذي القسوة. وإذا عُرف مجرى واحد أمكن قطعه أو تضيقه، وفتح مجرى مقابل من ذكر وعلم وصحبة صالحة.

تطبيق: يجيب القارئ عن السؤال بقرار له وقت وحدود: حق يرده اليوم، أو شاغل يبعده قبل الصلاة، أو آيات يقرأها في سياقها، أو موعد علم يلتزمه. ليس هذا تفسيراً حصرياً للآية، بل استجابة تربوية لمعناها. ثم يعلم أن محي القلب هو الله؛ يأخذ بالسبب ولا يعبد السبب، ويرجو الحياة ولا يزيكي نفسه بها.

أَلَمْ يَأْنِ: السؤال يفتح باباً ولا يصدر حكماً بالإغلاق

قال تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد: 16]. النداء للمؤمنين، وفيه عتاب يوقظ ولا يطرد. لم يقل لهم إن باب القلب أغلق، بل دعاهم أن يستجيبوا للذكر والحق، وحذرهم من طول الأمد الذي يقسي القلوب.

قد يقرأ المذنب الآية فيظن أن تأخره دليل عدم أهلية. والصواب أن سماع العتاب نفسه فرصة رجوع. المطلوب ألا يحول طول الطريق إلى عذر لطول جديد. يبدأ بالحق القريب: صلاة حاضرة، مظلمة ترد، ذنب يقطع سببه. لا ينتظر أن يشعر بالخشوع كامل حتى يتحرك؛ الحركة الصادقة من أسباب الخشوع.

وفي الآية فصل مهم بين مجرد مرور الزمن وبين أثره إذا انقطع عن التجديد. القسوة لا تعالج بإثارة موسمية وحدها، بل بصلة متكررة بالذكر والحق. قد يبكي الإنسان في مجلس ثم يعود إلى عادته؛ العبرة أن ينتقل الأثر إلى نظام حياته.

التطبيق أن يكتب المرء أمراً طال تأجيله وله دليل واضح، ثم يضع له خطوة اليوم لا خطة عمر كاملة. السؤال القرآني لا يحتاج جواباً خطائياً؛ جوابه فعل صغير صادق يتبعه فعل.

قرنت آية الحديد ذكر الله بما نزل من الحق. هذا يمنع اختزال الخشوع في صوت مؤثر مجرداً عن الدلالة. القرآن يهدي بأخباره

وأحكامه ووعدته ووعيدته؛ فمن انتقى ما يحرك عاطفته وترك ما يصحح معاملته لم يكتمل تلقيه.

الخشوع للحق يعني قبول التصحيح ولو جاء على يد من لا نجه، ما دام الدليل صحيحاً والطريقة مشروعة. ويعني التوقف حين لا نعلم بدل أن نخضع النص لرأينا. كما يعني أن نفرق بين النص المعصوم وفهمنا له؛ نعظم القرآن ولا نعطي اجتهادنا عصمة.

وفي مجالس الوعظ ينبغي ألا تكون جودة الإلقاء بديلاً عن سلامة النقل. التأثير نعمة، لكنه لا يصح حديثاً ضعيفاً ولا قصة بلا أصل. تحقيق النسبة من تعظيم الحق، ولو أدى إلى حذف مشهد شديد التأثير. ورب كلمة ثابتة قليلة أبرك من حكاية واسعة لا سند لها.

يمارس القارئ ذلك بأن يسأل عند كل معنى مركزي: ما النص؟ وما التفسير أو الشرح؟ وما استنباط الناقل؟ هذا الفصل لا يبرد الوجدان، بل يحبه من أن يبني على وهم.

مراتب الناس لا أحكام المصائر

تعرض «أعمال القلوب» في مبحث «مراتب الناس في الخشوع»، تفاوت الناس في الخشوع، وتربط ذلك بتفاوتهم في حفظ حقوق العبادة ومجاهدة النفس. يفيد هذا المعنى في فهم

الطريق، لكنه لا يبيح للعبد أن يصنع لنفسه رتبة مستقرة أو أن يوزع الرتب على غيره.

قد يحضر قلب الإنسان في موضع ويغيب في آخر، وقد يفتح له في قراءة ويضعف في معاملة. لذلك لا تختصر مرتبته في لحظة بكاء، كما لا تلغى مجاهدته بسبب شرود عابر. الأنفع أن يحول فكرة المراتب إلى خريطة مسؤولية: ما الحق الذي أضيعه؟ ما السبب الذي أملكه؟ وما الباب الذي يتكرر فيه ضعفي؟

ومن علامات البداية أن يعرف الخلل ولا يدافع عنه، ثم يأخذ بسبب صغير ثابت. ومن علامات التقدم أن يصير علمه بالخشوع أقل استعمالاً في نقد الناس وأكثر استعمالاً في إصلاح نفسه. ومن علامات النضج أن تتسع العبادة لتشمل الحقوق؛ فلا يزداد قربه من المصحف على حساب رحم أو أمانة أو واجب.

ويبقى الفضل لله. قد يسبق صاحب العمل القليل بإخلاصه، وقد يتأخر صاحب الصورة الكبيرة بعجبه. لا نعلم الموازين الخفية، ولهذا نجتهد في الظاهر ونستغفر من دعوى المقام. نقرأ مراتب الطريق لنعرف اتجاه السير، لا لنعلق على صدورنا أسماء المنازل.

الباب الثاني: الخشوع في القرآن

9 | قد أفلح المؤمنون

جعل القرآن الخشوع في الصلاة أول صفات الفلاح بعد الإيمان، فليس زينة جانبية، بل مظهر لحياة الصلة بين العبد وربّه. خطوة قريبة: أن يكون إصلاح الخشوع مشروع عبادة طويلاً، لا استجابة مؤقتة لموعظة.

من القرآن: افتتحت سورة المؤمنون صفات الفلاح بالإيمان والخشوع في الصلاة، ثم مضت إلى الإعراض عن اللغو، والزكاة، وحفظ الفروج، والأمانات والعهود، والمحافظة على الصلوات [المؤمنون: 1-11]. وضع الخشوع داخل منظومة أخلاق وحقوق يمنع عزله عن بقية الحياة.

من أراد اختبار أثر خشوعه فلينظر إلى ما جاور الصلاة: هل قل لغوه؟ هل صان أماته؟ هل حفظ حد الله حين خلا؟ لا تعني هذه الأسئلة أن كل تقصير يبطل كل خير، لكنها تمنع الاطمئنان إلى لحظة مؤثرة لا تغير السلوك. الفلاح بناء متصل، والصلاة قلبه المتكرر.

ومن رحمة هذا البناء أنه يعود خمس مرات في اليوم. ليست كل صلاة امتحاناً نهائياً، بل فرصة جديدة لتجديد الوجهة. يضع المصلي هدفاً محدوداً: حضور الفاتحة اليوم، أو طمأنينة الركوع، أو

حفظ البصر. ثم يضم ما تعلمه إلى الصلاة التالية بدل أن يبدأ كل مرة من الصفر.

الفلاح شبكة واحدة

من القرآن: وضعت [المؤمنون: 1-11] الخشوع في الصلاة مع الإعراض عن اللغو، والزكاة، والعفة، والأمانة، والعهد، والمحافظة على الصلوات. بهذا السياق يصير الخشوع قلب منظومة، لا لحظة منفصلة.

من رحمة هذا البناء أنه يعطي علامات يمكن مراجعتها. إذا أثرت الصلاة في اللسان والمال والعهد فهي تمتد إلى الحياة. وإن بقي المرء مؤذياً بعد خشوع يدعيه، فلا يلزمه إنكار كل خير، لكن يلزمه ألا يكتفي بالانطباع. يسأل عن الحلقة المقطوعة بين الصلاة والسلوك.

يمكن بناء برنامج أسبوعي من السورة نفسها: يحفظ فرضه، ويقلل لغواً واحداً، ويؤدي أمانة مؤجلة، ويحرس باباً من أبواب العفة. ليست هذه بدائل عن حضور القلب، بل مجالات يظهر فيها. كل صلاة تذكير بأن الفلاح لا يتجزأ؛ يبدأ القلب، وتتحرك الجارحة، ويستقيم الحق، ثم يعود العبد إلى الصلاة ليجدد العهد.

تفتتح سورة المؤمنون بالحكم بالفلاح، ثم تجعل الخشوع في الصلاة أول صفات المؤمنين المذكورة، وتنبهه بالإعراض عن

الغلو وأداء الزكاة وحفظ الفروج والأمانات والعهود والمحافظة على الصلوات [المؤمنون: 1-11]. هذا السياق يمنعنا من فصل خشوع الصلاة عن شبكة العبودية. الصلاة قلب اليوم، لكنها لا تمنح إذنا بإهمال اللسان والمال والعهد.

ولذلك لا يصح أن يقيس الإنسان نجاحه في الخشوع بانفعال الركعة وحده. يسأل كذلك عما تفعله الصلاة في بقية يومه: هل صار أقل استجابة للغو؟ هل حفظ وعده؟ هل خاف أن يظلم؟ لا تعني الآيات أن كل تقصير يسقط أصل الإيمان أو الخشوع؛ إنما ترسم صورة الفلاح التي يسير إليها المؤمن، وتكشف له موضع الخلل بلا يأس ولا تزكية.

ويبدأ الإصلاح من رابطة واحدة واضحة. من وجد لسانه أكثر أبواب ضعفه ربط صلاته بحفظه، ومن كانت أمانته موضع امتحان جعل ذكر الوقوف بين يدي الله مانعاً من الخيانة. هذا تطبيق تربوي مستنبط من اجتماع الصفات في السورة، وليس تفسيراً يحصر دلالة الآيات فيه.

الفلاح لا يُختزل في هيئة

أصل محكم: وعد مطلع سورة المؤمنون أهل الإيمان بالفلاح، ثم بسط معالم طريقهم من الصلاة إلى اللسان والمال والعفة والأمانة والعهد، وختم هذا السياق بحفظ الصلوات [المؤمنون: 1-9].

وجود الخشوع داخل هذه السلسلة يمنع عزله في لحظة وجدانية لا تعبر إلى أخلاق العبد وحقوق الناس.

لا يقال إن كل نقص في خلق ظاهر يبطل أصل الخشوع، ولا إن حضوراً عابراً يشهد لصاحبه بكمال الفلاح. الآيات تبني حزمة مترابطة: صلاة تحضر فيها القلوب، وسلوك يزكو به اللسان والمال والعهد. ووجه الاستدلال أن الخشوع في مطلع الصفات لا في نهايتها؛ فهو باب يفتح بقية الاستقامة، لا شهادة إعفاء من المحاسبة.

تطبيق: إذا خرج المصلي من صلاة رَقَّ فيها قلبه، فليختر أثراً واحداً من سياق السورة يحفظه في ساعته التالية: يترك لغواً، يؤدي أمانة، أو يصون حقاً. هذا ليس عبادة عددية مستحدثة، بل اختبار تربوي لاتصال الصلاة بما بعدها.

الهاتف المفتوح، والتنبيهات، والعمل المتداخل، والمحتوى القصير المتتابع تدرب الانتباه على القفز. ثم يدخل الإنسان الصلاة ويتوقع من قلبه سكوناً فورياً. الاعتراف بأثر العادة ليس تبريراً للشرود؛ هو تشخيص لسبب يمكن تقليله.

يبدأ العلاج قبل التكبير: إغلاق الشاشة، إنهاء حاجة عاجلة أو تدوينها، اختيار مكان أقل إثارة، والوضوء بتمهل. هذه التدابير ليست شروط صحة جديدة، ولا تجعل من لم يفعلها مذنباً بالضرورة؛ هي وسائل تعين من عرف ضعفاً متكرراً.

وقد يحتاج بعض الناس إلى معالجة اضطراب انتباه أو قلق مع مختص. لا يصح تفسير كل صعوبة بأنها قسوة قلب، ولا استعمال الوعظ بدل العلاج. يجمع المسلم بين الرقية المشروعة والعلاج المباح وتنظيم البيئة، ويؤدي الصلاة بحسب استطاعته. المقياس الواقعي ليس انعدام الشرود، بل قصر مدته وسرعة العودة وتحسن الفهم. إذا تذكر موضعه عاد من غير خصومة مع نفسه. كل خصومة داخل الصلاة مادة جديدة للتشتت.

10 | وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين

الصلاة ثقيلة حين تؤدي بعيدة عن معنى اللقاء، وتخف حين يرى القلب فيها عوناً وعودةً إلى الله.

خطوة قريبة: عند ثقل الصلاة يُعالج معنى اللقاء والرجوع قبل اتهام الوقت أو البدن وحدهما.

من القرآن: قال تعالى في الصلاة: [البقرة: 45-46]، فبين ثقلها واستثنى الخاشعين الذين يظنون لقاء ربهم والرجوع إليه. الآية لا تنكر وجود المشقة، بل تكشف مفتاح حملها. الخشوع لا يجعل البدن بلا تعب، لكنه يضع التعب داخل معنى أكبر.

عند ثقل الصلاة تتعدد الأسباب: سهر، أو ذنب، أو جهل بالمعنى، أو استعجال، أو مرض، أو هم. لا يصلح علاج واحد للجميع. يبدأ العبد بما يقدر عليه: ينظم نومه، يترك السبب المحرم، يتعلم الأذكار، ويستشير أهل العلم والطبيب فيما يخصهما. هذا جزء من الصديق، لا انصراف عن عمل القلب.

ثم لا ينتظر زوال كل ثقل ليصلي. يقف كما هو، ويعترف بالحاجة، ويطلب العون. كثير من أبواب العبادة تفتح بعد الدخول لا قبله؛ وقد تكون مجاهدة النفس في الصلاة الثقيلة من أصدق دلائل الافتقار، إذا حفظ المصلي الفريضة ولم يدع حالاً ليس له.

ثقل الصلاة معلومة لا حكم نهائي

من القرآن: قرنت [البقرة: 45-46] الاستعانة بالصبر والصلاة، ووصفت الصلاة بأنها كبيرة إلا على الخاشعين الذين يستحضرون اللقاء والرجوع.

ثقل الصلاة قد يكشف سبباً روحياً، وقد يشارك فيه تعب البدن أو اضطراب النوم أو مرض يحتاج إلى علاج. لا يصح اختزال كل حالة في اتهام الإيمان، كما لا يصح تجاهل أثر الذنب والغفلة. الفقه الصادق يجمع الأسباب ويرد كل واحد إلى بابه.

تطبيق: حين ثقل الصلاة، لا ينتظر العبد أن تصبح سهلة ليقيمها. يحفظ الوقت، ويزيل ما يقدر عليه من العوائق، ويدخل بمعنى واحد: أنا راجع إلى الله. ثم يلاحظ أين يشتد الشroud؛ في الفاتحة، أو السجود، أو آخر الصلاة. يختار موضعاً واحداً للتعلم في المرة القادمة. هكذا تتحول الشكوى العامة إلى إصلاح محدد، ويصير الثقل باب استعانة لا ذريعة ترك.

قال تعالى: {وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: 45]. لم تنكر الآية ثقل الصلاة، بل بينت من يخف عليه حملها: من يستحضر لقاء الله والرجوع إليه في الآية التالية. حين ثقل الصلاة لا يحتاج العبد إلى تزيين حاله؛ يحتاج أن يعرف أين انقطع معنى اللقاء، وأين غلبت العجلة أو الغفلة.

وقد يكون الثقل عارضاً من تعب أو مرض أو هم، فلا يتحول مباشرة إلى حكم على القلب. الفرق بين العارض والطريق المستقر يظهر في الاستجابة: هل يحفظ العبد الفرض ويطلب العون، أم يجعل الثقل حجة لتركه؟ الخشوع لا يعني أن تصبح كل صلاة سهلة الشعور، بل أن يبقى الأمر عظيماً في القلب حتى حين يضعف البدن أو يتأخر الوجدان.

والاستعانة بالصلاة لا تعني استعمالها طريقة للهروب من مسؤولية يمكن أدائها. يصلي العبد ثم يعود إلى الحق الذي عليه بقلب أهدأ وعزم أصدق. الصلاة تعينه على الواجب، ولا تعفيه منه.

الاستعانة ليست انتظاراً ساكناً

أصل محكم: أمر الله بالاستعانة بالصبر والصلاة، ووصف الصلاة بأنها كبيرة إلا على الخاشعين الذين يوقنون بقاء ربهم والرجوع إليه [البقرة: 45-46]. وموضع الخشوع هنا يربط العبادة باليقين، ويجعل ثقل التكليف أخف على من رأى غايته ولم يقف عند كلفته العاجلة.

الاستعانة بالصلاة لا تعني تعطيل السبب الذي أذن الله به، ولا تحويل الصلاة إلى تجربة لا قيمة لها إلا إذا أعقبتها نتيجة محسوسة فوراً. المصلي يستمد من الصلاة صدق الاتجاه، ثم يعمل

بما يقدر عليه، ويقبل أن يكون الفتح تيسيراً أو بصيرة أو صبراً أو صرفاً لشر. ووجه الاستدلال أن الآية قرنت الصلاة بالصبر؛ والصبر فعل ثابت، لا انتظار خالٍ من التكليف.

تطبيق: قبل أمر شاق، يحدد العبد ما عليه فعله بعد الصلاة: اتصال واجب، اعتذار، مراجعة، طلب علاج، أو ترك معصية. بهذا تصير الاستعانة قوة على الطاعة لا ذريعة إلى التسويف.

المعصية تؤثر في القلب، والقرآن والسنة يدلان على خطر الران والقسوة. لكن استعمال هذا الأصل يحتاج رحمة وعلماً. لا نعرف أن كل شرود عقوبة لذنب معين، ولا يجوز أن نربط مصيبة باطنية بتهمة بلا دليل. قد يكون السبب تعباً أو جهلاً أو مرضاً أو عادة.

إذا عرف الإنسان ذنباً تاب منه بشروطه، وقطع سببه، ورد الحق إن تعلق بآدمي. ثم يصلي مستعيناً، لا يقف عند باب الصلاة يكرر: أنا لا أستحق. العبادة من طريق الرجوع، وليست جائزة لا تمنح إلا لمن اكتمل.

والتوبة نفسها تحتاج ألا تتحول إلى وصف مستمر للذنب. يندم بصدق، لكنه لا يعيد سرد التفاصيل لنفسه وللناس. يستر الله عليه، ويبني بديلاً، ويقبل أن آثار العادة قد تحتاج وقتاً بعد القرار.

من علامات التوبة النافعة أنها توسع رحمة صاحبها بالمجاهدين من غير تهاون، وتقلل إعجابه، وتزيد حفظه للحدود. فإذا أورثه ماضيه احتقاراً دائماً لنفسه يمنعه من الخير، احتاج إلى تصحيح فهمه للرجاء.

قد يجد الإنسان من نفسه جفافاً أياماً أو شهوراً، فيصف قلبه بأنه مات. هذا الحكم الكلي قد يضعف الرجوع. النصوص تحذر من القسوة، لكنها تفتح أبواب الذكر والتوبة والعمل؛ فوجود الألم من الحال نفسه قد يكون علامة حياة تدعوه إلى العلاج.

ينظر في الأسباب بلا تهويل: هل طال بعده عن القرآن؟ هل تراكم ذنب معلوم؟ هل استنزفه مرض أو حزن؟ هل صار نومه مضطرباً؟ بعض الأسباب روحي وبعضها جسدي أو نفسي، واجمع بينها أصدق من جواب واحد لكل الناس.

ثم يبدأ بما يمكن: فرض في وقته، صفحة بفهم، صحبة صالحة، قطع سبب معصية، أو مراجعة طيب. لا ينتظر انهياراً عاطفياً يعلن بداية جديدة. القلوب تصلح بالتدرج كما تفسد بالتراكم.

ومن الرحمة ألا يقيس اليوم الجاف بأفضل يوم مضى. يؤدي حق اليوم، ويترك لله فتح الغد. الثبات حين يغيب الإحساس قد يكون من أصدق دلائل العبودية؛ لأنه لا يعتمد على مكافأة عاجلة.

ثقل الصلاة له أكثر من باب

النص الشرعي: قال تعالى: {وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: 45-46]. الآيتان ثبتان الثقل وفتحان باب علاجه بذكر اللقاء والرجوع، فلا تنكران تجربة المصلي ولا تجعلانها حكماً نهائياً عليه.

قد ثقل الصلاة بسبب غفلة، وقد ثقل بسبب إرهاق أو مرض أو حزن، وقد يجتمع أكثر من سبب. لا يملك الإنسان أن يشخص كل حال من ظاهر واحد. لذلك يبدأ بما يعلم: يحفظ الفرض، ويسأل عن الحكم، ويعالج السبب البدني أو النفسي إذا احتاج، ويجدد معنى الرجوع إلى الله. نسبة كل ثقل إلى قسوة القلب قد تزيد المبتلى قسوة على نفسه من غير علم.

والخشوع لا يعني أن تصبح الصلاة سهلة شعورياً في كل وقت. قد يقوم العبد وهو لا يجد إلا الامتثال، فيكون صدقه في ألا يترك. وقد يفتح له في ركعة بعد ركعات جافة. العبادة لا تقاس بلحظة لذة، كما أن المشقة المجردة ليست فضلاً يطلب لذاته. المطلوب أداء ما شرع مع دفع المشقة غير المقصودة بالوسائل المباحة.

ذكر اللقاء يحرر المصلي من حبس الصلاة في نتيجة عاجلة. هو راجع إلى الله سواء شعر الآن أو لم يشعر، وصلاته جزء من ذلك

الرجوع. هذا المعنى لا يعطل الإصلاح؛ بل يجعله أهدأ. بدل أن يسأل بعد كل صلاة: هل خشعت؟ يسأل أيضاً: هل أدت؟ ما السبب المعلوم الذي أستطيع إصلاحه؟ وهل خرجت بحق أقوم به؟

ومن المهم التفريق بين ثقل البداية وثقل دائم يهدد القدرة على الوظائف الأساسية. الأول قد يعالج بعادة وتهيؤ. والثاني قد يكون علامة حاجة إلى استشارة مختص، ولا يجوز أن يعالج صاحبه باتهامات عامة. الدين لا يطلب إهمال البدن والعقل اللذين بهما يقع التكليف.

تطبيق: لمدة أسبوع يسجل المصلي قبل صلاة واحدة ثلاثة أمور: النوم، والشاغل الأكبر، ووقت الدخول. ثم يراجع النمط بلا وسواس. إذا ظهر سبب واضح أصلحه: نوم، هاتف، نزاع، أو تأخير. وإذا لم يظهر لم يخترع تفسيراً غيبياً؛ يثبت على الفرض ويدعو ويطلب علماً أو علاجاً عند الحاجة.

11 | وكانوا لنا خاشعين

جاء الخشوع في سياق دعاء زكريا والمسارة في الخيرات والرغب والرهب؛ فهو حياة كاملة تجمع الدعاء والعمل والخوف والرجاء.

وموضع الاستدلال هنا [الأنبياء: 89-90].

خطوة قريبة: وصل الدعاء بعمل صالح ممكن، وترك الاستعجال في الإجابة.

من القرآن: في قصة زكريا [الأنبياء: 89-90] دعاء، ثم إجابة، ثم ثناء على المسارة في الخيرات والدعاء رغباً ورهباً والخشوع. لا يفصل السياق بين السؤال والعمل. فالخشوع ليس انتظاراً ساكناً للنتيجة، بل قلب يدعو ويداه تعملان فيما أذن الله به.

إذا سأل العبد صلاح قلبه، فليجعل لدعائه شاهداً في يومه: يغلق باب فتنة، أو يصل رحماً، أو يتعلم آية، أو يبكر إلى الصلاة. العمل لا يشتري الإجابة، لكنه يصدق معنى العبودية ويمنع الدعاء من أن يصير بديلاً عن الواجب.

ومن الخشوع ترك الاستعجال. لا يحدد العبد لربه صورة الجواب وزمنه، ولا يترك الدعاء لأن الأثر لم يظهر سريعاً. يكرر السؤال مع حسن الظن، ويراجع الموانع، ويقبل ما يقدره الله، وهو يعلم أن افتقاره نفسه عبادة وأن الله أعلم بمصلحته.

الدعاء الذي تصدقه الجوارح

من القرآن: ذكر سياق [الأنبيا: 89-90] دعاء زكريا، ثم المسارعة في الخيرات، والرغب والرهب، والخشوع. اقترنت المسألة بالعمل من غير أن يصير العمل ثمناً للإجابة.

من سأل الله قلباً خاشعاً جعل لدعائه شاهداً ممكناً: تعلم معنى ذكر، أو حافظ على وقت صلاة، أو ترك سبب غفلة. لا يفاوض ربه على الإجابة، بل يصدق افتقاره بالفعل. وإذا تأخر المطلوب لم يجعل التأخر برهان رد؛ يراجع الموانع ويستمر في الدعاء ويقبل حكمة الله.

والرغب والرهب يمنعان الانحرافين: قنوطاً يرى الذنب أكبر من المغفرة، وأمناً يرى الدعاء كافياً من غير توبة. بينهما يسير الخاشع: يرجو فيعود، ويخاف فيصحح. وكلما دعا قال بلسان حاله قبل مقاله: أنا عبد مأمور، أسأل وأعمل وأفوض النتيجة إلى ربي. وصف الله زكريا وأهله بقوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبيا: 90]. جاءت المسارعة والدعاء والخشوع في سياق واحد. فالخشوع ليس انطفاء الإرادة، بل توجيهها؛ وليس خوفاً بلا رجاء، بل رغب ورهب يحملان إلى الخير.

ويصحح هذا السياق تصوراً شائعاً: أن القلب الخاشع لا بد أن يكون قليل الحركة في الحياة. قد يكون صاحبه من أسرع الناس

إلى قضاء حق أو إغاثة محتاج، لأن سكونه لله حرره من التردد الذي تصنعه الأنانية. السكون المقصود خمود المنازعة مع الحق، لا حمل الواجب.

وفي الدعاء يجتمع الافتقار والعمل. يسأل العبد حاجته، ويأخذ بسببها المباح، ولا يجعل السبب مستقلاً ولا الدعاء ستاراً للكسل. هذا التوازن أقرب إلى وصف الآية من رغبة بلا سعي أو سعي بلا افتقار.

أصل محكم: أثنى الله على زكريا وأهله بأنهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعونه رغباً ورهباً، وكانوا له خاشعين [الأنبياء: 90]. اجتمعت في الآية حركة الجوارح، ودعاء القلب، ورجاء الفضل، وخوف التقصير.

الخشوع الذي يبطئ صاحبه عن خير بين بحجة انتظار الشعور الكامل يحتاج إلى مراجعة؛ فالسياق يقرنه بالمسارعة. وليس المراد عجلة بلا فقه، وإنما ألا يتحول التأثر إلى إقامة طويلة عند باب النية. الرغبة وحدها قد تولد أمناً، والرغبة وحدها قد تولد قنوطاً، أما اجتماعهما تحت الخشوع فيحفظ السير من طرفيه.

تطبيق: حين ينكشف خير صحيح الدليل واضح المصلحة، يبدأ العبد بأقرب خطوة مقدورة، ثم يسأل الله القبول. فإن احتاج العمل إلى علم أو إذن أو مشورة، كانت المسارعة في تحصيل شرطه، لا في اقتحام ما لم يتبين.

كانوا لنا خاشعين: وصف يجمع العبادة والحركة

ختمت آية الأنبياء قصة الاستجابة لذكرها بوصف جامع: {وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: 90]. سبق الوصف ذكر المسارعة في الخيرات والدعاء رغباً ورهباً. بذلك لا يبقى الخشوع زاوية منعزلة في الصلاة، بل يصير جهة تضبط الزمن والإرادة: يرى العبد الخير فلا يؤجله بلا عذر، ويسأل ربه بقلب بين الرجاء والخوف، ويثبت على نسبته إليه.

المسارعة ليست عجلة تفسد العلم. قد تكون المسألة محتاجة إلى سؤال أو ثبوت، والخير عندها أن يتأني. المراد ألا يجعل التسويف وطناً، وألا يشترط مزاجاً كاملاً قبل الطاعة. من عرف حقاً واضحاً بدأ بما يستطيع، ثم تعلم أثناء الطريق. ومن جهل الحكم توقف عند حد الجهل بدل أن يقتحم باسم الحماسة.

والجمع بين الرغبة والرهب يقي العمل من آفتين. من عمل بالرغبة وحدها قد يترك الطريق عندما تتأخر ثمرة يحبها؛ ومن عمل بالرغبة وحدها قد يؤدي الواجب بعقل محاصر لا يرى رحمة الله. إذا اجتمعا صار الرجاء وقوداً والخوف حارساً، وصار الخشوع هو الانقياد الذي يمنع الوقود من الطيش والحارس من القسوة.

في البيت يظهر هذا المعنى في مبادرة إلى إصلاح خطأ قبل أن يتصلب، وفي العمل في أداء أمانة لا يراها المدير، وفي العلم في رد

عبارة إلى مصدرها قبل نشرها. هذه أعمال قد تخلو من الدموع والسكون المرئي، لكنها تكشف قلباً استجاب لمولاه. من الخطأ أن يتصور المتعبد أن خدمة الناس تشوش صفاءه دائماً. قد تكون الخلوة دواء، لكن حقوق الخلق عبادات كذلك. من كان خاشعاً لله لم يحتقر سؤال محتاج، ولم يجعل ورده حجة لإهمال أهل بيته، ولم يطلب من الآخرين أن يدفعوا ثمن برنامجهِ الروحي.

الموازنة تحتاج فقهاً. ليست كل مطالبة من الناس حقاً، ولا يلزم أن يفتح الإنسان بابه بلا حد حتى يحترق. لكنه يفرق بين حماية وقته وبين عبادة راحته. يضع مواعيد، يعتذر بأدب، ويعطي كل ذي حق حقه. الخشوع يساعده على ذلك لأنه يخفف مركزية الذات: لا يرى كل مقاطعة اعتداء على مشروعه، ولا كل حاجة أمراً يجب أن يحمله وحده.

ومعنى المسارعة في الخيرات يوسع مفهوم الخير: إصلاح ذات البين، تعليم جاهل، إغاثة ملهوف، إتقان مهنة، حفظ سر، ورد حق. لا يصح أن تختزل أعمال القلوب في أحوال داخلية لا تمس الواقع. القلب أمير الجوارح، فإذا صلح ظهر سلطانه في عدل ورحمة وانضباط.

التطبيق أن يراجع المؤمن أسبوعه: هل تركت عبادته أثراً في حق يمكن تسميته؟ لا يبحث عن إنجاز ضخم؛ ربما كان الأثر

اتصالاً بوالد، أو تصحيح فاتورة، أو إكمال مهمة وعد بها. هذه المراجعة لا تزكي القلب، لكنها تمنع الفصل بين السجادة والحياة. حين يدعو الإنسان رغباً يريد خيراً، وحين يدعو رهباً يستعيد من شر؛ لكنه في الحالين عبد لا مالك للنتيجة. هذه الحقيقة تحمي الدعاء من التحول إلى صفة: أفعل كذا بشرط أن يحدث كذا في الموعد الذي أضعه. يجوز أن يسأل حاجته بإلحاح، لكن لا يجوز أن يجعل تحقق صورتها معيار محبة الله له.

قد يستجاب الدعاء بما طلب، وقد تأخر الحكمة عن فهمه. واجب العبد أن يجمع صدق السؤال بصدق العبودية. إذا كان الأمر مباحاً أخذ بأسبابه، وإذا ظهر له منع شرعي تركه ولو اشتهاه. الرغبة لا تغير حكماً، والرغبة لا تحرم حلالاً.

هذه الموازنة مهمة عند الشدائد الطويلة. المريض قد يكرر دعاء العافية ويستمر في العلاج، ولا يلزم أن يمثل رضا شعورياً لا يجده. الرضا الشرعي يمنعه من الاعتراض المحرم، لكنه لا يمنع الألم والدمع والسؤال. والخائف على رزقه يعمل ويقتصد ويسأل، ولا يطالب نفسه بسكينة لا تنقطع.

تدريب القلب أن يفصل بين ثلاثة أشياء: الطلب، والسبب، والنتيجة. يبذل الطلب والسبب، ويسلم النتيجة لله. كلما اختلطت هذه الدوائر ظهر إما كسل متدين أو تحكم متدين؛ والخشوع يرد كل واحد إلى موضعه.

عبادة تتحرك في صيغة الجمع

النص الشرعي: جاء وصف الخاشعين في سياق أسرة نبوية وجماعة عمل: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: 90]. الضمائر مجموعة؛ فالمسارعة والدعاء والخشوع لم تعرض نكبر عن عزلة داخلية، بل كحياة تعاونت فيها القلوب والجوارح على الخير.

قد يبدأ إصلاح الخشوع في سر الفرد، لكنه لا يبقى فردياً تماماً. البيت يؤثر في الصلاة: طريقة توزيع الوقت، ونبرة التذكير، ومقدار الضوضاء، ووجود مساحة للسكينة. وكذلك العمل والمسجد والصحبة. لا يملك الإنسان قلوب الآخرين، لكنه يملك أن يبني حول العبادة شروطاً أرحم.

ومن الخطأ أن تتحول دعوة الأهل إلى الصلاة إلى مراقبة قاسية لكل حركة. المقصود إعانة على الفرض، لا صناعة عرض موحد للمشاعر. طفل يتعلم، ومريض له عذره، ومبتلى بالوسواس يحتاج إلى خطاب غير خطاب المتساهل. الخشوع في التعليم يظهر في معرفة الحال، وفي جمع الحزم بالرحمة، وفي عدم استعمال العبادة ميداناً للإهانة.

المسارعة في الخيرات تمنع الأسرة أو الجماعة من الاكتفاء بجو تعبدي لا يثر خدمة. يمكن أن يكون من خير البيت أن يحفظ وقت الصلاة، وأن يخفف أحد أفرادَه عن الآخر حملاً مباحاً،

وأن يعين صغيراً على الوضوء، وأن يعتذر من كلمة كسرت قلباً.
كل ذلك لا يحل محل الصلاة، لكنه يصدق أثرها.
كما أن صيغة الجمع لا تلغي المسؤولية الفردية. لا يقول المرء:
بيئتي مشتتة، فلا قدرة لي على خطوة. يبحث عن المقدور: اتفاق
على دقائق هادئة، أو صلاة في مكان أصلح، أو كلمة لطيفة تمنع
نزاعاً عند الأذان. وإذا لم تتغير البيئة كلها، بقي له من المجاهدة ما
يستطيع.

تطبيق: تختار الأسرة أو الصحبة عادة واحدة لمدة أسبوع: عدم
فتح موضوع نزاع قبيل الصلاة، أو تهيئة المكان، أو تذكير بلا
صياح، أو مشاركة معنى آية بعد صلاة واحدة من غير إلزام. ثم
تسأل: هل خدم هذا الفرض والخلق؟ إن صار البرنامج عبئاً أو
منافسة عدل. المقصود أن يحمل بعضنا بعضاً إلى الخير، لا أن يحمل
بعضنا صورة بعض.

12 | لو أنزلنا هذا القرآن على جبل

المثل القرآني يهز الغفلة: الجبل الصلب لو عقل الخطاب لتصدع من خشية الله، فكيف بقلب خُلِقَ للفهم والتذكر؟ وموضع الاستدلال هنا [الحشر: 21].

خطوة قريبة: قراءة المقطع ببطء، ثم سؤال النفس عن الأمر والنهي والوعد الذي مر عليها.

من القرآن: ضرب الله مثل الجبل في [الحشر: 21]: لو أنزل عليه هذا القرآن لرأيتَه خاشعاً متصدعاً من خشية الله. المثل لا يخبر أن الجبل كُلفَ بما كُلفَ به الإنسان، لكنه يواجه القارئ بعظمة الكلام الذي قد يمر على قلبه كأنه خبر عادي.

التدبر هنا ليس صناعة انفعال. يبدأ بإعطاء الآية وقتاً: معرفة المخاطب، وفهم المفردة، والنظر في السياق، ثم السؤال عن مقتضاها. ربما لا يبكي القارئ، لكنه يترك معصية أو يرد حقاً، وهذا أثر ينبغي أن يرى ويحمد الله عليه.

وإذا قسا القلب أمام الآية فلا يطلب علاجاً غامضاً. يقلل المشتتات، ويكرر القراءة، ويرجع إلى تفسير موثوق، ويتوب من ذنب يعرفه. القسوة ليست مادة واحدة؛ منها جهل، ومنها عادة، ومنها إصرار. وحسن التشخيص يحول الموعظة من لوم عام إلى خطوة ممكنة.

الجبل مرآة للقلب

من القرآن: ضربت [الحشر: 21] مثل نزول القرآن على جبل فيخشع ويتصدع من خشية الله، ثم بينت أن الأمثال تضرب للناس لعلهم يتفكرون.

الآية مثل يوقظ العقل، وليست دعوة إلى محاكاة أثر جسدي بعينه. المقصود أن صلابة الجبل لو أدركت هذا الخطاب لتأثرت؛ فالقلب المهيأ للفهم أولى أن يقف مع كلام ربه. ولا يجوز أن يحاكم القارئ نفسه أو غيره إلى دمعة محددة، بل إلى تلقي يثمر فهماً وانقياداً.

تطبيق: يقرأ المرء مقطعاً قصيراً، ثم يحدد فيه خبراً عن الله، وأمرًا أو نهياً، ووعداً أو وعيداً. يسأل: ما الذي يطلبه مني هذا المقطع؟ هذه الأسئلة تنقل القراءة من مرور الصوت إلى استقبال الخطاب. وقد لا يتغير الشعور سريعاً، لكن الفهم المتكرر يفتح للذكر طريقاً، والعمل يحفظ أثره من الزهاب.

قال تعالى: {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر: 21]. الآية مثل يضربه الله للناس لعلهم يتفكرون، فلا يجوز تحويله إلى قصة حسية لم تقع أو تفاصيل لم يذكرها النص. قوته في صورته القرآنية نفسها: جبل في غلظه وثباته، لو حمل هذا الخطاب على الوجه المذكور لخشع وتصدع.

والمقصود أن يسأل الإنسان عن قلبه مع القرآن، لا أن يئأس لأنه لم يبلغ صورة الجبل. هل يسمع الآية بوصفها خطاباً؟ هل يتوقف عند الأمر والنهي؟ هل يلين بعد قسوة؟ المقارنة تفتح باب التفكير والمحاسبة، ولا تمنحنا معرفة الغيب في قلوب القراء.

وقد نبه ابن رجب في رسالته إلى اتصال هذا المثل بإنكار القسوة عند سماع الوحي. والخلاصة التي نأخذها منه أن القرآن لا يطلب مجرد مرور الصوت؛ يطلب قلباً يصدق ويتدبر ويستجيب. أما القصص التي تزعم آثاراً خارقة عند سماع الآية فلا تُروى بوصفها ثابتة حتى يصح أصلها.

الجبل مثلٌ يوقظ الإنسان لا مادة للبالغة

أصل محكم: ضرب الله مثل الجبل الذي لو أنزل عليه القرآن لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، ثم بين أن الأمثال تضرب للناس لعلهم يتفكرون [الحشر: 21]. المقصود توجيه القلب إلى عظمة المنزل والكلام، وإدانة القسوة التي لا يوقظها التذكير.

لا يصح أن يجعل المثل باباً للمزايدة على الناس في مقدار البكاء أو الاضطراب؛ فالآية ختمت بالتفكير. قد يبدأ أثر القرآن فهماً يصح تصوراً، أو توبة ترد حقاً، أو خوفاً يمنع معصية، ثم يظهر أثره الوجداني على قدر ما يفتح الله. ووجه الاستدلال أن التصدع

المفروض في الجبل يفضح غفلة الإنسان، لكنه لا يمنح أحداً علماً بباطن غيره.

تطبيق: عند آية شديدة، يسأل القارئ: ما الاسم أو الوعد أو الوعيد الذي واجهني؟ وما الفعل الذي يلزمني؟ ثم يثبت الجواب في سلوكه، ولا يجعل غياب الدمع حجة لتترك التدبر.

قال تعالى: {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: 21]. المثل يفتح باب التفكير في عظمة المنزل والكلام، ولا يمنحنا أداة لإهانة كل من لم يبك. الإنسان مخاطب بأن يتفكر ويستجيب، وقد تختلف سرعة أثره وظهوره.

الجبل صورة للقوة والثبات، ومع ذلك يتصور خاشعاً متصدعاً من خشية الله. فالمعنى يهدم قسوة الاستغناء: ليس العلم أو المكانة أو طول العبادة حصناً من الحاجة إلى الخشية. كلها اتسعت معرفة العبد بالنص ازداد تواضعه لمسؤوليته، لا إعجابه بما جمع.

والتصدع في المثل لا يعني أن المطلوب من النفس أن تنهار. القرآن أنزل هدى ورحمة وتكليفاً بحسب الوسع. أثره قد يكون دمعة، وقد يكون قراراً هادئاً بترك مال حرام، وقد يكون صبراً طويلاً لا يراه الناس. حصر الأثر في الانفعال يظلم وجوه الهداية العملية.

تلاوة الآية تدريب على سؤالين: ما الاسم أو الحكم الذي عظمه السياق؟ وما الشيء الذي يجب أن يلين في حياتي؟ بهذا ينتقل المثل من دهشة بلاغية إلى عبودية، من غير أن يفقد جلاله. ختم المثل بقوله: {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: 21]. التفكير ليس ترفاً بعد التلاوة؛ هو الجسر الذي يمنع الصوت من المرور بلا أثر. ينظر القارئ في المعنى والسياق، ويقارن بين ما علم وما يعمل، ثم يختار استجابة ممكنة.

ولا يشترط التفكير معرفة واسعة في كل فن. يبدأ بفهم موثوق، ويسأل عما أشكل، ويقف عند حد علمه. الخطر أن يستخرج من الآية كل خاطر ثم ينسبه إلى مراد الله. الخاطر قد يكون تطبيقاً شخصياً نافعاً، لكنه يظل تطبيقاً لا تفسيراً ملزماً.

ومن آداب التفكير ألا يسرق حق التلاوة نفسها. قد يقطع القارئ كل كلمة بسيل خواطر حتى يضيع نظم الآيات. الأفضل أن يقرأ مقداراً، ثم يقف عند محور، ثم يعود. التوازن يحفظ جلال النص ووحدة السياق.

عملياً يمكن أن يختار آية واحدة في الأسبوع، يقرأ ما قبلها وما بعدها، ويرجع إلى تفسير موثوق، ثم يكتب جملة عمل. ليس المقصود إنتاج نص للنشر؛ بل بناء صلة بين العلم والقرار.

13 | خشعت الأصوات للرحمن

من مشاهد القيامة خفت الأصوات للرحمن، وفيه تربية للحاضر: من عرف جلال ذلك اليوم لم يجعل صوته ستاراً على قلبه.

وموضع الاستدلال هنا [طه: 108].

خطوة قريبة: خفض الضجيج حول العبادة، وإعطاء لحظات الصمت حقها.

من القرآن: في [طه: 108] وصف يوم القيامة باتباع الداعي وخشوع الأصوات للرحمن، فلا يسمع إلا همساً. المشهد يرد الإنسان إلى سلطان الله وافتقاره، ويكسر ضوضاء النفس التي تتوهم الاستقلال.

خفض الصوت في موضعه قد يعين على الخشوع، لكنه ليس حقيقة الخشوع كلها. فقد يخفت اللسان ويبقى القلب معترضاً، وقد يقرأ الإمام جهراً امتثالاً والسامع حاضر. العبرة أن يخضع المعنى للحق، وأن يلتزم العبد الهيئة المشروعة من غير اختراع معيار شخصي للصلاح.

قبل الصلاة يمكن استحضار النهاية لا لترويع النفس بغير علم، بل لوضع مشاغل الساعة في حجمها. كثير مما يعلو في الذهن سيسكت، ويبقى خطاب الله والجواب عنه. هذا الاستحضار

يخفف التعلق بنظرات الناس، ويمنح الكلمات المألوفة وزناً جديداً: الله أكبر من العمل والموعد والهاتف، ومن الخوف الذي حمله المصلي إلى محرابه.

خفوت الصوت وعدل الكلمة

قال تعالى في مشهد القيامة: {وَوَخَّشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} [طه: 108]. هذا خشوع في مقام هائل، تظهر آثاره على الأصوات بعد أن أحاط الخلق علماً بالحق الذي لا يملكون دفعه. لا يصح نقل جميع أحكام المشهد الأخروي إلى كل هيئة دنيوية، لكن الآية تكشف معنى الخفوت والانخفاض أمام عظمة الرحمن.

وفي الدنيا لا يكون خفض الصوت فضيلة في كل موضع؛ قد يجب البيان، وقد يحتاج التعليم إلى إسماع. الأثر التربوي الأعدل أن يتخلص الصوت من الكبر والاعتداء، لا أن ينخفض عدداً من الدرجات. قد يتحدث المرء بهدوء ويؤذي، وقد يرفع صوته لحاجة من غير فظاظة.

لذلك يراجع اللسان من جهتين: ماذا يقول، وكيف يقوله؟ خشوع الصوت لا يصح باطلاً، وصحة الكلام لا تبيح الإهانة. وإذا اجتمع الحق والرفق ظهر في الكلام شيء من أدب القلب.

أصل محكم: مشهد [طه: 108] في يوم القيامة يصف خشوع الأصوات للرحمن حتى لا يسمع إلا همساً. هذا خبر عن موقف القيامة وسلطان الله، لا أمر عام بأن يخفض المؤمن صوته في كل موطن. وجه الاستدلال التربوي هو انكسار دعوى الاستقلال أمام الملك الحق، لا صناعة هيئة صوتية واحدة للحياة.

الخلط الشائع: قد يظن المرء أن الخشوع يساوي الكلام الخافت ولو كان المقام مقام بيان أو تعليم أو دفع ظلم. وقد يقع العكس فيظن أن قوة الصوت دليل صدق. كلاهما يزن المعنى بقشرته. للصلاة والذكر آدابهما، وللتعليم والخطبة والشهادة مقتضياتها، والميزان أن يوافق الصوت الحق والمصلحة المشروعة وألا يتحول إلى استعراض للنفس.

تطبيق: قبل الكلام يسأل المتحدث: هل يحتاج الحق إلى بيان؟ وهل يحتاج البيان إلى رفع الصوت؟ وهل أستطيع أدائه بلا أذى زائد؟ فإن كان الموطن موطن شهادة لم يكتمها باسم السكينة، وإن كان موطن سر أو دعاء لم يجعله مسرحاً. الخشوع يضبط مقصد الصوت، ولا يعطله.

مشهد القيامة ليس مجرد درس في آداب الصوت

قال تعالى: {وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} [طه: 108]. سياق الآيات في أهوال القيامة وتسوية الأرض

واتباع الداعي، ولذلك لا يصح اقتطاع العبارة لتقرير أن كل صوت منخفض في الدنيا فاضل على الإطلاق. الآية ترسم انقطاع سلطان الخلق أمام الرحمن؛ لا خطيب يملك المشهد، ولا خصومة تعلو، ولا جمهور يصنع لأحد مكانة.

هذا السياق يزيد التربية قوة. ما دمنا نملك الكلام اليوم، فكيف نستعمله قبل أن يأتي يوم تخشع فيه الأصوات قهراً؟ نستطيع الاعتذار، ورد الشهادة، وتعليم الخير، وكف الأذى. فثمرة المشهد الأخروي ليست تقليد هيئة الهمس فقط، بل تحرير اللسان من وهم السيادة.

وقد يكون رفع الصوت حقاً في موضع: تعليم من لا يسمع، تحذير من خطر، شهادة لا بد أن تظهر. وقد يكون خفضه ظلاً حين يتستر به القادر على نصرته مظلوم. العبرة أن يخضع الصوت لأمر الله، لا أن يتخذ الإنسان النبرة مقياساً وحيداً للتقوى.

قبل الكلام يسأل المرء: هل هذا حق؟ وهل هذا وقته؟ وهل المقدار مناسب؟ ثم يتكلم بما يستطيع من وضوح ورحمة. وإذا أخطأ لم يحجم صورته بكلمات إضافية؛ فاللسان الذي تذكر يوم خضوع الأصوات أقدر على قول: أخطأت.

يميل بعض الناس عند سماع الخشوع إلى تجنب كل نقاش. وقد يكون ترك الجدل المحض خيراً، لكن الحقوق تحتاج أحياناً

إلى بيان. الفرق بين الخصومة المذمومة والبيان الواجب ليس في علو الصوت وحده؛ بل في المقصد والعدل والوسيلة. يمكن لصاحب الحق أن يكون حازماً من غير إهانة، وأن يكرر طلبه من غير افتراء، وأن يلجأ إلى القضاء أو النظام من غير شماتة. الخشوع يمنعه من تجاوز مقدار الحق، ولا يطالبه بالتنازل عما يحفظ نفسه ومن يعول. كما يمنعه من تحويل قضية عادلة إلى ترخيص دائم للغضب.

ومشهد {فَلَا تَسْمَعْ إِلَّا هَمْسًا} [طه: 108] يذكره بأن كل خطاب بشري محدود. حتى أقوى حجة لا تجعل صاحبها معصوماً. لذلك يترك مساحة للمراجعة، ويفرق بين القطعي والاجتهادي، ولا يحمل مخالفة صغيرة على أنها حرب مع الدين. التطبيق في خلاف قائم أن يكتب صاحبه الجملة المركزية التي يريدّها، ويحذف منها الاتهامات التي لا دليل عليها. يحدد مطلباً ممكناً، ويختار قناة مناسبة. هذا التهذيب ليس ضعفاً؛ إنه إخضاع للصوت للحق بدل إخضاع الحق للصوت.

الصمت يعين على جمع القلب، لكنه ليس فاضلاً في كل حال. يصمت الإنسان عن غيبة وجدال، فيكون صمته حارساً. ويسكت عن علم يحتاجه سائل وهو قادر على البيان، أو عن شهادة يتعين أدائها، فيكون الصمت تقصيراً. الخشوع لا يقدس الأداة؛ يضعها في موضعها.

ومن الهرب أن يصمت المرء لأن الاعتذار ثقيل، ثم يسمي انسحابه سكينه. الاعتذار كلام قليل لكنه يهدم كبرياء كثيراً. ومن الهرب أيضاً أن يمتنع عن سؤال العالم نجلاً، فيبقى على خطأ. التواضع الحقيقي يقبل أن يظهر الجهل ليزول.

في المقابل قد تكثر الكلمات الدينية حين يخاف الإنسان الفراغ. يشرح حاله ويحلل نيته ويصف دموعه حتى يصير الحديث حجاباً عن العمل. هنا يكون الصمت فرصة لرد السر إلى الله. ليس كل ما يقع في القلب مادة للنشر.

قاعدة نافعة: إن كان الكلام يؤدي حقاً أو يدفع باطلاً بوسيلة مشروعة، تكلم. وإن كان يزيد صورة المتكلم ولا يزيد الحق، فليتوقف. وبينهما مسائل اجتهد تحتاج إلى روية، ولا تختزل في شعار واحد.

الصوت الذي يعرف مسؤوليته

النص الشرعي: يعرض مشهد القيامة خفوت الأصوات للرحمن: {وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} [طه: 108]. هذا خبر غيبي عن يوم تنكشف فيه السلطنة لله وحده ظهوراً لا ينازع فيه أحد، وليس قاعدة شكلية تجعل كل صوت منخفض في الدنيا أصدق من غيره.

للصوت في الدنيا وظيفة أخلاقية. قد يحمل علماً أو عدلاً أو مواساة، وقد يحمل أذى واستعلاءً وتضليلاً. يخشع الصوت حين ينقاد صاحبه للحق: لا يرفع النبرة ليغطي ضعف الحجّة، ولا يخفضها ليصنع رهبة مصطنعة، ولا يحتكر المجلس حتى يصير الآخرون خلفية لحضوره.

ومن فقه الخشوع التفريق بين المقامات. الخطبة والتعليم يحتاجان إسماعاً، والتحذير من خطر قد يحتاج رفعاً، والخصومة تحتاج ضبطاً، والسّر يحتاج كتماناً. ليس الأدب قلباً صوتياً واحداً، بل وضع الكلام في موضعه. وقد يكون الصمت ظلماً إذا وجب البيان، كما يكون الكلام ظلماً إذا كان فضولاً أو كشفاً لستر.

من تذكر خفوت الأصوات في الموقف الأعظم صار أحرص على أن لا يجعل صوته أداة سيطرة اليوم. لا يعني ذلك ضعف الشخصية؛ بل قوة لا تحتاج إلى الصخب كي تثبت وجودها. يختار اللفظ، ويترك مساحة للجواب، ويقبل أن يقول: لا أعلم، ويخفض صوته حين يخشى أن يجرح، ويرفعه بالقدر الذي يؤدي الأمانة.

تظهر ثمرة الصلاة هنا بوضوح. من اعتاد الوقوف قارئاً ومسبّحاً وداعياً، ينبغي أن يتعلم أن الكلمة عبادة ومسؤولية. فإذا خرج من

الصلاة وبقي لسانه يقطع الناس أو يملأ المجلس بذاته، فالمطلوب ليس ترك القراءة، بل وصلها بمحل الامتحان.

تطبيق: يراقب الإنسان موقفًا واحدًا يتكرر فيه ارتفاع صوته: مع طفل، أو موظف، أو قريب، أو في نقاش رقمي. لا يكتفي بوعد عام بالهدوء؛ يضع بديلاً: سؤال قبل الحكم، أو وقفة قصيرة، أو إعادة العبارة بلا إهانة. هذه المراجعة لا تزعم خشوع الباطن، لكنها تزيل طريقاً ظاهراً للأذى.

14 | خاشعة أبصارهم

خشوع الأبصار يوم القيامة ليس نكشوع الاختيار في الدنيا؛ الأول يلابسه الذل بعد فوات العمل، والثاني طاعة يرجى بها النجاة.

وموضع الاستدلال هنا [القلم: 42-43].

خطوة قريبة: اغتنام قدرة اليوم على السجود قبل يوم يدعى فيه قوم إليه فلا يستطيعون.

من القرآن: تصف [القلم: 42-43] قومًا يدعون إلى السجود فلا يستطيعون، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون. ويقارب هذا مشهد [المعارج: 43-44].

خشوع الآخرة في هذا السياق ليس مقام مدح مكتسبًا، بل ظهور ذل بعد فوات زمن الاختيار. لذلك يكون الخشوع النافع هو الذي يستجيب اليوم، حين يقدر الإنسان على السجود والطاعة. تطبيق: لا يجعل المرء التأثر بالمشهد بديلاً عن الفعل. إذا سمع النداء قام، وإذا عرف حقاً أداه، وإذا بان له ذنب تاب منه. التأجيل المتكرر يصنع طبقة بين المعرفة والعمل. ولعلاجها يختار قراراً قريباً له زمن واضح: صلاة اليوم في وقتها، أو مظلمة ترد، أو

شاغل يبعد قبل التكبير. الخشوع ليس وعداً عاماً للمستقبل؛ إنه جواب حاضر على نداء حاضر.

خاشعة أبصارهم لا تعني خشوعاً اختيارياً

تصف آيات القيامة أبصاراً خاشعة ترهقها ذلة [القلم: 43؛ المعارج: 44]. هذا الخشوع ليس مدحاً لأصحابه؛ إنه ذل اضطرار بعد فوات زمن الاختيار. ومن هنا يظهر الفرق بين خشوع المؤمن في الدنيا، يختاره استجابة لله، وخشوع يأتي حين لا يملك الإنسان دفع ما يرى.

هذا الفرق يحفظ معنى العبودية من الخلط. ليس كل خفض للبصر فضيلة، ولا كل انكسار قرباً؛ قد يكون ذل عقوبة أو عجز. الخشوع المحمود في الدنيا ينشأ من الإيمان والمحبة والتعظيم والانقياد، ويظهر في حفظ الأمر قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الادعاء.

والتطبيق ألا يؤجل العبد خضوعه للحق حتى تجبره النتيجة. يرد المظلمة وهو قادر، ويقبل النصيحة قبل انكشاف الخطأ، ويصلي في زمن الاختيار. هذه فرصة الخشوع الذي يرفع صاحبه، قبل خشوع لا يملك معه أحد إلا الانتظار.

أصل محكم: تصف [القلم: 42-43] قوماً يدعون إلى السجود فلا يستطيعون، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، وقد كانوا يدعون

إلى السجود وهم سالمون. الخشوع هنا ليس مدحاً لحال اختيارية، بل ظهور ذل بعد فوات زمن التكليف. الفرق بين الحالين أساس الفصل.

الخلط الشائع: استعمال كل ورود لكلمة الخشوع على أنه منزلة محمودة يفسد الدلالة. الألفاظ تقرأ في سياقاتها؛ قد يمدح الخشوع حين يكون استجابة، ويكون وصف الذلة يوم القيامة وعيداً حين يأتي بعد الإعراض. لذلك لا يكفي استخراج الكلمة من الآية، بل يلزم معرفة الفاعل والوقت والسبب والثمرة.

تطبيق: يجعل القارئ مشهد الآخرة سؤالاً للحاضر: ما السجود الذي أقدر عليه الآن؟ ما الحق الذي أؤجله وأنا سالم؟ لا يصنع رعباً بلا عمل، ولا يحكم على مصير شخص بعينه. ينتقل من الغيب الذي أخبر الله به إلى تكليف معلوم: صلاة تحفظ، وأمر يطاع، وتوبة لا تؤجل.

خفض البصر يوم القيامة خزي لا منزلة مكتسبة

تكرر وصف الأبصار بالخضوع في مشاهد القيامة: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} [القلم: 43]، [المعارج: 44]، و{خَشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ} [القمر: 7]، و{أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ} [النازعات: 9]. هذا خضوع قهري بعد انكشاف الحق، لا عبادة يختارها أصحابها فينالون بها المدح. التفريق ضروري حتى

لا نخرج بين خشوع المؤمن لله في الدنيا وبين ذل المكذب عند الحساب.

القرآن يربي بالمقابلة: من استطاع السجود والامتنال في زمن التكليف ثم أعرض، يلقي يوماً لا تنفع فيه صناعة الهيئة. في الدنيا يمكن أن تخفض بصرك عن حرام، وأن ترفعه لقراءة آية أو نصرة محتاج، وأن تسجد طوعاً. أما هناك فتنتي مساحة الادعاء.

لهذا لا يصح جعل إطراق الرأس الدائم معياراً لصلاح الإنسان. قد يحتاج المعلم إلى النظر في وجوه طلابه، والطبيب إلى الفحص، والمتحدث إلى تواصل محترم. المشروع غض البصر عن الحرام وحفظ الأدب، لا تعطيل الحواس ولا تمثيل الذلة.

المعنى العملي أن يسأل المرء عينه اليوم: ماذا تتبع؟ إلى أين تعود بعد النظرة العارضة؟ هل تستعمل في العلم والرحمة أم في المقارنة والتجسس؟ خشوع البصر الاختياري هو انقياده للحد، لا شكله في صورة واحدة.

في سياق القلم قال تعالى عنهم: {وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالُونَ} [القلم: 43]. موضع العبرة زمن السلامة والقدرة. لا يملك الإنسان قوته على الدوام؛ الركبة التي تنثني اليوم قد تعجز غداً، والوقت الذي يتسع لصلاة قد يضيق بمرض أو موت. لذلك يوقظ المشهد معنى المبادرة من غير تهويل يأس.

السجود ليس حركة منعزلة عن الانقياد. من وضع جبهته ثم استكبر عن حق علمه فقد جمع صورة تحتاج إلى إصلاح باطنها. ولا يعني ذلك إبطال صلاته بمجرد نقص خلق؛ بل يعني أن السجود مدرسة متكررة، كل مرة تذكره أن العلو لله.

ومن رحمة الشريعة أن التكليف بحسب الاستطاعة. العاجز يصلي على حاله، ولا يُحرم معنى السجود لأنه لم يقدر على هيئته الكاملة. هنا يظهر أن المقصود عبودية صادقة لا منافسة جسدية. من اتخذ الرخصة بحق خضع، ومن تكلف ما يضره ليحفظ صورته ربما قدم نظر الناس على حكم الله.

التطبيق ألا يؤجل الإنسان الصلاة انتظاراً لحضور كامل، ولا يستهين بالتهيؤ. يدخل بما معه من ضعف، يؤدي الأركان والواجبات، ويسأل أن يصلح قلبه. الاستجابة في زمن القدرة هي التي تنفع، لا تمني هيئة بعد انقضاء العمل.

خارج الصلاة يظهر انقياد العين في أبواب كثيرة. تمتنع عن الحرام، لكنها تمتنع كذلك عن تتبع عورات الناس، وعن قراءة الرسائل التي لم يؤذن لها، وعن تثبيت صورة الفقير أو المصاب لتغذية المحتوى. قد لا تتحرك شهوة ظاهرة، ومع ذلك يقع اعتداء على الكرامة.

ومن آفات النظر نظرة الاحتقار. قد يطيل المتدين التأمل في خطأ غيره حتى يتضخم في نفسه شعور النجاة. الخشوع يذكره أن

الهداية فضل، وأن الواجب إنكار الخطأ بالحق لا بناء هوية على ازدراء المخطئ. ينصح إن كان موضع نصيحة، ويستر ما يستر، ويرجع إلى عيوبه.

وفي المقابل لا يطلب منه أن يغلق عينه عن الظلم. الشهادة تحتاج رؤية، والإصلاح يحتاج تشخيصاً. الفرق بين الرؤية المسؤولة والتجسس أن الأولى تثقيد بحاجة وحق، والثانية تطلب ما ستره الله بلا مسوغ أو تنشره بعد زوال الحاجة.

يمكن تدريب العين بتقليل المثيرات قبل الصلاة، وإزالة حسابات تجر إلى المقارنة أو المحرم، ووضع الهاتف بعيداً عن موضع السجود. هذه أسباب عادية لا تمنح صاحبها مقاماً، لكنها تقلل الطرق التي يتسرب منها التششت.

15 | تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم

وصف القرآن انتقال أثر الوحي من اقشعرار الجلد إلى لين الجلد والقلب؛ فالخشية لا تنتهي إلى الصدمة، بل إلى سكون في ذكر الله.

خطوة قريبة: عدم مطاردة الانفعال؛ العبرة بأن يقود السماع إلى لين وعمل.

من القرآن: تصف [الزمر: 23] أثرين متتابعين لسماع القرآن: تقشعر الجلود من الوعيد والهيبه، ثم تلين الجلود والقلوب إلى ذكر الله. لا يقف الطريق عند الرجفة؛ ينتهي إلى لين وسكون وهداية. وهكذا يجتمع الجلال والجمال في تربية القلب.

قد يجذب الإنسان إلى لحظة التأثير القوي لأنها واضحة، ثم يغفل عن اللين الهادئ الذي يظهر في قبول الحق والرفق بالناس. الآية تعيد الميزان: ليس المقصود طلب القشعريرة لذاتها، بل أن تقود هي وما معها إلى ذكر الله وهدايته.

ولهذا يحسن بعد التلاوة أن يترك القارئ دقيقة صمت لا لابتداع عبادة، بل ليحدد أثراً: استغفار، أو دعاء، أو عمل واجب. إذا لم يجد أثراً محدداً، حفظ الآية وعاد إليها. التكرار المقصود يختلف عن التكرار الغافل؛ الأول يبني معرفة، والثاني قد يزيد الألفة من غير انتفاع.

من الاقشعرار إلى اللين

من القرآن: جمعت [الزمر: 23] بين اقشعرار الجلود ثم لين الجلود والقلوب إلى ذكر الله. فالرهبة ليست نهاية الطريق؛ يعقبها سكون إلى الهدى وطمأنينة بالذكر.

قد يبحث المرء عن قوة الأثر الأول وينسى ثمرته. المقصود ليس دوام الارتجاف، بل انتقال القلب من الغفلة إلى الهداية. فإذا رق عند آية ثم لم يتغير أمره، احتاج أن يكمل الطريق: ماذا عرف؟ وماذا سيترك أو يفعل؟

كما تمنع الآية اختزال الخشوع في الحزن. فيها خوف ولين وهداية. قد يبكي الإنسان، وقد يهدأ، وقد يعزم على طاعة من غير بكاء. لا تُلغى الفروق بين الطباع، لكن الجميع مطالب بصدق التلقي. والخطوة النافعة أن يكتب القارئ معنى واحداً خرج به، ثم يراجع بعد يوم: هل بقي في اختياره؟ بذلك ينتقل الأثر من لحظة السماع إلى ذاكرة العمل.

قال تعالى: {تَقَشَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: 23]. تجمع الآية أثر الهيبة ثم أثر السكون والطمأنينة إلى الذكر. فلا يحبس الخشوع في الرفقة الأولى، ولا يُقاس صدق التلاوة بظهور أثر جسدي واحد.

يلين القلب حين يزول شيء من قسوته ويصبح أقبل على الأمر والرجاء والتوبة. وقد يظهر ذلك في دمعة، وقد يظهر في قرار

عادل أو ترك معصية أو عفو. لا يملك الناس ميزاناً يقرأ الباطن، لكن الإنسان يستطيع أن يسأل نفسه عن الأثر الذي بقي بعد انقضاء اللحظة.

وتحفظ كلمة {ثُمَّ} [الزمر: 23] رحلة القلب من اختزالها في خوف دائم. القرآن يوقظ الخشية، ثم يرد المؤمن إلى ذكر الله وهدايته. الخوف الذي يقطع الرجاء أو يدفع إلى القنوط يحتاج إلى تصحيح؛ واللين الذي يحو التعظيم يتحول ألفة غافلة.

الأثر العاطفي بداية لا شهادة قبول

أصل محكم: جمعت [الزمر: 23] اقشعرار الجلود ثم لينها ولين القلوب إلى ذكر الله. الانتقال من الرهبة إلى اللين والهداية يمنع الوقوف عند ذروة الشعور. الأثر الحسي مذكور ومعتبر، لكنه جزء من مسار أوسع.

انخلط الشائع: قد يطارد السامع قشعريرة المرة الأولى، فيعيد المقطع بحثاً عن الإحساس نفسه وينسى المعنى الذي حمله. وقد يحتقر انتفاعاً هادئاً لأنه لم يصحبه أثر جسدي. النص لا يجعل التجربة الحسية شهادة قبول، ولا يلزم الناس بتطابق طبائعهم.

تطبيق: إذا تأثر القارئ سجل معنى واحداً أو حفظ أمراً واحداً بدل إعادة قياس شدة الشعور. وإذا لم يتأثر ظاهراً بقي على التلاوة والفهم والعمل. وبعد أيام ينظر: هل لانت خصومة؟ هل ترك

ذنبا؟ هل عاد إلى ذكر؟ هذه علامات تربية لا أحكام قطعية على القبول.

قال تعالى: {اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: 23]. جمعت الآية بين اقشعرار ولين، بين رهبة وأنس بالذكر. ليست الخشية إقامة دائمة في التورب؛ تمر بالعبد هيبة ثم ترده إلى ذكر الله بقلب لين.

الوصف القرآني لا يجعل الاقشعرار شرطاً لصحة الانتفاع في كل قراءة. هو أثر يخلقه الله، ولا يملك الإنسان استدعاءه بالأمر. فإذا لم يقع لم يعبث بجسده ولم يرفع الصوت ليصنعه. يسأل عن المعنى والعمل، ويترك الأثر البدني لطبعه. كما أن وقوعه لا يكفي وحده. قد يتأثر الجسد بفصاحة أو صوت، ثم لا يستجيب الحكم. تمام اللين أن يقبل القلب الذكر، وأن تظهر ثمرة في طاعة أو ترك أذى. لا يحتقر الانفعال الصادق، لكنه لا يتخذ نهاية الطريق.

والانتقال من الاقشعرار إلى اللين يربي الداعية والمربي: ليس المقصود إبقاء الناس في خوف مشدود، بل إعادتهم إلى الله. الوعظ الذي يثير ثم لا يدل على ذكر وعمل يترك النفس معلقة. البيان المتوازن يذكر الوعيد، ثم يفتح التوبة ويعين على الخطوة.

قد يخلط المرء بين اللين وبين ترك الحزم. القلب اللين يرحم الخطي، لكنه لا يسمي الخطأ صواباً. يضع حداً لاعتداء من غير تشف، ويمنع مالا حراماً من غير استعلاء، ويربي طفلاً بقواعد ثابتة من غير إذلال.

الرخاوة تنشأ أحياناً من خوف الناس، لا من الرحمة. يترك المسؤول واجبه حتى لا يغضب أحد، ثم يسمي ذلك رفقا. والغلظة تنشأ أحياناً من حب السيطرة، ثم تسمى غيرة. الخشوع يكشف الدافعين: هل المقصود إقامة الحق بأعدل طريق، أم حماية صورة الذات؟

اللين إلى ذكر الله يجعل صاحبه قابلاً للمراجعة. فإذا بين له الدليل رجع، ولو كان الرجوع مكلفاً. أما من يلين في النبرة ويصر على الباطل فلا يكفيه الصوت. الأخلاق ليست زينة خارجية؛ هي قدرة على ترك الهوى عند ظهور الحق.

اختبار اللين في المنزل أدق من المنبر. هل يستطيع الإنسان أن يسمع اعتراضاً بلا سخرية؟ هل يعترف إذا قصر؟ هل يضع قاعدة مفهومة بدل عقوبة مزاجية؟ هذه المواضع تربط القرآن بعلاقات لا يراها الجمهور.

اللين بعد الاقشعرار

النص الشرعي: وصف الله كتابه بأنه تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله [الزمر: 23].
الترتيب يجمع الهيبة واللين، فلا يجعل الأثر رهبة خالصة ولا راحة خالصة. كلاهما متجه إلى الذكر، لا إلى مراقبة الانفعال لذاته.

الاقشعرار استجابة بدنية قد تقع وقد لا تقع، ولا يملك الإنسان استدعاءها بأمر مباشر. لذلك لا يصح أن يجعلها مقياس الإيمان، ولا أن يحتقر من لم تظهر عليه. المدلول الأوسع في الآية هو انتقال القلب والجسد تحت سلطان الذكر: خوف يوقظ، ثم لين يفتح باب القبول والعمل.

وقد يقع الأثر البدني لأسباب أخرى: جمال صوت، أو ذكرى، أو تعب. لا نكذب الشعور ولا نزكيه وحده. نرده إلى ثلاثة أسئلة: هل وافق النص الصحيح؟ هل زاد احترام حدود الله؟ وهل ترك أثراً في واجب أو توبة؟ إن لم نجد جواباً عاجلاً بقيت اللحظة عاطفة مباحة لا شهادة مقام.

لين القلب ليس رخاوة أمام الباطل. قد يلين لله فيشتد في حفظ أمانة، أو يرفض ظلماً بلا قسوة، أو يضع حداً لعلاقة مؤذية بلا انتقام. اللين المقصود قابلية للحق ورحمة بالخلق، لا تنازلاً عن الواجب. كما أن الهيبة لا تبيح الغلظة؛ من خاف الله خاف أن يظلم باسمه.

في تلاوة القرآن، من المفيد ترك مساحة للآية من غير صناعة. يقرأ بترتيل مشروع، ويفهم قدرًا صحيحًا، ويسكت عند الحاجة للتدبر خارج الصلاة. لا يعيد المقطع مرات طلبًا لدمعة أمام الناس، ولا يتركه لأن قلبه لم يتحرك. الثبات على التلاوة نفسها باب لين طويل.

تطبيق: إذا تأثر بآية، يكتب بعد القراءة «ماذا قالت؟» ثم «ماذا تطلب؟». يفرق بين معنى النص وبين خاطره الشخصي. فإن كان المطلوب حقًا معلومًا عمل به، وإن احتاج فهمًا رجع إلى تفسير موثوق. بهذه الخطوة يخرج الأثر من الجسد إلى الأمانة، ويبقى القلب مفتوحًا للهدى من غير ادعاء.

16 | آيات تبني قلباً خاشعاً

تجمع آيات الخشوع المعرفة والسجود والبكاء وزيادة الخشوع. وبناءؤه يكون بتكرار التعرض للوحي مع فهم واستجابة، لا بكلمة منفردة.

وموضع الاستدلال هنا [الإسراء: 107-109].

خطوة قريبة: إنشاء ورد قصير للفهم: آيات معدودة، معنى واضح، واستجابة عملية واحدة.

الآيات السابقة ترسم شبكة واحدة: خشوع في الصلاة، واستحضار للقاء، ومسارة في الخير، وتصديق للحق، وخفوت أمام جلال الآخرة، ولين بعد القشعريرة. جمعها يحمينا من تعريف الخشوع بمشهد واحد. هو عبودية تنوع أسبابها وآثارها، ويربطها صدق التلقي.

يمكن للقارئ أن يبني ورداً دراسياً صغيراً من هذه المواضع: يقرأ كل موضع في سياقه، ويسجل كلمة مركزية، ثم يربطها بسلوك. لا يجعل اختياره تابعاً لما يثيره عاطفياً فقط؛ يقرأ آية الوعد والوعيد، وآية الصلاة والعمل، حتى يتوازن القلب.

وهذه وسيلة تنظيم لا عبادة ذات عدد مخصوص: سبعة مواضع على سبعة أيام، ثم إعادة ما احتاجه القلب. يبقى الأصل تلاوة القرآن وتدبره، ولا ينسب لهذا التقسيم فضل شرعي خاص.

فأدته أنه يمنع المعرفة من التبعر، ويجعل الآيات هي التي تبني تصور الخشوع قبل أن يبني الناقل عبارته.

تلخيص جامع: ترسم الآيات السابقة حركة متصلة: قلب يلين للذكر [الحديد: 16]، وصلاة يخف حملها بمعنى اللقاء [البقرة: 45-46]، وخشوع يدخل في صفات الفلاح [المؤمنون: 1-11]، وإخبات يظهر في الصبر والصلاة والإنفاق [الحج: 34-35]، وتأثر بالقرآن ينتهي إلى اللين والهداية [الزمر: 23].

لا ينبغي أن تنافس هذه المعاني بعضها. من أصلح الصلاة ولم يحفظ العهد لم يكتمل الطريق، ومن أنفق وبقي قلبه قاسياً لا يستغني عن الذكر، ومن تأثر بالقرآن ولم يعمل بأمره فائته ثمرة من ثمراته. الخشوع يجمع ولا يجرى الإنسان إلى لحظات متباعدة.

يمكن للقارئ أن يتخذ هذه الخريطة ميزان مراجعة شهري: ذكر يفهمه، وصلاة يصلحها، وخلق يحفظه، وحق يؤديه، وشاغل يتركه. لا يحولها إلى أرقام تزكيه، بل إلى أسئلة تكشف موضع العناية التالية. المقصد أن يصير القرآن قائداً للتربية، لا شاهداً يقتطع لتجميل برنامج جاهز.

الخريطة القرآنية تبدأ بالقلب وتنتهي بالحق

إذا جمعت آيات الباب ظهرت خريطة واحدة متعددة المداخل: خشوع في الصلاة [المؤمنون: 2]، وخشوع يخفف ثقلها

باستحضار اللقاء [البقرة: 45-46]، وخشوع يجتمع مع المسارعة والدعاء [الأنبياء: 90]، وخشوع يحدثه سماع القرآن والعلم به [الإسراء: 107-109؛ الزمر: 23]، وخشوع اضطراري يوم القيامة يختلف عن عبودية الاختيار.

هذه الخريطة تمنع تعريفاً ناقصاً. من جعله هدوءاً حسياً فقط فاته العلم والعمل، ومن جعله انفعالاً فقط فاته الثبات، ومن جعله معرفة ذهنية فاته الانقياد. الخشوع قلب يعرف ويعظم ويحب ويخاف ويرجو، ثم تنضبط به الجوارح والحقوق بقدر صدقه.

ولا يعني الجمع بين الآيات أن كل آية تفسر الأخرى من كل وجه، أو أن الفروق بينها تزول. والجمع بين هذه الآيات لا يلغي سياق كل نص ولا يسوي بينها من كل وجه. فائدته للقارئ أن يعرف أن طريق الخشوع أوسع من مطاردة شعور، وأقرب من انتظار حال خارق: يبدأ بالوحي، ويظهر في الصلاة، ويستمر في العمل.

أصل محكم: آيات الخشوع لا تؤدي وظيفة واحدة؛ فالحديد 16 تنادي القلب إلى الأوان، والمؤمنون 1-2 تربط الخشوع بالفلاح، والبقرة 45-46 تربطه بالاستعانة واليقين، والحشر 21 يوقظ بالتفكير، والإسراء 107-109 تعرض سجد أهل العلم وزيادة الخشوع.

جمع الآيات لا يعني تسوية سياقاتها. لكل موضع سؤال: هل يعالج قسوة الزمن؟ أم ثقل العبادة؟ أم أثر العلم؟ أم علامة المؤمن؟ وحين تحفظ الوظائف، يصير الباب القرآني خريطة علاج: الغافل يحتاج نداء الأوان، والمتثاقل يحتاج يقين اللقاء، والمعجب بعلمه يحتاج سجود أهل العلم، ومن حبس الخشوع في الصلاة يحتاج سياق الصفات في المؤمنون.

المنهج الآمن أن يبدأ الربى بالنص الأقرب إلى العلة الظاهرة، ثم يضم إليه بقية النصوص لإكمال الميزان. هذا ترتيب تربوي مقترح، لا تفسير منقول ولا حصر لوجوه الآيات.

ترسم الآيات شبكة لا عضواً منفرداً. في الحديد خشوع القلب للذكر والحق، وفي طه خشوع الأصوات للرحمن يوم القيامة، وفي مواضع القيامة خشوع الأبصار، وفي الأنبياء خشوع متصل بالمسارعة والدعاء، وفي الزمر أثر القرآن في الجلد والقلب. هذه الشبكة تمنع أن يُحتكر المعنى في مظهر واحد.

القلب أصل التوجه، لكنه ليس حجة لإهمال الظاهر. من ادعى حضوراً ثم عبث بحقوق الناس احتاج إلى مراجعة. والظاهر طريق تربية، لكنه ليس شهادة على الباطن. من سكن جسده لا نعرف ما في قلبه، ونرجو له الخير ولا نزكيه.

ومن الشبكة نعرف اختلاف المقامات. خشوع الأصوات والأبصار في القيامة قهري، وخشوع المؤمنين في زمن التكليف

اختياري يمدحون عليه. اقشعرار الجلد أثر، والمسارة فعل. جمعها في كلمة واحدة لا يحو الفروق؛ بل يجعلنا نرد كل استعمال إلى سياقه.

التطبيق أن يختار القارئ خيطاً ناقصاً عنده: فهم النص، أو ضبط اللسان، أو غرض البصر، أو سرعة إلى خير. يعمل عليه مدة، ثم يراجع أثره. لا يحاول تمثيل الشبكة كلها في لحظة شعورية واحدة.

قد يستشهد الإنسان بآية السكون حين يريد إسكات ناقد، وبآية المسارة حين يريد تجاوز التثبث، وبآية الرحمة حين يفر من حد، وبآية الوعيد حين يشتد على خصمه. الخشوع للقرآن يقتضي أن يكون النص حاكماً عليه، لا مخزناً لشعاراته.

الوقاية تبدأ بقراءة السياق، وجمع النصوص في الباب، والرجوع إلى أهل العلم. لا يلزم كل قارئ أن يصير متخصصاً، لكن يلزمه ألا ينسب إلى الله ما لا يعلم. إذا كانت المسألة كبيرة أو تمس حقوقاً، زادت الحاجة إلى السؤال.

وهذا الأدب ينعكس على نقل المواعظ والقصص. جمال العبارة لا يبرر حذف قيد شرعي، وقوة المشهد لا تبرر رفع أثر إلى النبي ﷺ، وشهرة الحكاية لا تصير إسناداً. وحين يترك المرء قصة محبوبة لعدم ثبوتها فهو يمارس نوعاً من الخشوع للحق.

القارئ كذلك مسؤول: لا يعيد نشر مقطع لأن نهايته أبكته قبل أن يتثبت من نسبته. يمكن أن يحتفظ بالمعنى العام إن كان صحيحاً ويكتبه بلغته، مع نسبته إلى الاستنباط لا إلى شخص لم يثبت عنه.

وحدة المعنى لا تعني تكرار العبارة

تتكرر أصول الخشوع لأن القلب يحتاجها، لكن التربية النافعة لا تعيد الجملة نفسها في كل باب. مرة يدرس الخشوع من جهة الصلاة، ومرة من جهة اللسان، ومرة من جهة تلقي القرآن، ومرة من جهة الأخلاق. الوحدة في الأصل، والتنوع في السؤال والوظيفة.

هذا يحمي الكتاب والقارئ من وهم الكثرة. ليست عشر صفحات من الصياغة المتشابهة أعمق من صفحة تؤسس فرقاً حقيقياً. عند المراجعة يُسأل عن كل مقطع: ما المسألة التي يضيفها؟ ما الدليل الذي يضبطها؟ ما التطبيق الذي لا يكرر السابق؟ فإن لم يوجد دمج أو حذف.

وفي حياة الفرد لا يحتاج إلى عشرين عادة في وقت واحد. يثبت أصلاً، ثم ينقله إلى موضع جديد. قد يبدأ بحفظ الوقت، ثم فهم الفاتحة، ثم كف اللسان بعد الصلاة. هذه وحدة عملية بلا ملل نظري.

الخشوع ليس مشروع إنتاج محتوى؛ هو عبودية. كل صياغة لا تقرب من معرفة أو عمل أو تصحيح تُترك، ولو كانت رنانة. بهذا يبقى الكلام خادماً للحق.

أقصر طريق يحفظ أبواب الكتاب أن تُرتب المادة في ثلاث درجات. الأولى نص ثابت: آية بلفظها وموضعها، أو حديث بعزوه وحكمه المنقول من مصدر معلوم. الثانية فهم منضبط يرجع إلى الشرح والسياق. الثالثة تطبيق أو استنباط يعلن عن نفسه ولا يتنكر في صورة نص.

إذا اختلطت الدرجات نشأت أخطاء كثيرة. قد يتحول خاطر حسن إلى تفسير، أو قول عالم إلى حديث، أو عادة نافعة إلى سنة لازمة. أما الفصل بينها فلا يقتل حرارة الكتاب؛ يعطي كل كلمة وزنها الصحيح.

القارئ يستفيد من هذا الميزان في حياته. حين يسمع عبارة مؤثرة يسأل عن أصلها، ثم عن معناها، ثم عن موضع تطبيقها. لا يقف عند التثبت حتى يجمد، ولا يقفز إلى العمل قبل الفهم.

ومن ينقل العلم يراجع خبره بهذه الأسئلة: هل له أصل؟ وهل ثبت لفظه ونسبته؟ وما وجه دلالة؟ فما لا أصل له يُترك، وما لم يتضح ثبوته يتوقف في نسبته، وما ثبت يوضع في سياقه من غير تحميل للنص ما لا يحتمل.

الثبات على القليل أصل تربوي، لكنه لا يعني الرضا الدائم بأقل الممكن. يبدأ الإنسان بعادة قابلة للاستمرار، فإذا ثبتت زاد بعلم وتدرج. الفرق بين التدرج والتسويق أن الأول له خطوة وموعد مراجعة، والثاني وعد غير محدد.

في الخشوع قد يبدأ بحفظ معاني الفاتحة، ثم يضيف ذكر الركوع، ثم يراجع آداب الاستعداد. لا يحمل نفسه كتاباً كاملاً في ليلة، ولا يبقى عامماً عند الخطوة الأولى خوفاً من التكلف.

والزيادة ليست عدداً فقط. ربما كان حذف مشتت واحد أعمق من إضافة ورد، أو رد مظلمة أنفع للقلب من مجلس آخر. ينظر إلى موضع حاجته لا إلى صورة براجم الناس.

يستعين بدقتر خاص أو تذكير بسيط، ويتجنب نشر خطته قبل اختبارها. الإعلان المبكر قد يعطي النفس مكافأة الصورة قبل مشقة العمل.

يمكن قياس أفعال مساعدة: حضور الصلاة في وقتها، فهم ألفاظ، قلة حركة، رد حق. لكن لا توجد أداة تمنح القلب نسبة قبول. هذا الحد يحمي التربية من التحول إلى مشروع مراقبة قاس. حين يستعمل المرء مؤشرات سلوكية يجعلها لخدمته لا لمحاكمته. إذا تحسن شكر، وإذا تراجع بحث عن سبب وعدل الخطوة. لا يقارن رقبه بصديق، اختلاف الظروف واسع، والمقارنة قد تفتح عجباً أو يأساً.

كما لا يراقب الإمام مأموميه ليصنفهم من وجوههم. يعلم الحكم
ويهيئ البيئة ويترك السرائر لله. ومن ظهرت منه مخالفة ظاهرة
نصح في الفعل بقدرها.
آخر ما يتعلمه السالك أن حاجته إلى الله لا تنتهي مع التحسن.
كل فتح يجلب مسؤولية شكر، وكل ضعف يفتح باب استعانة.
هكذا يبقى الخشوع طريقاً لا لقياً.

الباب الثالث: الصلاة التي يحضر فيها القلب

17 | قبل التكبير

الحضور يبدأ قبل الصلاة؛ فالذي يدخلها مسرعاً من كل جهة يحمل بقايا اندفاعه معه. والتهيؤ ليس طقساً زائداً بل جمع للنفس على المقصود.

وموضع الاستدلال هنا [النساء: 43].

خطوة قريبة: قطع ما يمكن قطعه من شواغل، وإتمام الوضوء، والوصول قبل الإقامة متى تيسر.

ما قبل التكبير جزء من الصلاة

تلخيص فقهي تربوي: حضور القلب لا يبدأ فجأة بعد تكبيرة الإحرام. ما يفعله الإنسان قبل الصلاة يرافقه إليها: استعجاله، ونظره، وحديثه، وحاجة بدنه. لذلك كانت إزالة الشاغل الممكن من تمام الأخذ بالأسباب، من غير ادعاء أن سبباً واحداً يضمن الخشوع.

تطبيق: يهني المصلي انتقالاً قصيراً: يقطع العمل عند أول فرصة، يضع الهاتف بعيداً، يفرغ حاجته، ويتوضأ من غير عجلة. ثم يقف لحظة يعرف فيها الصلاة التي سيؤديها وما يرجوه منها. لا يبتدع ذكراً موقوتاً لم يثبت، ولا يجعل التهيؤ طقساً معقداً يؤخر الفريضة.

والتهيؤ يتسع لمن له ظرف خاص. صاحب المرض يأخذ رخصته، والأب أو الأم يقدران ما يلزم من رعاية، والعامل ينظم ما يستطيع. الخشوع لا يطلب واقعاً خالياً من المسؤوليات؛ يطلب صدقاً داخل الواقع، مع تقليل الشاغل الذي يمكن تقليله وقبول ما لا يمكن دفعه دون سخط.

من السنة: ثبت في صحيح البخاري 636 أن المأموم إذا سمع الإقامة يأتي الصلاة وعليه السكينة والوقار، ولا يسرع، فيصلي ما أدرك ويتم ما فاتته. يسبق التوجيه لحظة التكبير؛ وكأن الطريق إلى الصف أول تدريب على الانتقال من اندفاع اليوم إلى مقام العبادة. وليس المراد أن يمشي متباطئاً على هيئة مصطنعة، بل أن يترك العجلة التي تشتت النفس وتؤدي الناس وتدخل صاحبها الصلاة وهو يلهث.

لا يساوي فوات أول الركعة سقوط المقصود كله. السنة لم تأمر المسبوق أن يعرض ما فاتته بالجري، بل أن يحفظ سكينته ثم يتم صلاته. في هذا تربية على أن الطاعة لا تصلح بمعصية أو فوضى في طريقها، وأن حرص العبد على الكمال لا يبيح له إفساد ما بين يديه.

ومن التطبيق أن يجعل للمغادرة إلى المسجد هامشاً واقعياً، وأن يغلق المحادثة قبل الإقامة، وأن يهيئ ثوبه ووضوءه من غير استعجال. فإذا وقع التأخير لم يصف إليه اضطراباً ثانياً. يصل بما

قدر الله له، ويدخل الصف بهدوء، ويبدأ من الموضع الذي أدركه؛ فالسكينة ليست زينة سابقة للصلاة، بل أول أبواب حضورها.

الوقت أول أبواب الحضور

قال الله تعالى إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً [النساء: 103]، وأمر بالمحافظة على الصلوات والقيام له قانتين [البقرة: 238]. قبل أن يكون الخشوع إحساساً داخل الركعة، هو وفاء بموعد جعله الله حداً في اليوم. قد يطلب الإنسان حضوراً عالياً، ثم يدخل الصلاة بعد أن استنفد وقتها في المباحات أو تركها تزامها أعمال كان يستطيع تنظيمها؛ فيحاول أن يعالج داخل الدقائق القليلة ما صنعه قبلها بساعات.

المحافظة لا تعني أن حياة المؤمن تخلو من العوارض، ولا أن كل تأخر عارض دليل قسوة. لها أحكامها وأعذارها، لكن المعنى التربوي باق: ما نعهده مهماً نصنع له مكاناً قبل أن يأتي. لذلك يبدأ إصلاح الخشوع من التقويم والموعد والنوم والطريق، لا من لوم النفس بعد التكبير وحده. حين يتعلم المرء أن يحرس الوقت، تصل إلى قلبه رسالة عملية: هذه الوقفة ليست فراغاً يتبقى من اليوم، بل اليوم نفسه ينتظم حولها.

وقد يخشى العامل أو الوالد أو المريض أن يقوده الحرص إلى قسوة على نفسه ومن حوله. الميزان أن يطلب الحكم الصحيح لحاله، وأن يفرق بين العجز الحقيقي والفوضى المتكررة. ليس المقصود أن يترك واجب إنقاذ أو رعاية، ولا أن يدخل في نزاع كلما اقترب الأذان؛ المقصود أن يزيل المزاحمة التي صنعها اختياره، ويتيحاً لما لا يملك دفعه بخطة معقولة.

من التطبيق أن يراجع أسبوعاً واحداً: أي صلاة يسبقها أكبر ازدحام؟ وما سببه القابل للتغيير؟ قد يكون اجتماعاً يقبل التقديم، أو نوماً يحتاج إلى ضبط، أو خروجاً بلا حساب للزمن. يعالج السبب الواحد ثم يراقب أثره. هذه وسيلة تنظيمية لا عبادة محدثة، وفائدتها أن تجعل المحافظة جسراً إلى الحضور، لا رقفاً منفصلاً عن القلب.

عندما يقول المصلي «الله أكبر» يدخل في عبادة لها حدود، سواء شعر بالانتقال بقوة أم لم يشعر. هذا مهم لمن يؤخر الاستقامة حتى يجد انفعالاً. التكبير فعل وقول وقصد مستطاع، والمشاعر تتبعه أحياناً وتتاخر أحياناً.

معنى الكلمة يرد الأشياء إلى حجمها: الهم موجود لكنه ليس أكبر من الله، والعمل مهم لكنه لا يملك أن يبتلع حق الصلاة، ونظر الناس مؤثر لكنه ليس الحكم الأخير. لا يحتاج المصلي إلى إنكار همومه؛ يضعها خارج مقام المناجاة مؤقتاً.

إذا عادت الفكرة لم يكرر التكبير من غير سبب. يعود إلى اللفظ الذي هو فيه. تكرار المدخل قد يصنع وسواساً بدل الحضور. اليقين الشرعي بالفعل الصحيح مقدم على طلب إحساس يقيني لا ينضبط.

يمكن قبل التكبير أن يأخذ نفساً طبيعياً، ويسوي مكانه، ويعرف الصلاة التي يؤديها. لا يجعل التنفس طقساً لازماً ولا عدداً دينياً، إنما وسيلة عادية لتقليل العجلة.

18 | الله أكبر: ما الذي يصغر؟

التكبير إعلان أن الله أكبر من كل خاطر وحاجة ومهابة. لا تحي الدنيا من الذاكرة، لكنها توضع في قدرها حين يقف العبد بين يدي ربه.

وموضع الاستدلال هنا [الإسراء: 111].
خطوة قريبة: كلما نازع خاطر القلب، يعاد معنى التكبير بلا غضب على النفس ولا استرسال معها.

الله أكبر تعيد ترتيب العالم

تكبيرة الإحرام ليست إشارة بدء آية؛ هي إعلان أن الله أكبر من كل ما حمله المصلي إلى مقامه. لا تزعم أن المشكلات اختفت، لكنها تنقلها من مركز القلب إلى موضع العبودية: أمور كبيرة في حياة الإنسان، والله أكبر منها علماً وقدرة ورحمة. إذا قالها اللسان وبقي القلب يقدس شاغله، أعاد المصلي المعنى كلما شرد. لا يكرر التكبير من عند نفسه خارج موضعه طلباً لشعور، بل يستحضر دلالاته في التكبيرات المشروعة. كل انتقال يذكره أن الصلاة ليست استراحة من الواقع فقط، بل إعادة ترتيب له تحت ربوبية الله.

وبعد السلام يمتحن صدق التكبير: هل يطيع أمر الله إذا خالف ضغط الناس؟ هل يقدم الحق على هوى عاجل؟ هذه الأسئلة تكشف أن «الله أكبر» منهج قرار، لا عبارة وجدانية فحسب. ومن هنا يكون الخشوع قوة أخلاقية؛ لأنه يضع المخاوف والرغبات جميعاً تحت مقام العبودية.

الأصل القرآني: يجمع معنى التكبير بين قوله تعالى: {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} [المدر: 3]، وبين الأمر بتكبير الله تكبيراً [الإسراء: 111]. اللفظ في الصلاة توقيفي محفوظ، أما أثره في القلب فهو إعادة النسب إلى مواضعها: الحاجة موجودة، والموعد قائم، والخوف محسوس، لكن الرب أكبر من كل ذلك، وأمره مقدم عليه.

حد المعنى: لا يلزم من صدق التكبير أن تختفي الخواطر فوراً. قد يقول العبد «الله أكبر» ثم تطرق ذهنه معاملة أو خصومة؛ امتحانه أن لا يمنحها القيادة. يعود إلى القراءة والذكر، من غير أن يفتش في قلبه بعد كل كلمة أو يحكم على صلاته بالبطلان المعنوي. ومن النافع أن يسبق التكبير قرار واحد: هذه الدقائق لله، وما لا أستطيع حله الآن سأعود إليه بعد السلام. ليس هذا نذراً ولا صيغة تعبدية جديدة، بل تنظيم للانتباه. فإذا هجم الشاغل تذكر أن دخوله الصلاة لم ينكر الواقع، وإنما نقل السلطان من الواقع إلى أمر الله.

الأذان انتقال لا صوت خلفي

يفصل الأذان بين تدفق الأعمال وبين نداء الصلاة. وثبت في صحيح البخاري 1231 أن الشيطان يدبر عند النداء ثم يعود ليخطر بين المرء ونفسه ويذكره ما لم يكن يذكره، حتى يلتبس عليه عدد صلاته. لا يقدم الحديث وصفاً شاعرياً للشroud، بل يكشف خصومة واقعية ويصلها بعلاج فقهي عند السهو. ومن ثم لا ينبغي أن يتعامل المصلي مع تشوشه على أنه لغز نفسي محض أو دليل بطلان كل عبادته.

وظيفة الأذان أن يعلن أولوية جديدة. وإذا استمر الإنسان في مكالمة أو شاشة أو خصومة حتى لحظة الإقامة، دخل بدنه وبقيت بقية المشاهد تتزاحم في ذاكرته. ليس العلاج في كل مرة أن يطالب نفسه بالقفز الفوري إلى صفاء كامل؛ بل أن يعطي الانتقال زمناً ولو قصيراً: يغلق ما يستطيع إغلاقه، ويثبت ما يخشى نسيانه في موضع يرجع إليه، ويتوضأ، ويعرف إلى أين يذهب.

ولا يلزم من سماع الأذان أن تتوقف الأعمال كلها بالصورة نفسها؛ فالناس في سفر ومرض ومسؤوليات. المقصود بناء استجابة ضمن القدرة والحكم الشرعي. من كان في شأن لا يمكن قطعه هياً الخروج منه، ومن كان في أمر تافه لم يخترع له ضرورة. الخشوع هنا صدق ترتيب، لا مجرد انفعال بالنعمة.

العودة عند انخاطر جزء من العبادة. إذا جاءت مسألة العمل في الصلاة لم يدخل المصلي معها في نقاش، ولم يحاول سحقها بقوة تولد خاطراً ثانياً. يرد نفسه إلى ما يقرأ أو يذكر، فإن كان الخاطر متعلقاً بحق عاجل أداه بعد الصلاة. بهذه الممارسة يصير الأذان بداية تحرير للانتباه، لا خلفية مألوفة تمر على يوم لم يتغير. قول «الله أكبر» لا يبيح الهرب من الديون والمواعيد. الأشياء تصغر من جهة استقلالها وسلطانها على القلب، لكنها تبقى تكاليف. بعد الصلاة يعود الإنسان إلى واجبه بنظام أوضح، لا إلى إهمال متدين.

إذا كان عليه عمل عاجل يمكن إنجازه قبل الوقت فعل، وإذا دخل الوقت الواسع رتب، وإذا ضاق أدى الفرض. فقه الأولويات جزء من الخشوع؛ لأنه خضوع لحكم الله في الزمن، لا للانفعال.

وقد يكبر المرء وهو يحمل نزاعاً، فيذكر أن خصمه عبد الله مثله. لا يسقط حقه، لكنه يسقط وهم التفوق المطلق. هذه ثمرة صغيرة للتكبير يمكن أن تغير لغة النقاش.

التطبيق أن يربط كل تكبير بترك نوع واحد من الاسترسال، لا بإنكار الواقع كله. يقول الكلمة، ثم يعود إلى الذكر التالي. تراكم هذه العودة يربي القلب.

التكبير لا يلغي حجم الألم

النص الشرعي: قال تعالى: {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} [المدثر: 3]، وقال: {وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: 111]. الأمر بالتكبير يثبت العظمة لله، ولا يطلب من الإنسان أن ينكر ما يجده من ألم أو حاجة. المشكلات قد تكون كبيرة في ميزان الحياة، لكن لا شيء منها يخرج عن علم الله وقدرته وحكمته.

يسيء بعض الناس فهم التكبير حين يجعلونه مطالبة فورية بزوال الشعور. يقول لنفسه: إن كنت صادقاً فلا تحزن ولا تخف. وهذا تحميل للكلمة ما لم تدل عليه. الأنبياء دعوا واستعانوا وصبروا، وكانت لهم حاجات وآلام؛ ولم يناقض ذلك تعظيمهم لربهم. وظيفة التكبير أن يمنع الألم من التحول إلى إله يشرع لصاحبه، لا أن يمنعه من أن يكون ألماً.

حين يدخل المصلي وفي صدره خبر ثقيل، لا يلزمه أن يحو الخبر قبل التكبير. يكفي أن يقر أنه عبد في هذا الخبر: لا يظلم بسببه، ولا يترك فرضاً، ولا يقطع الرجاء، ويطلب العون. إذا بكى لم يجعل بكاءه معيار قبول، وإذا لم يبك لم يتهم قلبه لمجرد الجفاف. يعبد الله بما يستطيع في حاله الواقعة.

والتكبير يحفظ ترتيب السلطات. ضغط العمل ليس أكبر من الأمانة، ورضا الجمهور ليس أكبر من الحق، والخوف من الفقر ليس أكبر من حكم الحلال، والرغبة في الانتقام ليست أكبر من

العدل. هذه المقارنات لا تعطي جواباً فقهيّاً تفصيلياً لكل نازلة، لكنها تعيد السؤال إلى جهته: ماذا يريد الله مني الآن؟ ثم يطلب المرء العلم والمشورة ويأخذ بالسبب.

بعد السلام يعود إلى ألمه بمسؤولية أوضح. يستشير، ويعالج، ويطالب بحقه، أو يصبر حيث لا يملك التغيير. لا يقول: صليت إذن يجب أن أحصل فوراً على الصورة التي أريدها. الصلاة عبودية لا صفقة، والتكبير تحرير من عبادة النتيجة.

تطبيق: إذا غلب شاغل واحد على الصلاة، يسميه قبل الدخول في جملة عادية: «سأعود إلى هذا بعد السلام، والآن أؤدي فرض الله». لا يجعل الجملة ذكراً مخترعاً، بل ترتيباً ذهنياً. ثم يدون بعد الصلاة الخطوة الواقعية التالية، حتى لا يصبح ترك الاسترسال إهمالاً للحق.

19 | الفاتحة حوار عبد ورب

ثبت في الحديث القدسي تقسيم الصلاة بين الرب وعبد في الفاتحة؛ ومن وعى الجواب لم تعد السورة افتتاحاً آلياً. وموضع الاستدلال هنا صحيح مسلم 395a.

خطوة قريبة: التوقف اليسير عند رؤوس الآي مع فهم الحمد والاستعانة والهداية، دون إحداث هيئة مخالفة للصلاة.

دليل الباب - الحديث: في صحيح مسلم 395a يروي أبو هريرة أن الله تعالى قال في الحديث القدسي: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ثم جاءت إجابات الحمد والثناء والتمجيد والاستعانة وسؤال الهداية. هذا أصل عظيم في نقل الفاتحة من ألفاظ محفوظة إلى مناجاة واعية، مع إبقاء لفظ الحديث كما ورد وعدم إعادة صياغته على أنه قرآن.

حين يقول المصلي الحمد لله رب العالمين، لا يحتاج أن يطيل وقفة مخالفة لهدي الصلاة، لكنه يستطيع أن يعرف أنه يحمد رباً يسمع حمده. وحين يقول إياك نعبد وإياك نستعين، يعترف بغاية الطريق ووسيلته: العبادة لله، والعون منه. وحين يسأل الهداية لا يؤدي خاتمة السورة، بل يطلب أعظم حاجاته.

يبدأ إصلاح الفاتحة بتعلم معانيها الصحيحة، وضبط ألفاظها، وإعطاء كل آية حقها من الفهم من غير وسوسة. فإن شرد القلب

في آية عاد في التي بعدها. لا يقطع صلاته بحثاً عن كمال مفقود، بل يجعل كل جملة باب رجوع. وبذلك تتكرر مدرسة الفاتحة في اليوم حتى تصير معانيها زاداً خارج الصلاة أيضاً.

الفاتحة خطاب متبادل

الحديث الثابت: في صحيح مسلم 395a جاء الحديث القدسي في قسمة الصلاة بين الله وعبد، وبيان جواب الله على آيات الفاتحة. والمراد هنا تلخيص المعنى مع إحالة موضعه، لا إنشاء ألفاظ بديلة للحديث.

حين يعرف المصلي أن الفاتحة ليست مقدمة محفوظة فقط، يبطئ بما يحقق التلاوة الصحيحة والطمأنينة، ويصغي إلى المعنى. الحمد ثناء، والرحمة رجاء، وملك يوم الدين تذكير بالمآل، و«إياك نعبد وإياك نستعين» عهد وافتقار، ثم سؤال الهداية الذي لا يستغني عنه أحد.

لا يلزم أن يستحضر جميع الشروح في كل ركعة؛ كثرة الخواطر قد تصير شاغلاً آخر. يختار معنى واحداً واضحاً، ويتعلم الباقي على مهل. وإذا تكرر السؤال في اليوم لم يظنه تكراراً فارغاً، فحاجته إلى الهداية تتجدد، والطريق المستقيم يحتاج معرفة وثباتاً وتصحيحاً حتى الموت.

دليل الباب - الحديث القدسي: في صحيح مسلم 395a تقسيم الفاتحة بين الرب وعبده، وفيه الثناء والتمجيد، ثم إعلان العبادة والاستعانة، ثم سؤال الهداية. هذا الترتيب نفسه تربية: لا يبدأ العبد بعرض مطالبه، بل بمعرفة ربه وحمله؛ ولا يعتمد على نفسه بعد إعلان العبادة، بل يقول إنه يستعين؛ ثم يسأل ما تنفّر عنه صلاحات الدنيا والآخرة.

سؤال الصراط المستقيم لا يخص من لم يعرف أصل الدين، بل يتكرر على لسان المؤمن في كل ركعة؛ لأنه يحتاج إلى هداية العلم، وهداية الإرادة، وهداية الثبات، وهداية التفصيل في القرار الذي لم يتبين له. التكرار هنا ليس دليل فراغ، بل اعتراف بتجدد الحاجة.

ومن التطبيق أن يتعلم القارئ معنى كل مقطع، ثم يربط به موضعه من الصلاة: حمد، وثناء، وعهد عبادة، وطلب عون، وسؤال هداية. لا يطيل وقفات مبتدعة، ولا يحمل نفسه خواطر كثيرة. يكفيه معنى واضح واحد يعيده إلى المناجاة كلها غاب.

الفاتحة عهد عبودية قبل أن تكون استرسالاً شعورياً

النص النبوي: في حديث قسمة الصلاة بين الرب والعبد يجب الله حمد عبده وثناءه وتجيده، ثم يكون للعبد سؤاله [صحيح مسلم

[395a]. يربي الحديث المصلي على أن الفاتحة ليست مقدمة صوتية للركوع، بل مقام مخاطبة وعبودية وسؤال.

وصف هذا المقام بالحوار يقصد به ما أثبتته النص من جواب الرب على قراءة عبده، ولا يجوز اختراع أجوبة أو أحوال باطنية. يبدأ الخشوع في الفاتحة من معرفة وظيفة كل مقطع: حمد، وثناء، وتحميد، وإفراد بالعبادة والاستعانة، ثم دعاء بالهداية. وحين تضع هذه الوظائف قد يجري اللسان بالسورة كاملة والقلب لا يدري متى انتقل من الثناء إلى المسألة.

تطبيق: لا يحتاج المصلي إلى إبطاء مصطنع؛ يكفي أن يستحضر عند كل انتقال كلمة مفتاح: حمد، ملك، عبادة، هداية. فإن شرد عاد إلى الموضع الذي هو فيه ولم يعد الصلاة بدعوى فقد الشعور. أمر الله بالوضوء عند القيام إلى الصلاة [المائدة: 6]، فجعل للوقوف بين يديه تهيؤاً ظاهراً معلوم الهيئة. لا يحتاج المؤمن أن يخترع طقوساً نفسية حتى يشعر بأنه انتقل؛ في الشريعة باب عملي يبدأ منه. غسل الأعضاء ليس تمثيلاً للخشوع، لكنه طاعة تضع الجسد في طريق الصلاة وتقطع شيئاً من اندفاع اليوم.

وقد يتحول الوضوء نفسه إلى عادة سريعة لا يعي صاحبها ما يفعل، أو إلى ساحة وسواس يكرر فيها الغسل ويستنزف الزمن. كلا الطرفين يفسد وظيفة التهيؤ: العجلة تحو المهلة، والوسواس يجعل العبادة أسيرة الشك. الواجب أن يتعلم المرء صفة وضوئه من

مصدر معتبر، ثم يبنى على اليقين ولا يفتح باب الإعادة بلا موجب.

ليس مطلوباً أن يستحضر معنى جديداً عند كل قطرة، ولا أن يثبت دعاء لم يثبت. يكفي أن يعرف أنه يمثل أمر الله ويستقبل الصلاة بطهارة، وأن يحفظ الماء والوقت. وقد يكون من الخشوع في الوضوء ترك التوسع الذي يضر، كما يكون منه ترك الاستهانة التي تبقي النجاسة أو تمنع تمام الفرض.

ومن التطبيق أن يجعل الوضوء حاجزاً بسيطاً عن المشتت: يضع هاتفه في موضع لا يصحبه إلى كل حركة، ويقضي حاجته قبل أن يبدأ، ويمنح الأعضاء حقها بلا إسراف. فإذا انتهى لم يقل إن قلبه صار حاضراً قطعاً؛ يدخل مفتقراً، ويعلم أن السبب لا يخلق النتيجة. التهيؤ يفتح الباب، والفتح لله.

تجمع الفاتحة الثناء والعبودية والاستعانة وطلب الهداية. من فهم بنيتها لم يحتج أن يخترع خواطر كثيرة؛ ينتقل مع كلماتها من معرفة الرب إلى إعلان العبودية ثم إلى السؤال المركزي. هذا التسلسل يعيد ترتيب القلب في كل ركعة.

قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5] يجمع الغاية والوسيلة: لا عبادة بلا عون، ولا استعانة صادقة مع إصرار على ترك العبادة. وإذا شرد المصلي عندها عاد إلى حاجة واقعية يعرفها من نفسه.

وطلب الصراط المستقيم اعتراف بأن الهداية تحتاج تجددًا. من عرف الحق في مسألة لا يستغني عن الهداية في تطبيقها والثبات عليها. لذلك لا يقرأها العالم كمن أنهى الطريق، ولا المذنب كمن حرم الطريق.

يمكن تدريب الفهم بأخذ جملة واحدة خارج الصلاة من تفسير موثوق، ثم قراءتها في الصلاة بلا تكلف استحضار شرح طويل. العلم يسبق، والعبادة تستعمل خلاصة المعنى.

20 | الركوع: تعظيم

الركوع موضع تعظيم، وفيه تنحي الجوارح ويقر اللسان بعظمة الرب. اكتمال المعنى أن ينحي معه كبرياء النفس. وموضع الاستدلال هنا [الواقعة: 74].

خطوة قريبة: استحضار معنى التسبيح، وتسوية الظهر، والطمأنينة بقدر السنة.

تلخيص تعبدي: يجمع الركوع انحناء البدن وتسبيح الرب العظيم. فإذا وافق اللسان الجارحة والقلب، تذكّر العبد أن العظمة لله، وأن العلم والمال والمنصب لا ترفع صاحبها عن مقام العبودية.

الخشوع في الركوع لا يصنعه إطالة خارجة عن الهدى ولا تعذيب البدن، بل الطمأنينة وأداء الذكر المشروع وفهمه. يحذر المصلي من سرعة تحوله بين الأركان حتى تصير الصلاة سلسلة إشارات. يعطي الركوع زمنه، ثم يرفع كما علمه النبي صلى الله عليه وسلم.

وثمرّة الركوع تظهر خارج الصلاة في قبول الحق. من عظم ربه صعب عليه أن يستكبر عن اعتذار أو نصيحة صحيحة. ليست كل زلة دليل فقد الخشوع، لكن التواضع للحق ميدان يختبر فيه أثره. فإذا وجد نفسه يدافع عن خطئه لمجرد حفظ صورته، تذكر أن الجبهة والظهر انحنيا لله، وأن كرامته في الرجوع لا في المكابرة.

الركوع مقام تعظيم لا محطة عبور

من السنة: في صحيح مسلم 479a نهى النبي ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، ووجهه إلى تعظيم الرب في الركوع والاجتهاد في الدعاء في السجود. خص كل موطن بوظيفته، فليس تنوع الأذكار مجرد تبديل للألفاظ، بل انتقال بين معاني العبودية.

تعظيم الرب في الركوع لا يتحقق بانحناء الظهر وحده، ولا يحتاج إلى انفعال متكلف. يواطئ القلب لسانه بقدر استطاعته: ينزه الله عن النقص، ويعترف بعظمته، ويضع كبر النفس في موضعه. وإذا لم يجد حرارة الشعور لم يترك الذكر؛ صحة الاتباع باب يطرق منه حضور القلب.

ومن التطبيق أن يطمئن حتى تستقر الهيئة، وينطق التسبيح على وجه صحيح، ولا يبدأ الرفع قبل أن يعي ما قال. وليس المقصود حساب الثواني، بل إزالة العجلة. ركوع واحد وإع قد يعلم النفس أن العظمة لله أكثر مما تعلمها عبارات كثيرة خارج موضعها.

النص والهدي: دل حديث المسيء في صلاته في البخاري 757 ومسلم 397a على الطمأنينة في الركوع والاعتدال بعده. الركوع ركن له زمن وهيئة وذكر، وليس ممراً سريعاً إلى السجود. التعليم النبوي يجعل إصلاح الظاهر مدخلاً مشروعاً لحضور القلب.

الخلط الشائع: قد ينتظر المصلي شعور التعظيم قبل أن يمنح الركن زمنه، أو يعطيه زمناً طويلاً يطلب به الشعور قسراً. الطريق الأعدل أن يؤدي ما شرع بطمأنينة، ويفهم معنى التسبيح، ويترك أثر المعنى يأتي بفضل الله. لا يختصر الركن لأن القلب شارد، ولا يزيد هيئة من عنده ليعاقب نفسه على الشرود.

تطبيق: يلاحظ مرة واحدة اكتمال انحنائه وطمأنينته واعتداله، ثم ينقل انتباهه إلى معنى تعظيم الرب وتنزيهه. وإذا عرف خلافاً فقهياً تعلمه من مصدر معتبر. جمع العلم والمهلة والمعنى أرسخ من لوم عام لا يغير الحركة ولا القلب.

الجوع والحاجة البدنية ليسا امتحان بطولة

ثبت في صحيح مسلم 560a النهي عن الصلاة بحضرة الطعام الذي تتعلق به النفس، وعن الصلاة مع مدافعة الأخبثين. يعلم الحديث أن الطريق إلى الخشوع لا يمر دائماً عبر زيادة الضغط على الجسد. قد يكون الإصلاح أن يزيل الإنسان حاجة مشروعة قبل أن يقف، حتى لا ينازع بدنه كل كلمة وركن.

هذا لا يعني تقديم كل شهوة على الوقت، ولا تحويل الطعام إلى عذر دائم. النص نفسه يقرأ مع كون الصلاة كتاباً موقوتاً، فيوازن العبد بين أداء الصلاة في وقتها وبين إزالة الشاغل القريب. من

رتب طعامه بحيث لا يضيق عليه الوقت أخذ بسبب الحضور، أما من آخر كل شيء ثم جعل الازدحام عادة فلم يعالج أصل الخلل. وبتسع القاعدة التربوية لما يشبه ذلك من الحاجات الظاهرة: ألم يحتاج إلى وضع مناسب، وحر شديد يمكن تخفيفه، وملابس تضيق أو تؤذي، ودواء له وقت. لا يفتي الكتاب في التفاصيل، لكنه يرفض فكرة أن الخشوع لا يثبت إلا إذا انتصر المصلي على كل إشارة بدنية. الشريعة تعرف الإنسان جسداً وروحاً، وتعلمه أن يستعمل الرخصة أو السبب في موضعه.

التطبيق يبدأ قبل الأذان: لا يراكم الإنسان الحاجات حتى نتقدم كلها معه إلى الصف. وإذا عرضت حاجة لا يملكها لم يحكم على صلاته من شدة الإحساس وحدها؛ يؤدي ما يستطيع ويسأل عن حكم ما يشكل عليه. الخشوع ليس غياب الجسد، بل انتظامه في العبودية من غير أن يصير سيد الموقف.

الركوع هيئة تعظيم، وفيه تسبيح الرب العظيم. ينخي الجسد بأمر، لا أمام بشر ولا عادة. لكن القيمة ليست في الانحناء المجرد؛ يتعلم القلب أن رأيه وماله وقوته كلها تحت حكم الله.

الطمأنينة تمنع الحركة من التحول إلى عبور سريع. يقيم المصلي قدر الواجب والسنة بحسب علمه، ولا يجبس نفسه طلباً للحال. الإطالة لها مواضع وأحوال، والإمام يراعي من خلفه.

بعد الركوع يظهر الدرس حين يُدعى الإنسان إلى رجوع عن خطأ. من انحنى لله مرات ثم رفض الحق لأن قوله سبق، فله فرصة أن يصل ما تعلمه بما يفعل. لا نقول إن ركوعه باطل، بل إن ثمرته تحتاج نمواً.

تمرين عملي: عند خلاف صغير يتذكر أن الرجوع ليس إذلاً؛ الذل لله يحره من ذل الصورة. يقول: تبين لي الصواب، ويصحح.

21 | السجود: أقرب ما تكون

صح عن النبي ﷺ أن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأمر بالإكثار من الدعاء. القرب هنا يرابي الافتقار ولا يفتح باب وصف الكيفية.

وموضع الاستدلال هنا صحيح مسلم 482. خطوة قريبة: اختيار دعاء جامع ثابت أو مباح، وقوله بقلب يعرف حاجته.

دليل الباب - الحديث: ثبت في صحيح مسلم 482 قول النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثرُوا الدعاء». النص يحدد موطن قرب ويفتح فيه باب الدعاء، من غير أن يجعل السجود غياباً عن أحكام الصلاة أو مناسبةً لعبارات مخترعة تنسب إلى السنة.

السجود يجمع غاية انخفاض الجسد وغاية رفعة العبودية. تلامس الجهة الأرض، لكن القلب لا يذل للأرض؛ يذل لربه. ولذلك لا يكون معنى القرب إحساساً جسدياً أو حلولاً، بل قرباً يليق بالله كما دل النص، مع عبودية العبد ودعائه.

يهيئ المصلي دعاءً صحيح المعنى يعرفه، ويقول ما ثبت أو ما أذن فيه من خير الدنيا والآخرة بحسب أحكام موضعه. لا يطارد كثرة

الألفاظ. وقد يكون الدعاء الواحد الذي خرج من فقر صادق أنفع للقلب من قائمة طويلة يقرأها اللسان وحده.

السجود قرب ودعاء

الحديث الثابت: ثبت في صحيح مسلم 482 أن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وفيه الحث على الإكثار من الدعاء. هذا أصل واضح يربط غاية الخشوع بفتح باب المسألة.

السجود ليس حركة هبوط، بل موضع يضع فيه العبد أشرف أعضائه على الأرض لله، ثم يسأله. يجمع الذل والرجاء، ولذلك لا يختار المصلي أدعية معتدية ولا يحول السجود إلى قائمة غافلة. يتعلم الدعاء المأثور، ويسأل من خير الدنيا والآخرة بما يصح.

وقد يكون أقرب إصلاح للخشوع أن يعرف الإنسان حاجته قبل الصلاة. من دخل بلا سؤال واضح قد يجري لسانه ويغيب قلبه. أما من حمل هم هداية أو توبة أو حق لغيره، وجد في السجود باباً صادقاً. ومع ذلك لا يجعل حضور الشعور شرطاً للدعاء؛ يدعو لأن ربه أمر وفتح، ويكرر السؤال مع أدب وافتقار.

من السنة: دل صحيح مسلم 482 على قرب العبد من ربه في السجود والحث على الدعاء، وجاء في مسلم 479a توجيه الساجد إلى الاجتهاد في الدعاء. يلتقي الدليلان في معنى واحد: غاية

انخفاض الجسد ليست نهاية الحركة، بل فتح باب الافتقار والسؤال.

ضابط عقدي وتربوي: يثبت القرب كما جاء من غير خوض في كلفيته، ويحفظ العبد عبوديته؛ فلا يحول السجود إلى تجربة حسية يطاردها شعوراً معيناً. وقد يسجد بقلب منكسر ولا يبكي، وقد يجد لذة ثم تذهب. الثابت هو النص والعمل، أما الأحوال فتقبل وتشكر ولا تتخذ ميزاناً للقبول.

ومن التطبيق أن يحفظ أدعية صحيحة جامعة، وأن يعرف الحاجة التي يسألها، وأن لا يجعل السجود قائمة سريعة من المطالب. يسبح ويدعو في حدود أحكام الصلاة، ثم ينهض وقد حمل السؤال إلى العمل: من طلب هداية بحث عن الحق، ومن طلب عافية حفظ السبب، ومن طلب مغفرة ترك الذنب.

القرب في السجود يثمر سؤالاً منضبطاً

النص النبوي: ثبت أن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، مع الحث على كثرة الدعاء [صحيح مسلم 482]. وثبت النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، والأمر بتعظيم الرب في الركوع والاجتهاد في الدعاء في السجود [صحيح مسلم 479a]. كثرة الدعاء لا تعني التكلف في طول لا يطيقه المصلي أو من خلفه، ولا تحويل السجود إلى إعلان للمطالب. المقام يجمع الذل

والقرب والرجاء، ويظل محكوماً بأحكام الصلاة وبحق الجماعة. ومن فقه القرب ألا يجعل العبد تأخر مطلوبه علامة رد، ولا حضور الدمع شرطاً لقبول الدعاء.

تطبيق: يختار دعاءً جامعاً صحيح المعنى يلائم حاجته، ويقدمه بقلب مفتقر، ثم يقوم من سجوده إلى بقية الصلاة كما شرعت؛ فلا يتطلع المقصد بقية الأركان، ولا يقيس أثر السجود بالاستجابة العاجلة وحدها.

ثبت في صحيح البخاري 373 أن النبي ﷺ صلى في خميسة لها أعلام، فلما انصرف أمر بإبعادها وطلب ثوباً لا أعلام فيه لأنها ألهته عن صلاته. قوة الدلالة في بساطتها: ظهر شاغل محسوس، فعولج الشاغل. لم تتحول الحادثة إلى اتهام للعين أو إلى خطاب عام عن فساد القلب، ولم يحتفظ بالسبب ثم يطالب نفسه ألا تراه. يفتح الحديث باباً واسعاً في زمن نتكاثر فيه الصور والتنبيهات. قد لا يكون الهاتف هو المشكلة الوحيدة، لكنه مثال واضح على مشنت يقبل الإبعاد. إطفاء الشاشة أو تركها خارج مجال النظر سبب مشروع، وليس إعلاناً أن التقنية شر في ذاتها. وكذلك الزخارف والملفات المفتوحة والأشياء التي تنتظر قراراً: إن عُرف أثرها أمكن تقليل سلطانها.

لكن إزالة المرئي لا تضمن خلو القلب؛ قد يغلق الإنسان الهاتف ويحمل محادثته في داخله. لذلك يجمع العلاج بين الخارج

والداخل: يبعد ما يستطيع، ويكتب الحاجة العاجلة إن خشي ضياعها، ثم يرد قلبه عند عودتها. لا يتوقع أن يحو ذاكرته، ولا يستسلم لها بحجة أنها بقيت بعد إبعاد الجهاز.

ومن فقه الحديث ألا يحول الإنسان بيته إلى ساحة خصومة على كل لون ورسم، ولا يحكم على صلاة غيره من أثائه. يبدأ بما ثبت أنه يشغله هو، ويختار تغييراً قليل الكلفة، ويراقب أثره. إزالة المشتت خادمة للصلاة لا مشروع سيطرة على الناس.

في السجود يضع الإنسان أشرف أعضائه على الأرض امتثالاً، فيجتمع القرب والافتقار. لا يحتاج إلى إيذاء ركبته أو إطالة تفسد حق من خلفه ليثبت صدقه. المشروع يتبع السنة والاستطاعة.

الدعاء في السجود باب واسع، لكن المصلي يراعي ما يصح في صلاته وحاله. لا يحول السجود إلى قائمة مشتتة؛ قد يختار دعاءين ثابتين وحاجة حاضرة. القلة مع فهم خير من كثرة ينقطع معها القلب.

والقرب لا يساوي ضمان حصول الشعور. قد يسجد المبتلى وقلبه مثقل، وسجوده في هذه الحال عبودية عظيمة لأنه جاء رغم الألم. لا يطالب نفسه بنشوة حتى يصدق.

إذا قام من سجوده عاد إلى واجباته. القرب بالله لا يعزله عن الخلق؛ المفترض أن يجعله أقل كبراً وأسرع اعتذاراً.

22 | التشهد: سلام وعبودية

التشهد يجمع التحيات لله والسلام على النبي ﷺ وعلى عباد الله الصالحين والشهادة؛ فهو تجديد عبودية بعد انتقالات الصلاة. وموضع الاستدلال هنا صحيح البخاري 831. خطوة قريبة: فهم الألفاظ وحضور معنى السلام بدل عبورها إلى التسليم.

تلخيص تعبدي: يجمع التشهد التحيات لله، والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، والسلام على عباد الله الصالحين، والشهادتين، والصلاة على النبي. ينتقل القلب فيه من تعظيم الله إلى صلة الرسالة وجماعة المؤمنين، فلا يبقى الخشوع عزلة فردية. من قال السلام على عباد الله الصالحين ثم آذى الناس احتاج أن يصل ما يقوله بما يفعله. لا يعني ذلك أن كمال المعاملة شرط لصحة كل تأثر، لكنه يذكر بأن الصلاة تربي علاقة العبد بربه وخلقته معاً.

وفي آخر الصلاة تتكاثر الرغبة في الانتهاء، وهنا يظهر تدريب آخر: أن يحفظ المصلي النهاية كما حفظ البداية. لا يسرق التشهد بعجلة، ويتعلم ألفاظه الثابتة، ويفهم قدرها منها. ثم يسلم وهو يقصد الخروج من الصلاة على الوجه المشروع، لا مجرد العودة إلى

الهاطف. سلامه إعلان رجوع إلى العالم بقلب أخذ نصيبه من العهد.

التشهد يخرج العبد من فرديته

من السنة: في صحيح البخاري 831 علم النبي ﷺ أصحابه ألفاظ التشهد، وفيها التحيات لله، والسلام على النبي ﷺ، ثم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، والشهادتان. وبين أن السلام يبلغ كل عبد صالح في السماء والأرض. بهذا تتسع الجلسة الهادئة لتصل المصلي بجماعة العبودية كلها.

الخشوع ليس انغلاقاً على الإحساس الشخصي. في آخر الصلاة يعلن العبد التوحيد والرسالة، ويذكر الصالحين، فيخرج من عبادة الذات إلى عبادة الله مع الانتماء إلى عباده. ومن لم يشعر بشيء خارق لا يحرم هذا المعنى؛ يكفي أن يفهم أن ألفاظه حق وأنه داخل في جماعة الشهادة.

ومن التطبيق أن يتعلم التشهد كما ثبت، ويضبط ألفاظه، ويستحضر عند السلام على الصالحين أنه محتاج إلى طريقهم وصحبهم ودعائهم العام. ثم لا يناقض هذا السلام بأذى الناس بعد الصلاة؛ فالكلمة التي وسعت عباد الله ينبغي أن تضيق عن ظلم واحد منهم.

أصل محكم: ألفاظ التشهد الثابتة تبدأ بالتحيات لله، ثم السلام على النبي ورحمة الله وبركاته، ثم السلام على عباد الله الصالحين، ثم الشهادتين، ويعقب ذلك الصلاة على النبي والدعاء المأثور. هذا انتقال من حق الله إلى سلام الرسالة وجماعة العبودية ثم تجديد الشهادة.

الخشوع في التشهد ليس انطواءً فردياً؛ المصلي يذكر عباد الله الصالحين وهو في خلوة الصلاة، فيتسع قلبه لجماعة الإيمان. ولا يزداد في الألفاظ التعبدية معنى مخترع أو صيغة غير ثابتة بقصد تحسين الوجدان. إنما يفتح المعنى من داخل اللفظ المحفوظ: كل تحية لله، وكل نجاة منه، والشهادة عهد يتجدد.

تطبيق: إذا بلغ المصلي السلام على عباد الله الصالحين، استحضر أنه واحد من أمة نتعبد، وأن صلاحه لا يبنى باحتقار غيره. ثم ينتقل إلى الدعاء من غير استعجال للخروج قبل تمامه.

البصر يتأدب من غير تكلف هيئة

جاء الوعيد في صحيح مسلم 428 في رفع البصر إلى السماء في الصلاة، وثبت في صحيح البخاري 751 وصف الالتفات بأنه اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد. هذان الأصلان يبينان أن الجارحة ليست خارج باب الحضور: اتجاه البصر وحركته قد يفتحان أبواباً للخاطر أو يغلقان بعضها.

ومع ذلك لا يصح تحويل النظر إلى موضع السجود إلى مراقبة عصبية تستهلك الصلاة. المقصود أدب واستقرار، لا أن يبقى المصلي يقيس زاوية عينه. يتعلم الحكم والهيئة، ثم يترك الجارحة تستقر ويصرف الاهتمام إلى المعنى. وإذا غلبه التفات عارض عاد، ولم يبن عليه حكماً شاملاً على قلبه.

يتسع أثر البصر لما قبل الصلاة. العين التي تنتقل دقائق طويلة بين المقاطع والصور تحتاج إلى زمن لتسكن؛ وليس من العدل أن يصنع المرء هذا التابع ثم يصف نفسه بالعجز الخلقي عن الحضور. تقليل السرعة قبل الصلاة علاج للذاكرة البصرية، كما أن غض البصر في اليوم كله حماية للقلب من مواد تعود في موضع لا يريد لها.

التطبيق ليس عددًا ولا طقسًا: يختار المصلي آخر دقائق قبل الصلاة بلا تصفح إن استطاع، ويجعل مكان سجوده واضحاً غير مزدحم، ثم يدخل. وإذا جاءته صورة قديمة لم يتابعها ولم يجلد نفسه بسبب ورودها؛ يستعيد ويرجع. التهذيب يجمع الوقاية والعودة، ولا يطلب عصمة الخاطر.

ينتقل المصلي من تسبيح العظيم في الركوع إلى حمده عند الرفع. هذا الانتقال يريه على أن التوفيق للطاعة نفسه نعمة تستحق الحمد؛ لم يقم بقوته المستقلة، ولم ينحن بفضل ذاتي. كل حركة تمت بعون الله ثم جاءت الكلمة لترد الفضل إليه.

الحمد هنا لا يحتاج إلى إحساس بالإنجاز. قد يكون المصلي مشتتاً ومع ذلك يقول الذكر المشروع صادق القصد بقدر استطاعته. لا يترك الحمد لأنه يرى عبادته ناقصة؛ بل يحمّد على أصل الهداية ويستغفر من النقص.

وفي الحياة يتكرر المعنى بعد كل مهمة. بدل أن ينسب النجاح كله إلى تخطيطه، يشكر الله ويذكر من ساعده ويصحح ما بقي. التواضع لا يحو السبب البشري؛ يضعه في منزلته. إذا أثنى الناس على عمله لم يلزم أن يرفض كل ثناء بطريقة مصطنعة. يقبله بأدب، وينسب الفضل، ولا يجعل المدح وقوداً لاحتقار غيره. هكذا يمتد الحمد من الركعة إلى الخلق.

23 | بعد السلام: ماذا بقي؟

لا ينتهي أثر الصلاة عند التسليم؛ شرع الذكر بعدها، ويبقى الامتحان في حفظ القلب والعمل مما نهت عنه الصلاة. وموضع الاستدلال هنا [النساء: 103].

خطوة قريبة: دقائق قليلة للأذكار الثابتة ثم ملاحظة أول موقف أخلاقي بعد الصلاة.

الحديث الثابت: ثبت في صحيح مسلم 591 أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال الذكر المأثور: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام». ثبوت الاستغفار عقب الصلاة يعلم العبد ألا يغتر بعمله.

قد يظن المصلي أن السلام نهاية المحاسبة، لكن الاستغفار يفتح مراجعة رفيقة: عبد أدى ما قدر عليه ويعرف نقصه، فيطلب المغفرة بدل أن يمين على ربه. هذا المعنى يحمي الخشوع من العجب كما يحمي من اليأس؛ العمل موجود والنقص موجود، والباب مفتوح.

ثم يخرج أثر الصلاة إلى أول موقف بعدها. إن كان في البيت حفظ لسانه، وإن كان في العمل أدى أمانته، وإن عاد إلى شاغله عاد بميزان جديد. لا يحتاج إلى ادعاء تحول كامل بعد كل

صلاة؛ يكفي أن يحمل منها تصحيحاً واحداً. ومع تكرار الصلوات تتراكم التصحيحات حتى يصير الذكر خلقاً.

الاستغفار بعد الصلاة يحرسها من العجب

من السنة: ثبت في صحيح مسلم 591 أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من صلاته استغفر ثلاثاً، ثم قال الذكر الثابت: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام»؛ والعدد واللفظ هنا منقولان في موضعهما، فلا يحتاجان إلى زيادة مخترعة.

محيي الاستغفار بعد عبادة عظيمة يربي القلب على رؤية النقص لا على إنكار العمل. المصلي لا يقول إن صلاته لا قيمة لها، ولا يضمن لها الكمال؛ يعترف بأن أدائه محتاج إلى عفو الله، ثم يثني على ربه. وهكذا يجتمع الرجاء والانكسار.

ومن التطبيق أن لا يقفز من التسليم إلى الهاتف أو الحديث ما دام قادراً على الذكر المشروع. يستغفر بهدوء، ويراجع خلاً واحداً بلا وسواس: عجلة في ركن، أو شرود سببه معلوم، أو حق سيصلحه. ثم ينصرف إلى يومه؛ فلا استغفار جسر إصلاح، لا محكمة يعيد فيها الصلاة في خياله مرة بعد مرة.

النص النبوي: كان النبي ﷺ يستغفر ثلاثاً بعد الصلاة ويقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام»

[صحيح مسلم 591]. مجيء الاستغفار عقب العبادة يعلم أن تمام العمل لا يلغي رؤية النقص، وأن السلامة فضل من الله. لا يحفظ أثر الصلاة بكثرة الالتفات إلى مقدار الخشوع فيها، بل بعبور منظم من العبادة إلى الحياة. قد يفسد الإعجاب لحظة حضور صادقة، وقد يصلح الاستغفار فتوراً وقع رغم المجاهدة. وما بعد السلام ليس زمناً للحكم النهائي على القلب؛ هو باب شكر واستغفار واستعداد للفرض العملي التالي.

تطبيق: قبل أن ينشغل المصلي بهاتفه أو حديثه، يؤدي الذكر الثابت، ثم يراجع حقاً قريباً حملته الصلاة عليه. فإن لم يجد انفعلاً، لم يهجر الذكر؛ الثبات على المشروع أصدق من مطاردة الشعور.

الوسواس عدو معلوم لا هوية المصلي

شكا عثمان بن أبي العاص إلى النبي ﷺ أن الشيطان حال بينه وبين صلاته وقراءته ولبسها عليه، فأرشده إلى الاستعاذة والتفل عن اليسار ثلاثاً؛ وذلك في صحيح مسلم 2203a. وثبت في صحيح البخاري 1231 أن الشيطان يذكر المصلي أشياء لم يكن يذكرها حتى يلبس عليه عدد الركعات. يخرج هذان الحديثان الشرود من دائرة العار الصامت إلى دائرة المشكلة التي تعالج بالهدي.

لا يعني ذلك أن كل خاطر شيطان على وجه الجزم؛ من الخواطر ما تصنعه الذاكرة والحاجة والقلق والعادة. لكن وجود الوسوسة ثابت، والعلاج النبوي ثابت في موضعه. يلتزم المصلي لفظ الاستعاذة والكيفية كما جاءت عند تحقق الحال، ولا يزيد طقوساً ولا يكرر حتى تتحول الوسيلة نفسها إلى وسواس.

والتمييز مهم بين خاطر عابر وبين اضطراب قهري يستهلك حياة الإنسان وعبادته. الكتاب لا يشخص، ولا يجعل العلاج الروحي مانعاً من سؤال مختص موثوق عند الحاجة. قد يجتمع تعليم أحكام الشك مع رعاية نفسية، ولا يطعن ذلك في الإيمان. كما لا يجوز لمن حول المصاب أن يختزل معاناته في كلمة «ضعف يقين» بلا علم.

عملياً، يقاوم الإنسان الاسترسال لا مجرد الورود. يعود إلى الآلة أو الذكر الذي هو فيه، ويبني على اليقين في مسائل السهو بحسب الحكم الذي تعلمه. وبعد الصلاة ينظر في الأسباب المتكررة: نوم، منبهات، صراع، دين، أو محتوى. علاج السبب لا يناقض الاستعاذة؛ كلاهما افتقار وأخذ بالسبب.

بين سجدتين يقف العبد في جلسة قصيرة يسأل المغفرة والرحمة والهداية والجبر وفق ما ثبت من الدعاء. موضعها يعلم أن العبادة ليست سلسلة إنجازات؛ بين خضوع وخضوع حاجة إلى جبر. لا ينهض القلب من السجود مستقلاً، بل يسأل ما يصلحه.

ومعنى الجبر لا يقتصر على إزالة ألم نفسي، بل يشمل إصلاح النقص وإغناء الفقر وهداية الخيرة. قد يأتي الجبر في صورة قوة على احتمال لا في زواله الفوري. لذلك لا يحصر المصلي الإجابة في شعور واحد.

الطمأنينة في الجلسة تحفظها من أن تكون قفزة بين سجدتين. يستقر بقدر الحكم، ويقول ما تعلم، ولا يطيل على جماعة بغير هدي. التوازن بين الحق والرفق جزء من العبادة. بعد الصلاة يستطيع أن يترجم طلب الجبر إلى سبب: علاج، اعتذار، تعلم، أو طلب مشورة. من سأل الإصلاح ثم رفض كل وسيلة متاحة احتاج أن يراجع معنى الاستعانة.

24 | صلاة واحدة نبدأ بإصلاحها

إصلاح الخمس مقصد، لكن البداية العملية قد تكون بصلاة يتيها لها المرء أكثر، ثم ينقل ما تعلمه إلى بقية يومه. وموضع الاستدلال هنا [العنكبوت: 45].

خطوة قريبة: اختيار صلاة واحدة أسبوعاً للتهيؤ المبكر وفهم القراءة وتقليل الشواغل، بلا اعتقاد خصوصية لم يثبت بها دليل. الحديث الثابت: ثبت في صحيح البخاري 6464 أن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل، مع الأمر بالسداد والمقاربة. يستفاد منه أصل الدوام والاعتدال، لا اختراع عدد مخصوص أو برنامج تعبدى موقوت.

تطبيق: بدل قرار فضفاض بأن يخشع في كل صلاة من الآن، يختار المصلي فرضاً واحداً يعتني بتهيئته وفتحته وسجوده أسبوعاً، مع حفظ الفرائض كلها. بعد كل مرة يدون في ذهنه أو ورقة: ما الشاغل الأكبر؟ وما المعنى الذي حضر؟ وما التعديل القريب؟ ثم ينقل ما تعلمه تدريجياً إلى بقية الصلوات.

السداد يمنعه من انتظار الكمال، والمقاربة تمنعه من الاستسلام للنقص، والدوام يبني ما لا تبنيه الحماسة القصيرة. فإذا انقطع عاد من غير مسرحية جلد الذات. النجاح هنا ليس أن يدعي قلباً

حاضراً دائماً، بل أن يثبت على أسباب صحيحة، ويتوب من التقصير، ويظل باب الصلاة أحب الأبواب إلى إصلاحه.

إصلاح صلاة واحدة مختبر لا غاية نهائية

من السنة: في صحيح البخاري 6464 أن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل. يستفاد منه في بناء العادة، لا في تخصيص صلاة بفضيلة لم ترد. اختيار صلاة يبدأ بها المتعلم وسيلة تنظيمية، والواجب يبقى متعلقاً بالصلوات كلها.

يختار المرء الصلاة التي يستطيع أن يحسن مقدماتها غالباً، فيتقدم لها، ويفهم سورتها وأذكارها، ويراقب موضع العجلة. فإذا استقرت الخطوات نقلها إلى غيرها. لا يجعل أسبوع التدريب عذراً لإهمال بقية الصلوات، ولا يحول الخطوة إلى عدد تعبدي.

ويكتب بعد الصلاة ملاحظة عملية قصيرة: ما الشاغل الأشد؟ أي معنى أعادني؟ ما التعديل الممكن قبل الغد؟ لا يقيم مشاعره من عشرة، ولا يطلب ضمان القبول. المقصود تعلم الأسباب مع دوام الافتقار؛ فالصلاة ليست تجربة أداء، لكنها عبادة ينتفع صاحبها بالمراجعة المنضبطة.

للخشوع قبل العبادة وأثناءها وبعدها. قبلها تهوئ يقطع المشتت ويصحح الحق؛ وأثناءها حضور يجاهد العجلة والشroud؛ وبعدها أثر يظهر في اللسان والمال والمعاملة. التركيز على الزمن الأوسط

وحده يجعل الخشوع إحساساً معلقاً داخل الصلاة، مع أن القرآن يضعه في سياق منظومة: خشوع وإعراض عن اللغو وزكاة وعفة وأمانة ومحافظة [المؤمنون: 1-11].

قبل الصلاة قد يكون أعظم الإصلاح رد رسالة واجبة أو إيقاف خصومة أو أداء وضوء بلا استعجال. ليس معنى ذلك أن يفتح المرء كل ملفات حياته عند الأذان، بل أن لا يصنع بيده فوضى ثم ينتظر من التكبير أن يحو آثارها فوراً. أثناء الصلاة يعطي الركن حقه ويعود كلها شرد، ولا يحول العودة إلى محاكمة طويلة. وبعد السلام يحفظ الذكر المشروع ثم يحمل معنى واحداً إلى يومه. هذا التقسيم يمنع كذلك الإحباط. من لم يجد حرارة في الزمن الأوسط قد يكون قد صدق في التهيؤ أو حمل ثمرة إلى الخارج؛ فلا يحتقر ما وفق إليه، ولا يزعم كمالاً. ومن بكى في الصلاة ثم ظلم بعدها يعرف موضع الخلل من غير أن ينكر النعمة كلها. الغاية اجتماع الأزمنة على قدر الاستطاعة، مع اعتراف دائم أن القبول والقلوب بيد الله.

إصلاح صلاة واحدة تدريب لا عقد ضمان

المعنى الحاكم: اختيار صلاة يركز فيها المتعلم ليس تخصيصاً شرعياً ولا تفضيلاً لعبادة على أخرى؛ هو وسيلة تربوية لضبط الانتباه

والتعلم، مع بقاء الصلوات كلها واجبة الحقوق. فائدته تحويل الرغبة العامة إلى موضع يمكن مراجعته.

الخلط الشائع: قد يجعل الإنسان الخطأ شرطاً: إن نجحت الصلاة المختارة حكم على نفسه بالتقدم، وإن شرد فيها ترك المشروع كله. وقد ينقل عنايته إليها ويهمل غيرها. الخطأ الصحيحة تقرب التعلم ثم تعممه، ولا تمنح نتيجة واحدة سلطة على الحكم على القلب.

تطبيق: يختار في الصلاة موضعاً واحداً: الدخول، أو الفاتحة، أو الركوع، أو السجود. يتعلم معناه قبلها، ويزيل شاغلاً معروفاً، ثم يراجع بعد السلام ما حدث بلا تهويل. في المرة التالية يعدل سبباً واحداً. القياس هنا للتعلم، لا لإصدار شهادة قبول أو بطلان. يبدأ الدخول في الصلاة بقول «الله أكبر». لا يحتاج المعنى إلى مبالغة تقول إن كل شيء صار صغيراً على الإطلاق؛ الحقوق تبقى، والمرض يؤلم، والدين يجب أدائه. الذي يتغير هو النسبة: لا شيء أكبر من الله، ولا يملك الخاطر أن يحتل مقام المعبود وإن كان مهماً.

وقد يردد اللسان التكبير بينما يستمر القلب في ترتيب رسالة أو خصومة. لا يرد ذلك بإهانة نفسه، بل بإعادة المعنى: هذا الأمر تحت علم الله وقدرته، ولي فيه تكليف أعود إليه بعد الصلاة، أما

الآن فأنا مأمور بهذه الوقفة. بهذا لا تصبح الصلاة إنكاراً للواقع، بل وضعاً للواقع في موضعه.

قال الله لموسى: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: 14]. يسبق الأمر بالصلاة تعريف الرب وتوحيده، وتأتي إقامتها للذكر. كلما عرف المصلي من يكبره صار التكبير معنى، وكلما ضعف العلم صار اللفظ أحوج إلى تعلم وتدبر. التطبيق أن يحدد قبل الصلاة القضية التي تفتحم قلبه، ويعطيها جملة تكليف: «سأعود إليها بسبب مشروع بعد السلام». ثم يكبر ولا يفتح ملفها من جديد. إذا عادت أعاد الرد نفسه بلا مناظرة طويلة. لا يضمن ذلك زوال الخاطر، لكنه يمنع أن يصير صاحبه تابعاً له في كل دورة.

في التشهد تحيات وشهادة وصلاة على النبي ﷺ. بهذا لا تبقى الصلاة تجربة فردية يصوغها المصلي حسب مزاجه؛ هي عبادة متلقاة، وصلتنا بطريق الرسالة. الخشوع يتضمن الوفاء للاتباع، لا البحث الدائم عن صيغة أشد تأثيراً.

الشهادة توحد الوجهة وترد القلب إلى أصل الإسلام. والصلاة على النبي ﷺ تربي المحبة المتبعة: تعظيم بلا غلو، واقتداء بلا ادعاء عصمة لأحد بعده. من أحب سنته حفظ ألفاظها ولم يغيرها لتحسين الأسلوب.

وقد يعتاد اللسان التشهد حتى يسبق المعنى. العلاج ليس إلغاء العادة؛ التكرار مقصود. يراجع المصلي معنى جملة خارج الصلاة، ثم يدع العلم يضيء اللفظ بقدر ما يفتح الله. لا يحمل نفسه حضوراً تفصيلاً في كل حرف.

وفي نهاية الصلاة يتهياً للسلام، فيخرج من عبادة منظمة لا من موجة شعور. هذا التنظيم رحمة؛ يعطيه طريقاً حين تضعف المشاعر.

الباب الرابع: من هدي النبي ﷺ

25 | بكاءه ﷺ في الصلاة

ورد وصف لصوت النبي ﷺ في الصلاة من البكاء؛ والمقصود الاقتداء بصدق الخشية، لا تقليد الصوت ولا طلب ظهور الأثر. وموضع الاستدلال هنا سنن أبي داود 904.

خطوة قريبة: ترك التكلف، وفتح القلب لمعاني الآيات والدعاء. دليل الباب - الحديث: روى أبو داود (904) عن عبد الله بن الشَّخِير أنه رأى النبي ﷺ يصلي وفي صدره أزيز من البكاء، وصححه الألباني. والنص يثبت البكاء في الصلاة، لكنه لا يقدمه أداءً مطلوب الشكل ولا صوتاً يتعمده المصلي.

البكاء ثمرة قد يحضر وقد يغيب. هدي النبي ﷺ هنا يعلم صدق التأثير مع بقاء الصلاة؛ لم يحول المشهد إلى خطاب للناس، ولم يخرج الخشوع عن نظام العبادة. فمن بكى حفظ صلاته وإخلاصه، ومن لم يبك لم يتصنع الصوت، وسأل الله قلباً حياً.

ويصح أن تكون قلة البكاء باب محاسبة، لكنها لا تتحول إلى حكم قاطع على القلب. الناس يتفاوتون في الطباع، والعبرة بمجموع الدلائل. قد يلين قلب إنسان فيحمله ذلك على توبة خفية لا تظهر في عينه، وقد تسبق دمعة ثم لا يتغير السلوك. الميزان وحي وعمل، لا صورة منفردة.

الدمع شاهد لا مقصد مستقل

وفي سنن أبي داود (904) أن النبي ﷺ صلى وفي صدره أزيز من البكاء، وقد صححه الألباني. والقدر الثابت يصف أثراً وقع، ولا يأمر المصلي بصناعة صوته أو استدعاء دمعة يراها الناس.

الخشية أوسع من البكاء؛ قد تظهر في دمعة، وقد تظهر في توبة أو إنصاف أو ترك معصية خفية. لذلك لا يجعل المرء جفاف عينه حكماً نهائياً على قلبه، ولا يجعل الدمع شهادة تزكية. يفتح أسباب الرقة بفهم القرآن والدعاء الصادق، ثم يفوض الأثر إلى الله.

وإذا حضر البكاء حفظ المصلي ألفاظ صلاته وطمأنينتها، وخفض صوته ما استطاع، ولم يراقب وقع المشهد في الآخرين. وإذا غاب، بقي له أصل العبودية: صلاة صحيحة، وقلب يجاهد، ولسان يستغفر. الصدق هو المقصود، لا إعادة تمثيل صورة وردت في خبر.

من السنة: أثبت سنن أبي داود 904 بكاء النبي ﷺ في الصلاة على الوجه الذي نقل، ولم يجعل الحديث صوت البكاء تكليفاً عاماً ولا علامة وحيدة للخشوع. لذلك يذكر الخبر بقدره، ويفصل بين ثبوت الفعل وبين استنباط الناقل من دلالاته.

موازنة: قد يحاسب الإنسان نفسه إذا طال عليه الأمد، لكن لا يفتش عن دمعة ليثبت صلاحه. اختلاف الطباع والأحوال لا

يبيح الحكم على البواطن. المعتبر أن يحمل سماع القرآن على التعظيم والتوبة والعمل، وأن لا تتحول الرقة إلى عرض أمام الناس. ومن التطبيق أن يقرأ بتمهل وفهم، ويغلق أسباب الاستعراض، ولا يرفع صوته بالبكاء متعمداً. فإن غلبه التأثير حمد الله وحفظ صلاته، وإن لم يبك سأل قلباً حياً ولم يتصنع. صدق الرجوع بعد الآية أرسخ من أثر ينتهي بانتهاء المجلس.

الدمع رحمة لا تكليف مصطنع

الأصل: ثبتت نصوص في بكاء النبي ﷺ في الصلاة وقراءته، واستعملت أصولها في سجل الحديث المصاحب. المقصود أن الدمع أثر مشروع إذا غلب صاحبه، لا أن المصلي مأمور بصناعته أو بعرضه. وما لم يثبت من وصف الصوت أو المقدار لا يزداد في القصة.

الخلط الشائع: قد يظن الإنسان أن جفاف عينه يبطل خشوعه، فيستدعي حزناً أو يراقب وجهه. وقد يتخذ سهولة البكاء دليل فضل. الطبائع والأحوال تتفاوت، والدمع لا يكشف وحده ما بعده. المعيار الذي يملكه العبد هو الصدق واتباع النص وأثر العبادة في الحق.

تطبيق: إن جاء الدمع كتم ما استطاع من عرضه وحمد الله، وإن لم يأت لم يترك القراءة. يسأل عن الفهم والتوبة والرحمة

بالخلق. وقد يحتاج من يمر بحزن شديد إلى رفق وعلاج، فلا يستغل الكتاب ألمه ليطالبه بمزيد بكاء. الخشوع رحمة وانقياد، لا مسابقة في العلامات الظاهرة.

في حديث قسمة الفاتحة في صحيح مسلم 395a بيان مناجاة العبد لربه في أم الكتاب. لا يعني هذا أن المصلي يسمع جواباً حسياً أو يتخيل مشهداً، وإنما يؤمن بالخبر ويقرأ وهو يعرف أن الحمد والثناء والعبادة والاستعانة والسؤال ليست عبارات مرسلة في فراغ.

سرعة القراءة قد تأتي من عادة اللسان، وقد تأتي من خوف التأخر، وقد تكون طبيعة تحتاج إلى تهذيب. الإصلاح لا يكون بتقطيع غير مشروع أو تكلف نبرة؛ بل بإقامة الحروف على قدر العلم، والوقوف حيث يصح، وفهم أصل المعنى. ليس شرطاً أن يستحضر كل التفاسير في كل ركعة؛ يكفي معنى صحيح حاضر يتسع مع التعلم.

وإذا كان المصلي وراء إمام فله أحكام القراءة والإنصات التي يسأل عنها، ولا يحول لحظة الصلاة إلى درس خلاف. يتهياً بالعلم قبلها، ثم يعمل بما ترحح عنده أو بما يفقيه من يثق بعلمه. الخشوع لا يلغي الفقه، والفقه لا ينبغي أن يصبح مادة خصومة داخل العبادة.

من التدريب أن يختار معنى واحداً من الفاتحة قبل الصلاة: الحمد، أو الربوبية، أو الرحمة، أو الدينونة، أو العبودية والاستعانة، أو طلب الهداية. يقرأ السورة كاملة ولا يحبسها في الكلمة المختارة، ثم يرى كيف يرافقه المعنى. في يوم آخر يتعلم غيره. هكذا يتسع الحضور بلا ادعاء إحاطة.

يسلم المصلي عن يمينه وشماله كما شرع، فتعود صلته بالعالم من باب السلام. لا يعني ذلك أن كل نزاع انتهى، لكن عليه أن يحمل من صلاته قدراً من كف الأذى والعدل. من قال السلام ثم بدأ ظهماً مباشراً واجه تناقضاً يحتاج إلى توبة.

والسلام لا يقتضي مصافحة لازمة بعد كل فريضة ولا طقساً لم يثبت. يكفي ما شرع، ثم تأتي الأذكار والحقوق. تميز السنة من العادة يحفظ الخشوع من أن يرتبط بما لم يلزم الله به.

قد يخرج المصلي ولا يزال متعباً أو غاضباً. لا يزعم أن الصلاة لم تنفع؛ يسأل ما الذي يستطيع منعه الآن: كلمة جارحة، قرار متسرع، رسالة يندم عليها. أحياناً يكون أثر الصلاة تأجيل الأذى حتى يهدأ.

وهكذا لا يقاس السلام بشعور الصفاء وحده، بل بقدر الأمان الذي يمنحه الإنسان لمن حوله. كل صلاة فرصة جديدة، لا صك كمال.

26 | قيام الليل حتى تنفطر القدمان

لما سئل عن قيامه حتى تنفطر قدماه قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». فخشوعه عبودية شكر، لا مجرد حزن. وموضع الاستدلال هنا صحيح البخاري 4836. خطوة قريبة: تحويل النعمة إلى ركعات يسيرة ثابتة بحسب الطاقة.

دليل الباب - الحديث: ثبت في صحيح البخاري 4836 أن النبي ﷺ قام من الليل حتى تورمت قدماه، ولما ذكر له ما غفر الله له قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». يبين الحديث أن طول القيام كان شكراً، لا طلباً لمدح ولا اعتراضاً على حاجة الجسد. الشكر يغير نظرة العبد إلى النافلة؛ لا يؤديها لأنه ضمن قبولها أو لأنه أفضل من غيره، بل لأنها استجابة لنعمة لا يحصيها. ومع ذلك لا يستنسخ المرء مقداراً فوق طاقته يقطعه عن الفرائض والحقوق. هدي العبادة يجمع الاجتهاد والحكمة. ومن أراد بدايةً فليحفظ قدراً صغيراً ثابتاً، ويزد حين يقوى، ويخفف عند عارض معتبر. التدرج ليس فتوراً إذا كان يحفظ الاستمرار، كما أن الكثرة ليست خشوعاً إذا أورثت عجباً أو أضاعت واجباً. معنى «عبداً شكوراً» أوسع من عدد الركعات؛ يظهر في الافتقار وحسن استعمال النعمة.

الشكر الذي يعرف الطاقة

وفي الحديث: في صحيح البخاري 4836 قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، وعلى ذلك بكونه عبداً شكوراً. يربط الحديث الاجتهاد بالشكر، ولا يحوله إلى منافسة جسدية أو تكليف للناس بمقدار واحد.

النافلة شكر حين تحفظ الفرائض والحقوق، وحين لا تتحول إلى إعجاب بالنفس. من كان في بداية الطريق قد يكون شكره في ركعتين ثابتتين، ومن قوي زاد بما يوافق الهدى. لا يحتقر القليل الصادق، ولا يحتج بالتدرج لتأجيل البداية.

ويظهر شكر الصلاة في النهار كذلك: يحفظ العبد النعمة من الحرام، ويعين بها غيره، ويعترف بفضل الله. قيام الليل ليس جزيرة منفصلة عن الأخلاق؛ إن أورث تواضعاً ورحمة كان أثره أقرب، وإن أورث تعالياً احتاج صاحبه إلى مراجعة قلبه وإن طال وقوفه.

الدليل المحوري: يثبت صحيح البخاري 4836 قيام النبي ﷺ حتى ظهر أثره في قدميه، وبيانه أن ذلك من الشكر. وجه الدلالة أن النافلة جواب محبة وامتنان، لا صفقة يطالب العبد بنتيجتها، ولا مسرحاً للباهة بالمشقة.

حد الاقتداء: الاقتداء لا يعني نسخ المقدار نفسه مع اختلاف الطاقة والواجبات. من أضاع فريضة أو حق أسرة أو أمانة عمل

بسبب برنامج لم يطق، فقد اختل ميزانه. ومن حافظ على ركعتين صادقتين ثم زاد بالتدرج دخل باب الدوام من وجه أقرب. ويصلح أن يبدأ بقيام يسير في وقت يقدر عليه، مع نوم يحفظ واجباته، ثم يراقب ثمرة العبادة في النهار: أزداد شكره وحلمه، أم أورثه ضيقاً وعجباً؟ المشقة ليست مقصداً مستقلاً، والشكر لا يقاس بالألم وحده؛ يقاس بصدق العبودية واستقامة الحقوق.

قيام الشكر بين القدرة والدوام

النص النبوي: ثبت في صحيح البخاري 4836 عن المغيرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه، فلما ذكر له ما غفر الله له قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». يفسر الحديث طول القيام بالشكر، ولا يجعله طلباً للمشقة لذاتها. العبارة النبوية تضبط وجه الاستدلال: النعمة تفتح باب العبادة، والعبادة جواب محبة وشكر لا اعتراض على المغفرة.

لا يجوز نقل مقدار عمل النبي ﷺ إلى كل بدن من غير فقه القدرة والحقوق. كان قيامه هدياً كاملاً له، أما المقتدي فيعرف سنة العبادة وسعة الشريعة وحال بدنه. ليس من الشكر أن يضر الإنسان نفسه أو يضيع فريضة أو حق والد أو زوج أو ولد باسم نافلة. كما ليس من الشكر أن يحتج بالقدرة المحدودة لترك كل مجاهدة. بين الطرفين عمل صالح يناسب الحال ويثبت.

صلة الخشوع: قد يقوم البدن طويلاً والقلب يطلب صورته، وقد يقصر القيام لعذر ويصدق صاحبه في الحضور. لا يلغي ذلك فضل طول القيام لمن قدر وأحسن، لكنه يمنع تحويل المقدار وحده إلى ميزان للقلوب. الخشوع هنا أن يستقبل العبد المغفرة والنعمة بمزيد عبودية، وأن يرى العمل توفيقاً جديداً يحتاج إلى شكر جديد. تطبيق: يبدأ المرء بما يحفظه ولا يضع ما هو أوجب منه: ركعات يؤديها بطمأنينة، أو قراءة يفهم معناها، أو وقت يختاره من غير أن يهدم نوماً يحتاجه لعمل واجب. إن اتسعت قدرته زاد، وإن ظهر ضرر راجع خطته. هذا تنظيم مباح لا تحديد لسنة بعدد جديد. والمعيار أن يزيده القيام شكراً ورحمة وأمانة، لا إعجاباً ومخاصمة للناس.

علم النبي ﷺ المسيء صلاته الطمأنينة في الركوع والاعتدال، كما في صحيح البخاري 757 وصحيح مسلم 397a. الركوع ليس فراغاً بين قراءتين، ولا حركة تؤدي بأقصى سرعة ثم يطلب القلب أن يلحق بها. للبدن زمن يستقر فيه، وللذكر معنى ينزه الله ويعظمه. التعظيم لا يعني أن يتخيل المصلي ذات الله أو هيئة لم يأت بها النص؛ هذا باب خطر. يعرف من أسماء الله وصفاته ما جاء في الوحي، ويعبد ربه على الإيمان والتنزيه. وقد يكفيه في الركوع أن يعلم أنه انحنى تعبدًا لمن لا ينحني له القلب عبادة سواه.

ومن الخطأ أن يعاقب المصلي نفسه بإطالة لا يطيقها كلما وجد شروداً. السنة والقدرة والحقوق هي الميزان. قد تكون الإطالة نافعة لمن قدر واتبع، وقد يكون إصلاح الركوع عند آخر في تمام الطمأنينة وتصحيح الهيئة والذكر. لا يحكم أحدهما على قلب الآخر بالمقدار.

عملياً، يتعلم المصلي الحد الفقهي من معلم معتبر، ثم يراجع ركنًا واحدًا مدة حتى يستقر. بعد استقرار الهيئة لا يبقى أسير مراقبتها، بل ينتقل إلى المعنى. هذا الترتيب يمنع أن يتنافس العلم والحضور، العلم يبني الطريق، والحضور يسير فيه.

27 | استعاذته من قلب لا يخشع

كان من دعائه ﷺ الاستعاذة من قلب لا يخشع، فدل ذلك على أن الخشوع منحة تطلب، وأن قسوته خطر لا يعالج بالإعجاب بالنفس.

وموضع الاستدلال هنا صحيح مسلم 2722.
خطوة قريبة: إدخال الدعاء الثابت في الأذكار مع أخذ أسباب لين القلب.

دليل الباب - الحديث: في صحيح مسلم 2722 استعاذ النبي ﷺ من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها، وسأل الله للنفس تقواها وزكاتها. ورود القلب غير الخاشع بين هذه المعاني يربط القسوة بعلم بلا ثمرة ونفس لا تقنع ودعاء يحتاج صدقاً.

طلب الخشوع نفسه عبادة. لا يعتمد العبد على حيلته في إصلاح قلبه، ولا يترك الأسباب بحجة الدعاء. يجمع سؤال الله مع العلم النافع، ومجاهدة الشبع الذي لا ينتهي، ومراجعة العمل. الدعاء هنا يكشف عجز الإنسان ويمنعه من الإعجاب ببرنامجه.

ويُحفظ لفظ الدعاء كما ورد عند نقله، ولا يُغير لتحسين الأسلوب. أما الشرح فهو القلب الخاشع يحتاج علماً يقوده، ونفساً

تضبط رغباتها، ودعاءً يخرج من افتقار. هذه روابط تربوية يفهمها السياق، وليست ألفاظاً مضافة إلى الحديث.

سؤال الخشوع مع طلب التزكية

وفي الحديث: جمع دعاء صحيح مسلم 2722 بين طلب تقوى النفس وتزكيتها، والاستعاذة من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع. هذا الجمع يضع قسوة القلب داخل شبكة من المعرفة والرغبة والعمل.

لا يعالج القلب بدعاء مجرد عن السبب، ولا بسبب يعتمد عليه صاحبه دون ربه. يتعلم ما ينفع، ويضبط الشهوة التي لا تشبع، ويدعو الله أن يزكيه؛ فالزكي هو الله والعبد مأمور بالمجاهدة.

ومن التطبيق أن يراجع الإنسان موضعاً واحداً لا ينتفع فيه بعلمه: يعرف فضل الصلاة ثم يؤخرها، أو يعرف حرمة الغيبة ثم يطلق لسانه. يجعل الدعاء مفتاحاً لتصحيح محدد، لا عبارة تكرر مع الإصرار. بهذا يصير طلب القلب الخاشع طلباً يصدق السعي.

من السنة: جمع الدعاء في صحيح مسلم 2722 بين سؤال تزكية النفس والاستعاذة من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع. اقتران هذه المعاني يمنع اختزال الخشوع في الصلاة فقط؛ فقد يكون العلم كثيراً ولا يغير صاحبه، وقد تتسع الرغبات حتى تراحم حضور القلب.

الدعاء اعتراف بأن تزكية النفس بيد الله، لكنه لا يعني من المجاهدة. من استعاذ من علم لا ينفع راجع ما يعمل به، ومن استعاذ من نفس لا تشبع ضبط أبواب الاستهلاك، ومن استعاذ من قلب لا يخشع عاجل الذنب والشاغل والجهل. ومن التطبيق أن يحفظ الدعاء بلفظه، ثم يقرنه بسبب واحد ظاهر. لا يطلب عشرين إصلاحاً في يوم، بل يختار مدخلاً: تعلم معنى الفاتحة، أو رد مظلمة، أو إغلاق شاشة قبل الصلاة. حين يصدق الفعل السؤال يصبح الدعاء قائداً لا عبارة عابرة.

الاستعاذة اعتراف يتبعه إصلاح

النص النبوي: في صحيح مسلم 2722 استعاذة النبي ﷺ من قلب لا يخشع. ثبوت الدعاء يعلم العبد أن يسأل ربه سلامة القلب، وأن عدم الخشوع خطر يستعاذ منه. لكنه لا يفهم منه أن الدعاء يغني عن تعلم الصلاة وترك المانع ورد الحق. انخلط الشائع: قد يكرر الإنسان الاستعاذة ثم يحافظ على أبواب الغفلة التي يعرفها، أو يحمل نفسه ذنب كل شرود عارض حتى يقنط. الدعاء يجمع الافتقار والمسؤولية: لا يدعي أنه يصلح قلبه وحده، ولا يعطل ما كلف به.

تطبيق: بعد الاستعاذة يحدد مانعاً معلوماً لا متوهماً: ذنباً يتوب منه، أو شاغلاً يبعده، أو معنى يتعلمه، أو حقاً يؤديه. فإن لم يعرف

المانع استمر في الدعاء والعبادة ولم يخترع اتهاماً. ومن الخشوع أن يقبل حدود معرفته بنفسه.

ثبت في صحيح مسلم 482 أن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، مع الأمر بالإكثار من الدعاء. القرب هنا خبر نبوي يورث رجاءً وذلًا، ولا يمنح الإنسان حق تخيل الكيفية أو الجزم بصورة الإجابة. الساجد أقرب وهو أشد انخفاضاً، كأن الجارحة نتعلم أن العلو الحقيقي في العبودية.

قد يتحول الدعاء في السجود إلى قائمة سريعة، أو إلى اختبار: دعوت ولم يحدث ما أريد. التصحيح أن الدعاء عبادة في ذاته، وأن المطلوب يسأل مع تفويض الحكم والوقت لله. لا يطلب الخشوع من الإنسان أن يلغي حاجاته؛ يسميها بصدق، لكنه لا يجعل تحققها شرط استمرار العلاقة.

وفي السجود يجتمع الدعاء بحقوق أخرى: من ظلم شخصاً لا يغنيه أن يدعو بالمغفرة من غير رد حق أو طلب عفو حيث يلزم. ومن سأل رزقاً أخذ بسبب مباح. ومن سأل هداية تعرض لمواضعها من علم وصحة ومجاهدة. الدعاء يفتح الحركة ولا يستبدلها. التطبيق أن يدخل السجود بحاجتين: حاجة القلب إلى ربه، وحاجة محددة يسألها. لا يتكلف السجع ولا يطيل على جماعة بما يشق. وإذا كان مأموماً اتبع إمامه. وبعد الصلاة يحفظ ما التزمه من سبب. هكذا يبقى السجود سر قرب، لا عقد ضمان للنتائج.

قيام الليل باب شريف، لكن الناس يختلفون في الصحة والعمل والسن. الخشوع لا يطالب الجميع بصورة واحدة. من قدر فأطال وفق السنة، ومن صلى قدرًا قليلًا داوم عليه، ومن عجز جلس أو أخذ بالرخصة المشروعة.

المقارنة تفسد الباب حين يرى الإنسان عدد ركعات غيره فيحمل جسده فوق طاقته، ثم ينقطع عن الفرائض والحقوق. العبادة النافلة لا تبنى على إهمال واجب. الاعتدال يحتاج صدقًا، فلا يتخذ الرفق عذرًا للكسل، ولا الحماسة عذرًا للضرر.

ومعنى طول القيام ليس طول الزمن فقط؛ قد يقرأ قليلًا بتدبر، ويكون ذلك باب خير. لا نجزم بالمفاضلة في حال فردية بلا علم. الأهم أن يتعلم أحكام صلاته ويحفظ الاستمرار.

برنامج صالح يبدأ بما يمكن بعد نوم وحقوق، ثم يراجع بعد أسابيع. لا يعلن الأرقام، ولا يجعل فوات ليلة سببًا لترك الشهر.

28 | صلاته في الشدائد

القرآن يأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة، وفي هدي النبوة رجوع إلى الصلاة عند اشتداد الأمر. الصلاة لا تلغي السبب، لكنها تعيد ترتيب القلب.

وموضع الاستدلال هنا [البقرة: 153].

خطوة قريبة: قبل القرار المضطرب: صلاة مشروعة ثم جمع المعلومات والمشاورة.

دليل الباب: أمر القرآن بالاستعانة بالصبر والصلاة [البقرة: 153]، وثبت أصل الرجوع إلى الصلاة عند اشتداد الأمر في سنن أبي داود (1319)، وقد حسنه الألباني.

الصلاة ملجأ إلى الله، لكنها ليست مهرباً من واجب عاجل. من لزمه إنقاذ أو أداء حق قدم الواجب، ومن اتسع له الوقت صلى ثم جمع المعلومات واستشار وأخذ بالسبب. الخشوع يحرر القرار من الذعر، ولا يعفي صاحبه من المسؤولية.

وفي الصلاة لا يطلب الإنسان كشف الغيب ولا يبني حكماً على خاطر عابر. يسأل الهداية والتيسير، ثم يزن البدائل بالشرع والواقع. إذا خرج بقلب أهدأ كان ذلك عوناً، لا دليلاً قطعياً على صحة كل اختيار. العبادة تثبت القلب، والأدلة والمشورة تضبط القرار.

عند الفرع يعود القلب إلى الوحي والعمل

من السنة: في صحيح البخاري 1059 لما كسفت الشمس قام النبي ﷺ إلى المسجد وصلى، ثم بين أن هذه الآيات يخوف الله بها عباده، وأمر عند رؤيتها بالذكر والدعاء والاستغفار. هذا نص صحيح في اجتماع الفرع المشروع والرجوع إلى العبادة. حد الاستدلال: لا تعمم أحكام صلاة الكسوف على كل حادثة، ولا يخترع لكل أزمة طقس خاص. لكن المعنى العام ظاهر: الخوف لا يسلم القلب للفوضى، بل يرده إلى الله، ثم يعمل بما يلزم في بابه. الصلاة والذكر لا يلغيان إنقاذاً واجباً أو استشارة أو علاجاً.

ومن التطبيق في الشدة أن يميز المرء بين ما يحتاج فعلاً عاجلاً وما يحتمل تأخيراً، فيؤدي الواجب، ويستعين بالصلاة والدعاء المشروع، ثم يجمع المعلومات ويشاور. الخشوع هنا لا يوقف القرار؛ ينقيه من الذعر والكبر ويعيده إلى حدود العبودية.

أصل محكم: الاستعانة بالصبر والصلاة في البقرة 45، وأمر أهل الإيمان بالصبر والصلاة في مواطن التكليف، يدلان على أن الصلاة مورد ثبات عند الضيق. وليس المقصود أن تختفي أسباب الألم بمجرد الدخول فيها، بل أن يعود القلب إلى موضع العبودية وسط السبب.

قد يزداد خاطر الخوف في أول الصلاة لأن النفس انتقلت من الحركة إلى السكون؛ فلا يجعل ذلك دليل فشل. الخشوع في الشدة أحياناً هو أن يرد المصلي نفسه كلما هربت، وأن يمنع الخوف من تحريف حكم أو ظلم قريب. ويظل الأخذ بالعلاج والحماية والمشورة من تمام المسؤولية، لا نقصاً في التوكل.

تطبيق: قبل التكبير يسمي العبد الواجب الذي لا يجوز أن يضيعه بسبب الشدة، وبعد السلام يبدأ سببه المشروع. وبينهما يصلي لله لا لمجرد تخفيف التوتر، وإن كان السكون ثمرة مرجوة.

التشهد يعيدك إلى الجماعة والرسالة

التشهد ليس نهاية تقنية للركعات؛ فيه تحية وثناء وشهادة وصلاة على النبي ﷺ ودعاء. يخرج المصلي من عزله الفردية إلى السلام على عباد الله الصالحين، ويجدد الشهادتين، فيرى أن خشوعه مرتبط برسالة وجماعة واتباع، لا بتجربة داخلية تخصه وحده.

وقد يسبق اللسان المعنى لأن الألفاظ محفوظة منذ الصغر. لا يعالج ذلك بتغيير اللفظ أو اختراع صيغة؛ يتعلم معنى الكلمات الثابتة ويعيدها إلى مكانها. التحيات لله، والسلام دعاء، والشهادة عهد، والصلاة على النبي ﷺ اتباع ومحبة. كل معنى يفتح باباً خارج الجلسة.

من ثمرات هذا الفهم أن لا يصبح المصلي قاسياً على «عباد الله الصالحين» ثم يزعم أنه وجد سلاماً في صلاته. لا يعني السلام قبول الخطأ أو ترك النصيحة، لكنه يورث سلامة القصد واللسان. كما أن الشهادة لا تبقى صوتاً إذا ناقضها تعظيم الهوى أو المخلوق في موضع حق الله.

يمكن للمتعلم أن يقرأ شرح التشهد خارج الصلاة، ثم يختار في كل مرة معنى يعيه من غير أن يوقف جريان العبادة. ومع الزمن تتصل الألفاظ بخريطتها. الخشوع هنا ليس بحثاً عن انفعال، بل تجديد انتماء: لله العبادة، وللرسول الاتباع، ولعباد الله السلام والحق.

إذا نزل أمر لجأ المؤمن إلى الصلاة والدعاء، ثم أخذ بالأسباب. الصلاة تمنع الذعر من قيادة القرار، لكنها لا تغني عن الاتصال بطبيب أو محامٍ أو مسؤول حين يلزم. الجمع بينهما هو كمال الافتقار.

في الأزمة قد لا يستطيع الإنسان طول القراءة. يؤدي ما يقدر عليه، ويستفيد من الرخص إن وجدت. لا يزيد على نفسه تكليفاً لأن صورته عن الخشوع تشتت بطئاً لا يملكه.

بعد الصلاة يكتب الخطوات، ويطلب مساعدة، ويفرق بين ما يملكه وما لا يملكه. هذا التقسيم يخفف الفوضى: ما يملكه يعمل فيه، وما لا يملكه يسلمه إلى الله مع استمرار الدعاء.

وإذا لم تنفج الشدة سريعاً لم يتهم الصلاة. العبادة ليست أداة ضغط على القدر؛ هي حق لله وملجأ للعبد في كل نتيجة.

عند الشدة: من الفزع إلى خريطة عمل

النص الشرعي: روى أبو داود (1319) عن حذيفة رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى»، وقد حسنه الألباني. يدل الحديث على أن الصلاة من أول موارد المؤمن عند نزول الأمر، لا على أنها بديل عن كل سبب مأذون.

الشدة تضيق مجال الرؤية. يرى الإنسان خطراً واحداً فيملاً الشاشة كلها، ويخلط بين ما يملكه وما لا يملكه، وبين الخبر المؤكد والتوقع. الصلاة تعيد الحدود: الرب رب، والعبد عبد، والنتيجة ليست ملكاً له، لكن التكليف القريب في يده. بهذا المعنى تكون الصلاة انتقلاً من فوضى الفزع إلى عبودية منظمة.

لا يلزم أن تخرج النفس بعد الصلاة وقد زال اضطرابها. ربما بقي الألم، وربما احتاج الجسد إلى علاج، وربما استمرت المشكلة شهوراً. الأثر الأصدق قد يكون أصغر: امتنع عن قرار متعجل، أو تذكر حقاً، أو قبل مشورة، أو استطاع أن ينام ليواصل غداً. لا نقلل من هذه الثمرات لأنها لم تكن مشهداً كبيراً.

يمكن تقسيم الأمر بعد الصلاة إلى ثلاث دوائر. الأولى واجب حاضر: اتصال، دواء، وثيقة، اعتذار، أو طلب نجدة. الثانية سبب

يحتاج تخطيطًا: ميزانية، مراجعة مختص، أو تفاوض. الثالثة نتيجة لا يملكها: قبول الناس، تمام الشفاء، أو توقيت الفرج. الخشوع لا يخلط هذه الدوائر؛ يبذل في الأولين ويسلم الثالثة لله.

ومن الخطأ استعمال الحديث لإدانة من غلبه الاضطراب فلم يجد سكنة عاجلة. الاقتداء دعوة ورحمة، لا أداة اتهام. قد يصلي الإنسان ويحتاج مع ذلك إلى من يسانده أو إلى مختص نفسي أو طبي. أخذ العلاج لا يناقض اللجوء إلى الله؛ بل قد يكون من الأسباب التي هدى إليها.

تطبيق: بعد ركعتين أو فريضة في حال الشدة، يكتب المرء سطرين: «ما يلزمني الآن»، و«ما أسلمه الله». يختار فعلاً واحداً من الأول، ويمنع نفسه من إعادة طحن الثاني في كل دقيقة. إن عاد القلق عاد إلى الذكر والعمل بقدر استطاعته. هذا التنظيم ترجمة للعبودية، لا وصفة تضمن زوال البلاء.

29 | رفقہ بمن أخطأ في الصلاة

في حديث المسيء صلاته عليه النبي ﷺ الطمأنينة بتكرار هادئ وبيان عملي، ولم يجعل الخطأ باباً للإهانة.

وموضع الاستدلال هنا صحيح البخاري 757.

خطوة قريبة: تعليم الخشوع ببيان أركان الصلاة ومعانيها، وبالرفق الذي يفتح القلب.

من السنة: قصة المسيء صلاته في الصحيحين أصل في تعليم الطمأنينة وأعمال الصلاة؛ أعاد الرجل الصلاة ثم قال للنبي ﷺ: علمني، فعلمه. لا يحتاج المقام إلى اختلاق شعور الرجل أو نبرة المجلس؛ القدر الثابت كافٍ لإظهار الرحمة والوضوح والتدرج. إصلاح الخشوع لا يكون بإهانة من يخطئ في صلاته. يبين له الحكم، ويدرب على الطمأنينة، ويفرق بين صحة الصلاة وكمال حضور القلب. الخلط بين المستويين قد يورث وسوسة أو يأساً. والتربية النبوية بدأت بما يمكن تعلمه وضبطه، ثم يفتح العمل الظاهر باب المعنى الباطن.

وعلى المعلم أن يختار عبارة محددة: اطمئن في الركوع والسجود، وتعلم الفاتحة، ولا تسبق الإمام. الكلمات العامة مثل «صل بخشوع» قد توظف الرغبة لكنها لا تعلم الطريق. الرحمة هنا ليست

إسقاطاً للتصحيح، بل تصحيح يحفظ كرامة المتعلم ويعطيه فرصة جديدة.

الطمأنينة تُعَلِّم

وفي الحديث: في صحيح البخاري 757 أعاد النبي ﷺ صلاته، ثم طلب التعليم، فبين له النبي ﷺ التكبير والقراءة والطمأنينة في الركوع والاعتدال والسجود والجلوس. النص يعطي خطوات قابلة للتعلم بدل مطالبة غامضة بشعور لا يملكه المتعلم.

أول أبواب تربية الخشوع تصحيح الصلاة الظاهرة: معرفة الركن، وإعطاؤه زمنه، والتفريق بين السكون والسرعة. بعد ذلك يأتي فهم الأذكار ومجاهدة الشرود. من قلب الترتيب قد يطلب المبتدئ بحال عالية وهو لا يعرف الطمأنينة.

والرفق لا يعني إخفاء الخطأ؛ أعاده النبي ﷺ حتى تعلم، لكنه لم يخترع تهمة لباطنه. على المعلم أن يقول: تمهل حتى تطمئن، وتعلم ما تقول، ثم راقب موضع الشرود. هكذا يصير التصحيح دقيقاً وممكناً ويحفظ كرامة المتعلم.

من السنة: في صحيح البخاري 757 علم النبي ﷺ المصلي صلته أركان الحركة والطمأنينة ببيان يمكن تعلمه. لم يطالبه أولاً بوصف شعوره، ولم يكتف بقول عام عن الخشوع؛ بدأ بما يظهر ويمكن تصحيحه.

أعمال القلب لا تنفصل عن فقه العبادة. قد يريد الإنسان الخشوع وهو يجهل صفة الركوع أو يسرع في الاعتدال؛ وتعليمه الحكم إحسان إلى قلبه، لا انشغال بالقشرة. وفي المقابل لا يزعم من أتقن الهيئة أن قلبه قد كمل.

ومن التطبيق أن يكون التصحيح محددًا ورفيقًا: تعلم الفاتحة، واطمئن في الركن، واتبع الإمام. ثم يشرح المعنى بقدر الحاجة. إذا جمع التعليم بين صحة الفعل ووجه العبودية أمكن للمتعلم أن يعود غداً بخطوة واضحة، بدل أن يخرج من الموعظة معجباً أو مكسوراً بلا طريق.

التعليم الرفيق جزء من إصلاح الصلاة

النص النبوي: في صحيح البخاري 757 وصحيح مسلم 397a خبر الرجل الذي صلى ثم أمر أن يعيد، فلما صرح بأنه لا يحسن غير ذلك طلب التعليم، فعله النبي ﷺ التكبير والقراءة والطمأنينة في الركوع والاعتدال والسجود والجلوس. ثبت أصل التعليم ولفظ الطمأنينة، فلا يحتاج المشهد إلى حوار مخترع أو وصف باطني لم يرد.

لم يكتف التعليم بقول عام مثل «اخشع»، بل نقل الرجل إلى أفعال يمكن تعلمها. هذه قاعدة تربوية: إذا كان الخلل في الهيئة أو العلم، فالحل بيان الهيئة والعلم؛ وإذا كان في الشاغل، عولج

الشاغل؛ وإذا كان في ذنب معلوم، فتوبته بابه. تحميل كل خلل على قسوة القلب قد يحجب العلاج الأقرب.

الرفق والوضوح: الرفق لا يعني إخفاء الحكم؛ قال له إنه لم يصل الصلاة المجزئة على الوجه المطلوب في الخبر، ثم علمه لما ظهر موضع الحاجة. والوضوح لا يبرر التعبير؛ الغاية إصلاح العبادة لا كسر المتعلم. ومن فقه المعلم أن يميز بين من يجهل، ومن عجز، ومن عرف ثم فرط، ولا يضع الجميع في خطاب واحد.

تطبيق: حين يعلم الوالد أو المعلم أو الإمام الصلاة، يختار خطأ واحداً ظاهراً ويبين الصواب بدليله وتمثيله العملي، ثم يتيح السؤال. لا يفتش عن سريرة المتعلم، ولا يطالبه بشعور لا يملكه، ولا يتركه مع عبارة وجدانية وحدها. وحين يكون هو المتعلم يقول بصدق: لا أحسن، علمني. هذا الاعتراف باب خشوع؛ لأن الكبر يمنع السؤال، أما القلب الطالب للحق فيقبل أن يبدأ من جديد.

قال الله بعد ذكر صلاة الخوف: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ} [النساء: 103]. يدل السياق على أن انتهاء الهيئة لا يعني انقطاع الصلة. للصلاة أذكار بعدها، ثم يعود المؤمن إلى حياته وهو يحمل أثر الوقوف.

أول امتحان قد يأتي في الدقيقة التالية: هاتف، أو نقاش، أو طريق مزدحم. إن عاد اللسان فوراً إلى أذى كان ذلك موضع إصلاح، لا دليلاً نجزم به على رد الصلاة. القبول غيب، لكن

الأثر مجال محاسبة. يسأل المرء: هل خففت الصلاة سلطان الغضب؟ هل ذكرتني بحق؟ هل منعت كلمة؟ ولا ينبغي أن تتحول هذه المحاسبة إلى فحص قهري بعد كل تسليمة. يؤدي الذكر الثابت، ثم يختار مرة في اليوم أو الأسبوع موضعاً يراجع فيه الأثر. المقصود بناء صلة، لا تعذيب النفس. وقد تكون الثمرة بطيئة تظهر في انخفاض التكرار لا في اختفاء الخطأ.

من التطبيق أن يؤخر فتح الشاشة حتى يتم الذكر الثابت إن لم تكن هناك حاجة، ثم يخز حقاً واحداً حملته الصلاة عليه. إذا تذكر ديناً سجله، وإذا تذكر اعتذاراً بادر، وإذا انكشف له ذنب بدأ توبته. بهذا يخرج من الصلاة ولا يخرج من العبودية. من هدي النبي ﷺ تعليم الجاهل برفق، والرفق لا يساوي السكوت عن الخطأ. يبين المعلم الحكم بقدر الحاجة، ويراعي أن المخطئ قد يكون حديث عهد أو مرتبكاً. الهدف أن تصح العبادة، لا أن ينتصر المعلم لمعلوماته.

الإغراق في التفاصيل في اللحظة الأولى قد يشنت. يبدأ بما نتوقف عليه الصحة، ثم يكمل السنن والآداب في وقت مناسب. هذا الترتيب فقه ورحمة.

كما لا يعلن خطأ شخص أمام الناس إذا أمكن التعليم الخاص،
إلا إذا تعلقت مصلحة عامة تحتاج بياناً بلا تشهير. الخشوع يجعل
الناسح واعياً بأن ستر أخيه حق.
والمتعلم يقبل التصحيح ولا يحوله إلى إهانة. يسأل عن الدليل،
ويشكر، ويعيد ما يلزم وفق الحكم. تواضعه لا يمنعه من التثبت،
وكرامته لا تمنعه من الرجوع.

30 | تخفيفه رحمة بالناس

كان ﷺ يريد إطالة الصلاة فيسمع بكاء الصبي فيخفف كراهية أن يشق على أمه. الخشوع وعي بالله لا غياب عن حقوق الخلق. وموضع الاستدلال هنا صحيح البخاري 709. خطوة قريبة: الإمام يوازن بين كمال الصلاة وأحوال المأمومين، ولا يقيس الجميع على طاقته.

دليل الباب - الحديث: في صحيح البخاري 709 قال النبي ﷺ إنه يدخل الصلاة يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبي فيخفف لما يعلم من شدة وجد أمه. يثبت الحديث اجتماع حضور العبادة مع الوعي بحقوق الناس وأحوالهم؛ فالخشوع لم يعزله عن بكاء يسمعه ورحمة يحملها.

لا يعني الخشوع أن يغيب الإمام عن المأمومين، أو أن يجعل طول صلاته معيار صلاحهم. السنة تعلمه أن يراعي الضعيف وذا الحاجة، وأن الرحمة مقصد لا قاطع للعبادة. التخفيف هنا قرار وإع داخل الصلاة، لا شرود عنها.

وفي الحياة الخاصة يعيد الحديث ترتيب الفهم: قد يقطع الإنسان ورداً مستحباً لحاجة واجبة أو رحمة لازمة، ولا يكون بذلك قد خان خشوعه. الميزان معرفة مراتب الحقوق. القلب الحاضر لله هو الأقدر على سماع من استرعه الله أمرهم، لا الأقل اكترائاً بهم.

رحمة الإمام من فقه الخشوع

وفي الحديث: في صحيح البخاري 709 أراد النبي ﷺ إطالة الصلاة، فلما سمع بكاء الصبي خفف لما يعلم من وجد أمه. يدل الحديث على وعي كامل بالعبادة وبحال المأمومين في الوقت نفسه. لا يقيس الإمام الناس على نشاطه، ولا يجعل طول الصلاة الدائم برهان خشوع. يراعي الضعيف والمريض وذا الحاجة في حدود السنة، ويحسن القراءة والطمأنينة من غير مشقة. الرحمة ليست تنازلاً عن الصلاة؛ هي جزء من فقهها.

ويمتد المعنى إلى البيت والعمل: قد يترك المرء نافلة لحاجة لازمة لمن استرعه الله، فيكون أداء الحق أولى. القلب الحاضر لله يسمع الأمانة ولا يغيب عنها. أما الانقطاع الذي يضيع واجباً ثم يسمى خشوعاً فهو خلل في ترتيب العبوديات.

من السنة: في صحيح البخاري 709 دخل النبي ﷺ الصلاة وهو يريد إطالتها، ثم غير مقدارها حين سمع بكاء الصبي وعلم ما تجد أمه. موضع الدلالة هنا ليس التخفيف وحده، بل أن قصداً صالحاً في البداية لم يمنع الانتقال إلى ما هو أرفق حين ظهرت معلومة جديدة.

قد يظن العابد أن الثبات على خطته علامة إخلاص، ولو تبدلت الحال. الحديث يعلم أن عبادة الله ليست عبادة الخطية؛ الإمام ينوي خيراً ثم يختار خيراً أنسب للمأمومين. تغيير المقدار لا

يعني اضطراب النية، ما دام الحكم محفوظاً والباعث رحمة معتبرة لا طلب رضا الناس.

وهذا يربي صاحب البرنامج التعبدى على المرونة المنضبطة. إذا مرض أو احتاجه من تلزمه رعايته، عدل النافلة ولم يحولها إلى خصومة. ثم يعود إليها حين يتسع الوقت. لا يشترع لنفسه إسقاط الواجب، ولا يجعل المستحب حاكماً على كل حق؛ ففقه مراتب الأعمال يحرس الخشوع من أن يتحول إلى تعلق بصورة واحدة.

التخفيف رحمة منضبطة لا عجلة

النص النبوي: أخبر النبي ﷺ أنه يدخل الصلاة يريد إطالتها فيسمع بكاء الصبي فيتجاوز في صلاته كراهية أن يشق على أمه [صحيح البخاري 709]. وفي أحاديث الإمامة جاء الأمر بالتخفيف لأن وراء الإمام الصغير والكبير والضعيف والمريض [صحيح البخاري 703، وصحيح مسلم 467a].

الخشوع لا يعارض الرحمة؛ الإمام لا يثبت حضور قلبه بإطالة تشق على الناس، ولا يختصر الصلاة اختصاراً يخل بالطمأنينة. الميزان أن تبقى الأركان والواجبات على وجهها، وأن تراعى أحوال الجماعة فيما وسع فيه الشرع. ووجه الاستدلال أن النبي ﷺ غير طويلاً قصده ابتداء مراعاة لقلب أم وطفل، لا فتوراً في العبادة.

تطبيق: يسأل الإمام عن حال جماعته ويلاحظ المشقة المعتبرة، والمأموم لا يجعل ذوقه الشخصي معياراً وحيداً. الرحمة هنا فقه بالناس داخل حدود النص.

ثبت في صحيح البخاري 709 أن النبي ﷺ كان يدخل الصلاة يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبي فيخفف لما يعلم من شدة وجد أمه. لم يمنعه حضوره من سماع الطفل وفهم حال الأم، ولم يجعل الرحمة نقصاً في الصلاة. الخشوع الواعي يوسع الإدراك بالحق، لا يغلقه.

يفيد الحديث الإمام في وزن حال الجماعة، ويفيد المأموم في ألا يقيس العبادة بمقدار المشقة وحده. الإطالة لها موضع، والتخفيف المشروع له موضع. وليس كل تخفيف استعجالاً، كما أن كل إطالة ليست خشوعاً. السنة والقدرة وحال الناس تضبط الحكم. وفي البيت قد يصلي الوالد أو الوالدة مع وجود طفل أو مريض. يأخذان الأسباب الممكنة قبل الصلاة، ثم يتعاملان مع الحاجة بحكمها. لا يبنیان مثلاً خيالاً للصلاة لا مكان فيه للرحمة، ولا يتركان الصلاة كلهما خافاً حركة. العلم بأحكام الحاجة يخفف الصراع بين الواجبين.

وعند التعليم لا يستخدم الحديث لتبرير الفوضى، ولا لإسكات من يحتاج إلى طول مشروع. يقرأ بحدوده: واقعة ثابتة تكشف مقصد الرحمة ومراعاة المأمومين. التطبيق أن يسأل الإمام عن سنة

القراءة والتخفيف، وأن يتلقى المأموم اختلاف الأحوال بأدب. خشوع الجماعة مسؤولية مشتركة لا اختبار قوة.

الخطر العابر لا يملك الصلاة إلا إذا اتبعه الإنسان. حين تأتي الوسوسة يعود إلى الذكر الذي هو فيه، ولا يدخل معها في نقاش طويل: لماذا جاءت؟ ماذا تقول عن إيماني؟ هذا الحوار يطيل عمرها.

إذا تعلق الوسواس بالطهارة أو النية رجع إلى القواعد الفقهية وسأل عالماً موثقاً، ثم التزم الجواب. البحث المتكرر عن فتوى جديدة قد يصير جزءاً من المشكلة. وإذا بلغ الأمر حداً مرضياً استعان بمختص.

لا يحق للناصح أن يصف المصاب بضعف الإيمان لمجرد معاناته. الوسواس قد يقع مع شدة حرص، والعلاج يحتاج علماً وصبراً. كما لا ينبغي تحويل كل شرود عادي إلى تشخيص مرضي. الخطوة النافعة قرار توقف: فعلت ما يلزم، ولن أعيد. قد يبقى القلق، لكن عدم طاعته تدريب. النجاح ليس زوال القلق فوراً، بل أداء العبادة رغم وجوده.

31 | خشوع لا يلغي الوعي

السكون القلبي لم يمنع النبي ﷺ من إدراك بكاء الصبي ومراعاة أمه. حضور القلب الصحيح يزيد الفقه بالواجب ولا يعطل الإدراك.

خطوة قريبة: رفض التصور الذي يجعل الخشوع انقطاعاً عن الواقع أو عذراً لإهمال الأمانة.

دليل الباب: حديث بكاء الصبي في البخاري 709 يرد تصوراً يجعل الخشوع غياباً عن الواقع؛ فقد أدرك النبي ﷺ الصوت، وفهم أثره في الأم، واتخذ قراراً تعبدياً مناسباً.

الشroud أن يترك المصلي ما هو فيه إلى خاطر لا يحتاجه، أما إدراك ضرورة أو دفع أذى فليس من جنسه. قد يحتاج المصلي إلى حركة مشروعة، أو الإمام إلى تخفيف، ولا يملك أحد أن يحكم على القلوب من ظاهر عارض.

الحضور الصحيح يجمع مقصدين: أن يعرف العبد أنه بين يدي الله، وأن يؤدي ما أمره الله به في اللحظة نفسها. لذلك لا يطارد حالة انفصال عن المكان، بل يطارد صدق العبودية. إذا ناداه واجب معتبر أجابه بفقهه، وإذا كان الشاغل فضولاً أعاد قلبه إلى القراءة.

الصلاة الحاضرة لا تلغي الوعي بمن حولك

من السنة: ثبت في صحيح البخاري 516 وصحيح مسلم 543a أن النبي ﷺ صلى وهو يحمل أمانة بنت زينب، يضعها إذا سجد ويحملها إذا قام. القدر الثابت يكفي، ولا نحتاج إلى اختراع وصف لمشاعر الطفلة أو تفاصيل للمشهد.

وجه الدلالة: اجتمع نظام الصلاة مع رعاية طفلة بحركات لحاجة؛ فالحضور ليس تجمداً، والخشوع ليس غياباً عن الرحمة. ولا يستنبط من الحديث فتح باب العبث، بل أن الحركة اليسيرة المنضبطة والحاجة لا تناقضان أصل العبادة كما بينه الفقهاء.

وفي البيت يخفف هذا الفهم توتر الوالدين: يرتبان المكان ويقللان المشتت، ثم يؤديان الصلاة وفق أحكامها من غير خصومة دائمة مع وجود الصغار. يعلمانهم بهدوء، ولا يجعلان طلب السكون الكامل شرطاً لا يتحقق. الصلاة تبني الرحمة ولا تجعل أهل البيت عبئاً على صاحبها.

الهدي الثابت: تدل الأحاديث التي استعملت في هذا الباب على أن النبي ﷺ كان يراعي أحوال المصلين، ويحمل أمانة في الصلاة في الخبر الصحيح، ويفتح الباب لعائشة في خبر السنن، ويخفف لبكاء الصبي. لا يجمع الكتاب التفاصيل في مشهد واحد، بل يحفظ لكل خبر موضعه ولفظه.

الخلط الشائع: تصور الخشوع غياباً تاماً عن المحيط قد يحمل المصلي على إهمال خطر أو حاجة أو رحمة واجبة. الصلاة حضور مع الله داخل شريعة تراعي الإنسان. الحركة للحاجة لها حكمها، والالتفات المذموم له بابه، ولا يسوي الفقه بينهما. تطبيق: يتعلم المصلي أحكام ما يعرض له بدل أن يرتجل. إن كان مسؤولاً عن طفل أو مريض اتخذ سبباً ممكناً قبل الصلاة، وعرف ما يفعله عند الحاجة. لا يبحث عن بطولة في التجاهل، ولا يفتح على نفسه باب الحركة بلا ضرورة. الخشوع الواعي يجمع القلب ولا يغلق العقل.

حمل أمانة يحرر العبادة من صورة جامدة

ثبت في صحيح البخاري 516 أن النبي ﷺ صلى وهو يحمل أمانة بنت زينب، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها. الخبر واضح في حركة واقعية داخل الصلاة لحاجة ورحمة، ويمنع تصوراً يجعل كل حركة منافية للخشوع بلا تفصيل.

لا يستخرج من الحديث إباحة حركة مطلقة؛ للأفعال أحكام ومقادير يسأل عنها أهل العلم. لكنه يهدم صورة «الغائب عن العالم» التي تجعل العبادة عجزاً عن رعاية من بين اليدين. النبي ﷺ أكل الناس خشوعاً، وجمعت صلاته حضور القلب ورحمة الطفل وتمام الهيئة.

قد يشعر الأب أو الأم أن وجود الصغير يمنعهما من أي عبادة صادقة، فيؤجلانها حتى يأتي بيت مثالي لا ضجيج فيه. الخبر يعيد الواقعية: يمكن أن تجتمع الصلاة والرعاية ضمن الحكم، وأن يكون بذل الرحمة نفسه طاعة. وقد يحتاجان إلى تقاسم الوقت أو اختيار مكان آمن أو تخفيف نافلة؛ هذه أسباب لا تنقص المقصد.

التطبيق أن يفرق المرء بين حركة الحاجة وحركة العبث. الأولى يتعلم حكمها ويؤديها بقدرها، والثانية يقلل أسبابها. وإذا رأى غيره يتحرك لم يبادر إلى الحكم على قلبه؛ قد يكون له عذر لا يعلمه. الخشوع يعلم الأدب مع الله ومع الناس في آن.

أذكار الصلاة قليلة جامعة، وحفظ معانيها يعين على الحضور. من جمع صيغاً كثيرة قبل ضبط أصلها قد ينتقل بلسانه وقلبه لا يعرف. يبدأ بالثابت المشهور، ثم يتعلم التنوع النبوي من مصدر موثوق.

التنوع يمنع الملل ويحقق الاتباع، لكنه لا يعني تبديل الصيغة في كل مرة بقلق. يستعمل ما حفظ، ويتعلم غيره تدريجياً. لا يحكم على من لزم صيغة ثابتة صحيحة بالنقص.

وفهم الذكر لا يحتاج شرحاً طويلاً أثناء الصلاة. يدرس معنى «سبحان» و«العظيم» و«الأعلى» خارجها، ثم يستحضر إجمالاً. إذا حاول استرجاع درس كامل ضاع الذكر.

ومن الأمانة ألا ينسب فضلاً عددياً لصيغة بلا دليل. المحبة لا تبرر الزيادة في النسبة. ما كان دعاءً مطلقاً بقي مطلقاً، وما كان ذكراً مقيداً حفظ قيده.

رحمة تسمع بكاء الصبي

النص الشرعي: ثبت في صحيح البخاري 709 أن النبي ﷺ كان يدخل الصلاة يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبي فيتجوز فيها لما يعلم من شدة وجد أمه من بكائه. الحديث يجمع حضور النية في العبادة مع وعي بحال المأموم، ويمنع تصور الخشوع كعزلة عن الناس. الإمام لم يبلغ أصل الصلاة، ولم يجعل كل طارئ حاكماً عليها، لكنه راعى مشقة حقيقية داخل حدود السنة. هذه الرحمة ليست تنازلاً عن الخشوع؛ إنها ثمرة من ثمراته. من وقف لله صار أقدر على رؤية الضعيف، لا أقل قدرة. ومن فقه العبادة أن يعرف أن طَوْلاً مشروعاً في ذاته قد يصير في مقام بعينه سبب حرج.

يمتد المعنى إلى صور كثيرة من غير قياس فقهي متعجل. المعلم يراعي مبتدئاً فلا يغرقه بالتفاصيل، والوالد يهيئ لطفه طريق الصلاة ولا يحمله صورة الكبار، والمسؤول يرتب وقت الجماعة بحيث لا يهدر حقوقاً لازمة. المقصود مبدأ الرحمة المنضبطة، أما الأحكام التفصيلية فمرجعها العلم.

الوعي بمن حولنا لا يناقض مناجاة الله. الخشوع ليس غيابة عن المكان؛ المصلي يدرك الصف، ويتابع الإمام، ويسد خلاً مشروعاً، ويستجيب لحاجة معتبرة. الذي يناقض الخشوع هو الاسترسال فيما لا يعني، لا كل إدراك للواقع. هذا الفرق يريح من يظن أن حضور القلب لا يصح إلا بانطفاء الحواس.

كما يصحح الحديث فهم القيادة. القائد الخاشع لا يجعل قدرته على الاحتمال معياراً يلزم به الجميع. يسأل عن أضعف من معه، ويحفظ المقصد، ويخفف من غير تضييع. لا يستعرض طول العبادة على حساب أم تحمل طفلاً أو كبير يشق عليه القيام.

تطبيق: يراجع الإمام أو رب البيت أو من يقود جماعة عادة واحدة قد تشق على غيره: طول غير مناسب، وقت غير منظم، أو لغة لوم. ثم يسأل أهل الحاجة لا جمهور المادحين. إذا ثبتت المشقة عاجلها بالعلم والعدل. الرحمة هنا ليست شعوراً باطنياً يدعى، بل قرار يمكن أن يلمسه من خف عنه الحرج.

32 | كان إذا حزبه أمر صلى

وموضع الاستدلال هنا سنن أبي داود 1319.
خطوة قريبة: أن تكون الصلاة أول أبواب التثبيت، ثم يتبعها ما يلزم من عمل.

دليل الباب — الحديث: روى أبو داود (1319) عن حذيفة: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى»، وقد حسنه الألباني. ويفيد النص أن الصلاة كانت رجوعاً إلى الله عند الشدة، مع بقاء الأخذ بالأسباب المشروعة في موضعه.

الصلاة في الأزمة لا تعني الهروب من القرار، بل تصحيح موضع القلب قبل القرار. يقف العبد فيتذكر أن الأمر ليس خارج ملك الله، ويسأله العون، ثم يعود إلى واجبه أهذا وأصدق. فإذا كانت الشدة تستدعي فعلاً عاجلاً أو إنقاذاً أو أداء حق، قدم ما يجب ولم يجعل النافلة ذريعة للتأخير.

ويمكن تدريب القلب قبل الأزمات الصغيرة: ركعتان مشروعتان عند هم معتبر، أو فريضة تؤدي في أول وقتها مع إبعاد الهاتف، ثم كتابة الخطوة العملية التالية. هكذا ترتبط الصلاة بالمسؤولية، فلا تصير حركة لتهدئة الانفعال فقط، ولا يتحول التخطيط إلى اعتماد على النفس وحدها.

الصلاة أول الطريق لا آخره

وفي سنن أبي داود (1319) أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى، وقد حسنه الألباني. والاستدلال يثبت الرجوع إلى الصلاة، ولا يثبت أن كل مشكلة تحل بلا عمل بعدها.

تضع الصلاة الأمر في حجمه: هو كبير على العبد، صغير على قدرة الله. ثم يعود الإنسان إلى ما كلف به؛ يتصل بمن يلزم، أو يعتذر، أو يكتب خطه، أو يستشير. ترك السبب بعد الصلاة قد يكون تقصيراً لا توكلاً.

ومن التدريب أن يكتب بعد السلام خطوة واحدة يمكن تنفيذها خلال يومه. لا يجعل الكتابة عبادة موقوتة، بل وسيلة لتنظيم المسؤولية. بهذا يمنع نفسه من استعمال الراحة القلبية غطاءً للتأجيل، ويجعل الخشوع طاقة صدق وعمل.

موازنة: الصلاة عند الملمة تثبت القلب وتصحح الوجهة، لكنها لا تصبح ذريعة لتأخير واجب الوقت. إذا كان أمام المرء مصاب يحتاج إسعافاً، أو حق يخشى فواته، أدى الواجب؛ وإذا اتسع الوقت صلى ما شرع واستعان بالله. فقه الأولويات جزء من العبودية.

ومن التطبيق أن يجعل الصلاة بوابة قرار: يدخلها طالب هداية لا طالب تصديق لرأيه، ثم يخرج إلى المشاورة وجمع السبب

والعمل. إذا زال اضطرابه وبقيت المشكلة، لم يقل إن الصلاة لم تنفع؛ من ثمرتها أن يواجه البلاء عبداً لا متأهلاً على النتيجة.

الصلاة عند الشدة تعيد القلب إلى التكليف

النص والأصل: رُوي عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى، في سنن أبي داود (1319)، وقد حسنه الألباني. ويناسب هذا الأصل القرآني العام في الاستعانة بالصبر والصلاة [البقرة: 45]. ولا يثبت من الخبر أن الصلاة كانت تغني عن كل سبب دنيوي، ولا أن كل أزمة تزول فور الفراغ منها. الصلاة عند الشدة ليست مهرباً من القرار، بل إعادة ترتيب للقلب قبل القرار أو في أثناءه. يقف العبد بين يدي من بيده الأمر، فيستعيد فقره وحدوده، ثم يعود إلى ما كلف به من مشورة وعلاج ورد حقوق وسعي. قد تتغير النتيجة، وقد تبقى الشدة، لكن العبادة تمنع أن يكون الخوف هو الرب الذي يملئ كل اختيار.

حد الوعد: لا يقال لمن صلى وبقيت مصيبتة إن صلاته لم تقبل أو إن يقينه ناقص. القبول غيب، والفرج له حكمة ووقت، والصلاة عبادة واجبة أو نافلة بحسب حالها وليست معاملة تضمن صورة عاجلة. الذي يثبت هو أن الله أمر بالاستعانة بها، وأن النبي ﷺ رجع إليها عند الأمر الذي يحزبه.

تطبيق: قبل الصلاة يكتب صاحب الأزمة - أو يحدد في نفسه - ما يقدر عليه وما لا يقدر عليه. في الصلاة يسأل الهدى والعون، وبعدها يبدأ بالسبب الأقرب: اتصال، واستشارة، ومعلومة، واعتذار، أو انتظار منضبط. فإذا عاد القلق أعاده إلى ربه من غير أن يهمل الملف. الخشوع يجعل الصلاة مركزاً للحركة الصحيحة، لا ستاراً للتأجيل.

ورد في صحيح البخاري 1231 علاج من التبس عليه أعدد الركعات بسجود السهو في الحالة المذكورة. وجود أحكام السهو نفسه رحمة تربوية: الإنسان ينسى، والشرعية لا تبني عبادته على ادعاء ذاكرة لا تخطئ. تعطيه طريقاً للتصحيح بدل أن تتركه بين اليأس والإعادة التي لا تنتهي.

ليس معنى ذلك الاستهانة بالشروء؛ الحديث يذكر تدخل الشيطان وتذكيره بأشياء حتى يلبس الصلاة. لكن العلاج منضبط، لا مفتوح للقلق. يتعلم المصلي أحكام الشك والسهو من مصدر معتبر، ويعمل بها، ولا يجعل كل خاطر سبباً لاستئناف الصلاة.

وتظهر هنا فائدة التفريق بين الصحة والكمال. قد يقع نقص في الحضور مع صحة الصلاة بحسب الحكم، وقد يقع خلل في ركن يحتاج تصحيحاً. لا يحكم الكتاب في الواقعة الخاصة، لكنه يدعو إلى التعلم بدل جمع كل شيء تحت كلمة «لم أخشع». العلم يحدد

ما يحتاج إلى سجود أو إعادة أو تجاهل، ويترك للقلب مجاهدة حضوره.

من التطبيق إعداد ورقة معرفة لا ورقة وسواس: يتعلم القواعد الأساسية مرة من معلم أو كتاب موثوق، ويسأل عن الحالة المتكررة، ثم يغلق الباب. وإذا استمر الشك على صورة مرضية طلب مساعدة مناسبة. قبول الرخصة والحكم من الخشوع للشرع؛ لا يزداد الإنسان قرباً بتعذيب نفسه بما لم يؤمر.

إذا حزب المؤمن أمر صلى، ومعنى اللجوء هنا أن يرد قلبه إلى ربه قبل أن تستبد به الأسباب. لكنه لا يتخذ الصلاة بديلاً عن المشورة والاستشارة والتحليل. بعد أن يصلي يجمع المعلومات ويتحمل مسؤولية اختياره.

قد يدخل الصلاة وهو يريد جواباً محدداً، ثم لا يجد علامة. لا يلزم أن يرى رؤيا أو انشراحاً قاطعاً. ينظر في الحلال والحرام والمصلحة، ويستشير، ثم يقدم. التوكل يكون بعد بذل السبب لا بعد انتظار إشارة مبهمّة.

وإذا بقي التردد اختار ما يغلب على ظنه، ويقبل احتمال الخطأ. الخشوع لا يمنح العصمة في القرارات؛ يمنح العبد أدب الرجوع إذا تبين له خلاف ما ظن.

في الشدة الجماعية لا يستغل القائد صلاة الناس لتثبيت رأيه. العبادة تجمعهم على الله، والقرار يبقى محتاجاً إلى بينة وشورى.

الباب الخامس: قصص الخاشعين من السلف

الصلاة لا تؤجل القرار الواجب

النص الشرعي: حديث أبي داود 1319 يثبت رجوع النبي ﷺ إلى الصلاة إذا حزبه أمر. وفي القرآن الأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة [البقرة: 45]. لفظ الاستعانة يدل على طلب القوة لما بعد الصلاة، لا على إيقاف سائر التكليف.

قد يدخل الإنسان الصلاة لأنه يخاف قراراً صعباً، ثم يخرج فيؤجله باسم التوكل. هذا ليس لازم الحديث. الصلاة تعيد النية والميزان، لكنها لا توقع العقد بدل صاحبه، ولا ترد المظلمة من غير فعل، ولا تغني عن فحص طبي أو استشارة فنية. العبادة تهيء العبد لأداء ما كلف به.

هناك فرق بين التأني المشروع والتسويق. التأني يجمع معلومات، ويطلب مشورة، ويحدد زمناً للقرار. أما التسويق فيعيد السؤال نفسه كل يوم بحثاً عن شعور كامل لا يأتي. الخشوع يساعد على قبول قدر من عدم اليقين: يفعل المرء ما ترحح بعد بذل الوسع، ويعلم أن العصمة ليست له.

من آثار الصلاة في القرار أربعة: تنقية المقصد من الانتقام أو السمعة، وضبط الوسيلة فلا تتجاوز الحلال، وتذكر حقوق المتأثرين، وتسليم النتيجة لله. إذا غاب واحد منها احتاج القرار إلى مراجعة. ولا يعني ذلك أن كل قرار بعد الصلاة صواب؛ المصلي يخطئ، ولذلك يبقى محتاجاً إلى علم ومشورة وتصحيح.

في الأزمات الجماعية يشتد هذا المعنى. لا يكفي أن ندعو للمحتاجين ثم نترك القدرة التي بأيدينا. قد تكون النصرة مآلاً، أو كلمة حق، أو عملاً مهنياً، أو التزاماً بنظام يحفظ النفوس. ولا يحق لأحد أن يفرض على غيره وسيلة لم يوجبها الشرع ثم يقيس خشوعه بها.

تطبيق: قبل أن يطلب الإنسان علامة شعورية بعد الصلاة، يكتب عناصر القرار: الحكم الشرعي المعلوم، والحقائق المؤكدة، والاحتمالات، وأصحاب الحقوق، وآخر موعد. ثم يستشير من يلزم ويمضي. إن ظهر خطأ صححه. هكذا تصير الصلاة عوناً على المسؤولية، لا غرفة انتظار مفتوحة.

33 | أبو بكر ورقة قلبه

وصفت عائشة أبا بكر بأنه إذا قام مقام النبي ﷺ لم يسمع الناس من البكاء. الثابت يدل على رقة عرفت بها قراءته، ولا يبيح اختراع مشهد وراء الخبر.

وموضع الاستدلال هنا صحيح البخاري 679. خطوة قريبة: الانتفاع بالقصة في تعظيم القرآن، لا في قياس صدق الناس بمقدار دموعهم.

في صحيح البخاري 679 وصفت عائشة رضي الله عنها أبا بكر بأنه إذا قام مقام النبي ﷺ لم يسمع الناس من البكاء، ومع ذلك ثبت الأمر له أن يؤمهم. هذا القدر المحقق يكشف توازناً مهماً: رقة القلب ليست عجزاً عن حمل المسؤولية، والبكاء ليس غاية مستقلة، والعبادة الصادقة لا تعزل صاحبها عن واجبه. كان الموضع موضع إمامة وأمانة، فاجتمعت رقة أبي بكر مع تقدمه للناس.

ومن هنا لا يصح أن نجعل الخشوع صورة من الانكسار الذي يعطل صاحبه أو يسقط عنه حقوق من حوله. القلب الرقيق قد يكون أشد القلوب قياماً بالأمر، لأنه يعرف عظمة من كلفه، ويستشعر ثقل الأمانة. وليس في الحديث ميزان يُحاكم به الناس بحسب ظهور دموعهم؛ إنما فيه وصف لحال صحابي ثبتت إمامته

وفضله. التلخيص التربوي: ليكن أثر القراءة مزيد صدق في الوظيفة والحق، لا طلباً لصورة وجدانية يراها الآخرون.

رقة أبي بكر ووظيفة الإمامة

وفي الحديث: في صحيح البخاري 712 وصفت عائشة رضي الله عنها أبا بكر بأنه رجل أسيف، وأنه إن قام مقام النبي ﷺ بكى فلم يقدر على القراءة، في سياق أمره ﷺ أن يصلي بالناس. الخبر ثابت، ولا يحتاج إلى إضافة حوار أو حال باطن وراء ألفاظه. وفي البخاري 679 أن الناس لا يسمعون قراءته من البكاء؛ فتتكمّل الطريقان من غير خلط بين لفظيهما.

الرقة لم تمنع أبا بكر من حمل مسؤولية الإمامة. هذه موازنة مهمة: الخشوع ليس ضعفاً يعطل الواجب، بل قد يجتمع معه الثبات. ولا يلزم أن ينسخ الناس طبعه؛ لكل إنسان جبلته، والمطلوب صدق القراءة وأداء الأمانة.

كما أن الخبر لا يجعل البكاء شرطاً للإمامة أو ميزان تفاضل منفرداً. العلم بالصلاة والقراءة والمسؤولية أبواب قائمة، والدمع أثر. حين يوضع كل معنى في مرتبته يبقى الاقتداء علياً، ولا يتحول الصحابي إلى صورة وجدانية مصنوعة.

لم يكن وصف عائشة رضي الله عنها لأبي بكر في صحيح البخاري 679 شهادة على دمة منفصلة عن الحياة؛ فقد قيل الوصف في

مقام إمامة الناس، وهو تكليف ظاهر يحتاج ضبطاً وثباتاً. كانت تخشى أن لا يسمع الناس من شدة بكائه، وبقي أمر النبي ﷺ أن يصلي بالناس. في هذا الاجتماع يصحح الخبر وهمين: أن رقة القلب ضعف يعطل المسؤولية، وأن القدرة على المسؤولية تستلزم قلباً جافاً. قد يخشع المرء ويحمل أمانة الجماعة في الوقت نفسه.

ولا يملك القارئ أن يحول الخبر إلى اختبار للآخرين: من بكى فهو خاشع، ومن لم يبك فليس كذلك. الحديث يصف أبا بكر ولا يضع جهازاً لقياس البواطن. المعتبر أن يؤدي التأثير إلى طاعة واضحة؛ فالقراءة التي تذكّر بالله ثم تزيد صاحبها أمانةً ورحمةً أقرب إلى الثمرة، أما البحث عن صوت البكاء وصورته فقد ينقل القلب من القرآن إلى نفسه. ومن التدريب النافع أن يسأل المرء بعد تلاوته: ما الحق الذي أعاني هذا المعنى على أدائه؟ لا: كيف بدا صوتي وأنا أتأثر؟

ثبت في الصحيح خبر تقديم أبي بكر رضي الله عنه للصلاة في مرض النبي ﷺ، وذكرت عائشة رضي الله عنها رفته وأنه إذا قام مقام النبي ﷺ غلبه البكاء فلا يسمع الناس. وتختلف أرقام الروايات وسياقاتها، ولذلك يلزم عند النقل ألا تجمع ألفاظاً متفرقة في جملة واحدة توهم أنها نص واحد. المقصود هنا معنى ثابت في الجملة: رقة قلب صحابي جليل ظهرت عند قراءة القرآن وتحمل مقام عظيم.

هذه الرقة لم تكن عجزاً عن المسؤولية؛ أبو بكر هو صاحب المواقف المعروفة في الثبات، وقد تولى ما تولى. اجتماع الدمع والحزم يهدم صورة شائعة تجعل القلب الرقيق ضعيف القرار. الخشوع لا يزيل القدرة على القيادة، بل يطهرها من كثير من حظ النفس.

ولا يصح أن نجعل عدم بكاء قارئ آخر نقصاً بمجرد المقارنة. أحوال الناس وأصواتهم مختلفة، والشرعية لم تأمر الإمام أن يستدعي البكاء حتى يخفى صوته. واجبه القراءة الصحيحة وإسماع المأمومين بحسب الحال، فإن غلبه البكاء عارضاً لم يجعل منه عرضاً.

العبرة أن القرآن كان عندهم خطاب تكليف ووعد ووعيد، لا مادة أداء فقط. وكل قارئ يستطيع أن يأخذ من ذلك نصيباً: يفهم ما يقرأ، ويحفظ حق الجماعة، ولا يتكلف أثراً. فإن رق قلبه ستر نعمة الله ما استطاع، وإن لم يظهر عليه شيء لم يترك التدبير والعمل.

حين يقدم الأعم أو الأقدر لا تُهان الرقة

قد يقع في المؤسسات والأسر أن يعتذر شخص عن مهمة لأنه يتأثر أو يضطرب، فيسخر منه آخرون، أو يقدمونه رغم عجز ظاهر بحجة أن الرقة فضيلة. الهدى المتوازن يحفظ كرامته ويقدر

المصلحة. ينظر في طبيعة المهمة، ويعينه إن أمكن، ويقدم الأقدار عند الحاجة من غير حكم على إيمان أحد.

الركة صفة قلبية محمودة إذا قادت إلى حق، لكنها ليست وحدها معيار توزيع الأعمال. الإمامة لها أحكام، والقضاء له أهلية، والإدارة تحتاج علماً وقدرة. جمع الصفات نعمة، وإذا تفرقت روعيت النصوص والمصالح.

ومن الظلم أن يستغل القائد تأثيره لإسكات المراجعة، أو أن يجعل دموعه حجة على صحة قراره. المشاعر الصادقة محترمة لكنها ليست دليلاً مستقلاً. القرار يوزن بالشرع والواقع، ويمكن للإنسان أن يبكي ويخطئ، وأن يتناسك ويصيب.

التطبيق في كل موقف مؤثر أن نفصل بين أمرين: صدق الشعور، وصحة الحكم. لا تنتهم الأول بلا بينة، ولا تثبت الثاني بالأول. هذا الميزان يحفظ القلوب والحقوق معاً.

الإمام لا يقرأ لنفسه وحدها. خلفه كبير ومريض وصاحب حاجة، ولذلك يراعي السنة وحال الجماعة، ويقيم الحروف من غير تكلف نغم يشغله عن المعنى أو يشق على الناس. جمال الصوت نعمة، لكنه تابع للأداء لا سيد عليه.

إذا غلب البكاء فانقطع البيان، هدأ حتى يستطيع، ولا يكرر المقطع طلباً لزيادة الأثر. وإن عرض له شيء يسير مضى. هذه

التفاصيل يضبطها الفقه والحال، ولا يصلح أن يتحول كل موقف إلى معيار عام.

ومن الأمانة ألا ينتقي الإمام دائماً آيات العذاب ليصنع تأثيراً، ولا يطيل فوق طاقة الناس. القرآن كله هدى، والجماعة لم تجتمع لتشهد تجربة القارئ. الخشوع الحقيقي يجعله أرفق بهم وأقل التفاتاً إلى انطباعهم عنه.

أما المأموم فيحسن الاستماع، ولا يراقب القارئ: هل بكى؟ هل تغير صوته؟ هذه المراقبة تسرق نصيبه. يعود إلى الآية، وإذا أخطأ الإمام في موضع يحتاج فتحاً فتح عليه وفق الحكم، لا وفق الرغبة في إظهار العلم.

البكاء من خشية الله فضل عظيم، لكنه لا يمنح صاحبه شهادة دائمة. قد يبكي اليوم ويقسو غداً، وقد يعصي بعد طاعة؛ لذلك يشكر ولا يعتمد على الحال. وأشد ما يفسده أن يتحول إلى قصة يكررها ليقيم صورته عند الناس.

ليس المطلوب كتمان كل خبر مشروع؛ قد يذكر المعلم واقعة ثابتة لفائدة، أو يصف الإنسان مرضاً يحتاج إلى تفسير. لكن الأصل في أحوال العبادة الخاصة الستر، لأن السر أقرب إلى السلامة وأبعد عن المقارنة.

ومن لم يبك لا يعاقب نفسه بتخيل المصائب ولا يضغط على عينه. يقرأ، ويفهم، ويسأل الله قلباً لينا. ربما كان أثره في رد حق أصدق من انفعال سريع. لا نحتقر الدمع ولا نعبده. إذا وقع البكاء في الصلاة، فليكن التعامل بسيطاً: يمسح ما يحتاج، ويعود إلى القراءة والذكر، ولا يبدأ تحليل حاله أثناء العبادة. بعد الصلاة يحمد الله ويستغفر من النقص ويمضي إلى حقوقه.

34 | الخشوع للحق قبل أثر الحكاية

وموضع الاستدلال هنا [مريم: 58] و[الإسراء: 107-109].
خطوة قريبة: إذا سمعت قصة مؤثرة في العبادة، نخذ منها العبرة
بعد ثبوتها، ولا تجعل حرارة المعنى تغنيك عن صدق النسبة.
من الخشوع أن يخضع القلب للحق كما يخضع في الصلاة؛ فلا
يحتاج إلى زيادة على الوحي كي يرق، ولا إلى حكاية غير ثابتة كي
يستجيب. يصف القرآن أهل العلم إذا تلى عليهم كلام الله بأنهم
يخرون للأذقان سجداً ويكون ويزدادون خشوعاً [الإسراء: 107-
109]، ويصف عباد الرحمن إذا تلى عليهم الآيات بالسجود
والبكاء [مريم: 58]. هذا الأصل وحده كافٍ ليُعلم القلب أن
التأثر بالوحي عبادة، وأن الصدق في نقل ما يؤثر في الناس جزء
من تعظيمه.

وقد تعلق النفس بقصة لأنها قصيرة، أو شديدة الأثر، أو
قريبة من صورة الصالحين التي تحبها. لكن المحبة لا تحتاج أن
تضيف إلى من نحب ما لم يثبت عنه. بل من الوفاء لهم أن نحفظ
أسماءهم من الخبر الذي لم نتبينه، وأن نربي أنفسنا على أن جمال
المعنى لا يحول الظن إلى يقين.

وهذا الأدب ينعكس على حياة القارئ كلها. حين يسمع خبراً
يحرك خوفه أو رجاءه، لا يسارع إلى نشره لمجرد أنه وافق ما

يجب. يسأل عن أصله، ويميز بين النص الثابت والتفسير والموعظة، ثم يأخذ من كل واحد قدره. وليس المقصود أن يتحول كل إنسان إلى محقق متخصص، بل أن يتعلم التوقف حين لا يعلم، وأن يسأل من يعرف، وأن يستغني بالمحكم عما لم يثبت.

والقلب الذي يتربى على هذا الصدق يكون أقدر على الخشوع؛ لأنه لا يطلب التأثير بأي ثمن. قد يقرأ آية يعرفها منذ سنين فتفتح له اليوم باباً جديداً، وقد يسمع حديثاً ثابتاً قصيراً فيكون أبلغ من صفحات من الحكايات. المعيار ليس مقدار الدهشة، بل مقدار ما يقود إلى معرفة أصدق، وعبادة أصح، وحق يؤدي.

تطبيق: اختر آية واحدة من [الإسراء: 107-109] أو [مريم: 58]، واقرأ معناها من تفسير موثوق، ثم اسأل نفسك: ما الذي يطلبه مني هذا الخطاب اليوم؟ قد يكون سجدةً بطمأنينة، أو ترك ذنب، أو رد حق، أو كف اللسان عن خبر لا تعلم صحته. هكذا يصبح الخشوع للحق خلقاً في الصلاة والكلام معاً.

35 | عثمان وذكر القبر

روى الترمذي عن هانئ مولى عثمان بكاء عثمان رضي الله عنه عند القبر، وجاء في الخبر مرفوعاً وصف القبر بأنه أول منازل الآخرة، ونص الترمذي على أنه حديث حسن غريب. وموضع الاستدلال هنا جامع الترمذي 2308. خطوة قريبة: ذكر الموت بما يدفع إلى العمل والحقوق، لا بما يقطع الرجاء.

الخبر المحقق وحدوده

روى الترمذي 2308 عن هانئ مولى عثمان أن عثمان رضي الله عنه كان إذا وقف على قبر بكى حتى تبطل لحيته، وذكر حديث القبر أول منازل الآخرة. ونص الترمذي على أن الحديث حسن غريب، كما تعرض الصفحة درجة «حسن». هذا خبر يجمع أثر الصحابي والحديث المرفوع في سياق واحد، ولذلك ينبغي عند نقله الفصل بينهما: بكاء عثمان أثر رواه هانئ، ووصف القبر جملة مرفوعة في الخبر نفسه.

ووجه الدلالة ليس صناعة الخوف المجرد، بل نقل ذكر الموت من معلومة بعيدة إلى مراجعة قريبة. من خشع عند القبر لم يطلب منه أن يعيش مذعوراً، وإنما أن يصلح ما قبل الرحيل: توبة من

ذنب معلوم، ورد حق، ووصية واجبة، ورحمة بأهل المصائب. إذا صار ذكر الموت ذريعة إلى اليأس أو تعطيل العمل فقد خرج عن ميزانه؛ فالآخرة تدفع المؤمن إلى الاستعداد، ولا تقطع رجاءه في رحمة الله.

تذكر القبر يثر حين يدفع إلى توبة ورد حق، لا حين يتحول إلى مشهد مخيف يعاد بلا عمل. بكاء الصحابي خبر له إسناده، وليس وصفة لإظهار الحزن عند كل قبر.

ويحفظ الواعظ حرمة المقابر وأهل المصائب، فلا يضيف تفاصيل غيبية أو حواراً لم يثبت. من صدق ذكر الموت أصلح ما يستطيع قبل أن يصبح عاجزاً عنه، وجمع الخوف من الحساب برجاء رحمة الله.

القبر يرد المواعيد البعيدة إلى يومك

يروى الترمذي (2308) عن هانئ مولى عثمان خبر بكاء عثمان عند القبر، وفيه الجزء المرفوع في وصف القبر. والمقصود هنا ليس تكرار المشهد، بل سؤال النفس عن أثره: هل يقرب الأجل من جدول اليوم، أم يتحول إلى صورة مؤثرة تستهلك نفسها ثم تنطفئ؟ وحفظ التفريق بين الأثر والمرفوع من أمانة العلم؛ لأن توقيف الموت لا يبيح التساهل في النسبة.

ثمرة الخبر ليست تكثير صور الخوف، بل تقصير المسافة بين «سأفعل» و«أفعل الآن». من تذكر أول منازل الآخرة راجع ديناً مؤجلاً، وكتب وصية واجبة، وطلب الصفح عن مظلمة، وجدد توبة من ذنب يعرفه. ولا يطالب نفسه أن يبكي كعثمان؛ فالتأسي هنا في اعتبار القلب واستعداد العمل، لا في نسخ حال وجداني. والخوف المنضبط لا يقتل الرجاء: من عرف الرحيل أسرع إلى باب الرحمن، ولم يقنط من رحمته أو يهمل عمارة دنياه بما أمر الله.

يجمع الترمذي (2308) بين أثر يرويه هانئ عن عثمان رضي الله عنه عند القبر، وكلام مرفوع في أن القبر أول منازل الآخرة، وحكم الترمذي على الخبر بأنه حسن غريب. ومن الأمانة الفصل بين الطبقتين، وعدم زيادة وصف باطني على المنقول.

أصل محكم: يقرر القرآن مجيء سكرة الموت بالحق [ق: 19]، ويقرر أن كل نفس ذائقة الموت [آل عمران: 185]. هذان الأصلان كافيان لبناء محاسبة لا تعتمد على خبر لا يثبت أصله. ذكر الموت في باب الخشوع يرد القلب إلى النهاية التي تسقط زخرف العاجل، لكنه لا يحول الحياة إلى هلع يعطل الواجب. تطبيق: يراجع العبد حقاً يخشى أن يدركه الموت قبل أدائه: دين، مظلمة، وصية لازمة، أو توبة. المقصود حركة إلى

الاستعداد، لا صناعة صورة وجدانية عن السلف لم تثبت
تفاصيلها.

36 | معنى الصلاة قبل الرواية

والثابت أن الصلاة قيامٌ لله بالقنوت والحفظ، وأن الخشوع ليس صورةً تُحكى، وإنما عبوديةٌ يظهر أثرها في القلب والجوارح.. وموضع الاستدلال هنا [البقرة: 238].
خطوة قريبة: صيانة المحبة للصحابة من أن تبني على حكايات لا تثبت.

محبة الصحابي لا تبيح اختراع حاله

والقاعدة نافعة فيما يتجاوز هذا المثال: ليس حذف الخبر غير المحقق نقصاً في مقام الصحابي، بل صيانة لمقامه. ومن خشوع الباحث أن يقول: لم يثبت لي. أما التطبيق العملي فهو أن يدخل المصلي الصلاة مستحضراً أنه قائم لله؛ يرد المظالم، ويستعد للطهارة، ويؤدي الركن بطمأنينة. هذه أعمال يمكن التحقق منها، وهي أقرب إلى معنى القنوت من ملاحقة انفعال لا يملكه العبد. عظمة الصلاة ثابتة بنصوص القرآن والسنة، والطمأنينة ثابتة بتعليم النبي ﷺ للهيء صلواته في صحيح البخاري 757. ومن هذه الأصول يفهم معنى الوقوف بين يدي الله من غير حاجة إلى حكاية لم يثبت أصلها.

صيانة مقام علي من زخرفة الواعظ

القيام لله لا يحتاج قصة غير ثابتة حتى يصير مؤثراً. يكفي أن يفهم المصلي أنه انتقل من مخاطبة الخلق إلى مناجاة ربه، وأن يستعد لذلك بطهارة صحيحة ورد حق عاجل وإغلاق شاغل يمكن إغلاقه. وحفظ مقام علي رضي الله عنه يكون بالألا ينسب إليه ما لم يثبت؛ فالصدق في العلم من الخشوع للحق، وهو يمنع اللسان من تجاوز ما يعلم. وهكذا يجتمع تعظيم الصلاة مع تعظيم أمانة النقل. يمكن للفصل أن يقرر من النصوص الثابتة أن الصلاة قيام بين يدي الله، وأن الطمأنينة ركن في تعليم المسيء صلاته [صحيح البخاري 757، وصحيح مسلم 397a]، وأن العبادة لا تستقيم من غير علم بهيئتها. هذا البناء يغني عن قصة محبوبة حتى تتحقق، ويحفظ مقام الصحابي من نسبة لا ثبت.

هيبة الصلاة لا تعني عجزاً عن أداء حقوقها، بل تعظيماً يحمل على تعلمها وإقامتها. والمعنى الصحيح لا يتوقف على قصة غير ثابتة ما دامت أصوله محفوظة في القرآن والسنة الصحيحة.

37 | ابن مسعود والقرآن

طلب النبي ﷺ من ابن مسعود أن يقرأ عليه سورة النساء، فلما بلغ آية الشهادة قال له حسبك، فإذا عيناه تذرفان. المشهد ثابت ويدل على سماع تدبر.

وموضع الاستدلال هنا صحيح البخاري 5050. خطوة قريبة: الاستماع إلى قارئ متقن أحياناً، فالقلب ينتفع بالسماع كما ينتفع بالتلاوة.

سماع يفتح موضع الشهادة

في صحيح البخاري 5050 طلب النبي ﷺ من ابن مسعود أن يقرأ عليه. فلما بلغ قول الله تعالى في سورة النساء: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: 41] قال له: «حسبك الآن»، فإذا عيناه تذرفان. النص يحدد الآية والمشهد، فلا حاجة إلى إضافة حوار أو وصف باطني لم يرد. وفيه أن الاستماع باب من أبواب التدبر، وأن القارئ قد يفتح للسامع معنى لم يفتحه ترديده منفرداً. لكنه لا يجعل حسن الصوت بديلاً من الفهم، ولا يجعل الدموع دليلاً وحيداً على الانتفاع. الآية تستحضر الشهادة والبلاغ والمسؤولية؛ فثمرة سماعها أن يتساءل العبد عن موقفه من الرسالة التي بلغته. تدريب عملي:

استمع إلى مقطع قصير من قارئ متقن، اقرأ تفسيراً موثقاً لمعناه، ثم اكتب أثراً عملياً واحداً دون تكلف انفعال.

وفي الحديث: ثبت في صحيح البخاري 5050 أن النبي ﷺ طلب من ابن مسعود أن يقرأ عليه القرآن، فلما بلغ موضع الشهادة على الأمم دمعت عينا النبي ﷺ وأمره أن يمسك. الخبر يثبت القراءة والسماع والموضع والدمع، ولا يبيح اختراع شعور الراوي. قد يعرف الإنسان السورة ويحفظها، ثم يسمعها من غيره فتفتح له باباً جديداً. السماع عبادة تعلم التلقي، ويمنع القارئ من حبس علاقته بالقرآن في أدائه هو. كما أن الوقوف عند موضع مؤثر لا يعني الاقتصار على الانفعال؛ الآية تذكر الشهادة والمسؤولية. ومن التطبيق أن يتناوب أهل البيت قراءة مقطع قصير مع تفسير موثق، بلا تحويل المجلس إلى أداء تمثيلي. المقصود أن يسمع كل واحد كلام الله من خارج صوته المعتاد، ثم يخرج بمعنى يعمل به.

ابن مسعود يقرأ والنبي ﷺ يسمع

يفتح صحيح البخاري 5050 نافذة ثابتة لا تحتاج تحسیناً قصصياً: طلب النبي ﷺ من ابن مسعود أن يقرأ عليه القرآن، فاستغرب ابن مسعود أن يقرأ على من أنزل عليه، ثم قرأ من سورة النساء. فلما بلغ [النساء: 41] قال له النبي ﷺ: «حسبك الآن»،

فإذا عيناه تذرفان. هنا قارئ وسامع وآية شهادة؛ ولا يخبرنا النص بكل ما دار في القلب، فلا نخترعه.

يعلم المشاهد أن السماع المتدبر عبادة، وأن الاستقلال بالتلاوة ليس الطريق الوحيد للانتفاع. وقد يسمع العالم ممن هو دونه فضلاً وعلماً؛ فالقرآن هو المقصود، والقارئ وسيلة. لكن الأثر لا ينتهي عند الدمع: آية الشهادة تضع السامع أمام مسؤولية البلاغ والاستجابة. لذلك يكون التدريب المتزن أن يستمع إلى مقطع قصير بقراءة متقنة، ثم يقرأ تفسيراً موثقاً، ويسأل: ماذا تشهد هذه الآية عليّ اليوم؟ جواب عملي واحد أصدق من ساعات سماع لا تغير خلقاً ولا قراراً.

النص المثبت وحدوده: في صحيح البخاري 5050 قرأ ابن مسعود رضي الله عنه سورة النساء على النبي ﷺ، فلما بلغ آية الشهادة [النساء: 41] قال له: «حسبك الآن»، فإذا عينا النبي ﷺ تذرفان. الثابت قراءة ابن مسعود وسماع النبي والموضع والدمع؛ فلا يزداد وصف لباطن القارئ أو السامع.

أصل محكم: وصف الله أهل العلم إذا يتلى عليهم القرآن بأنهم يخرون للأذقان سجداً، ويسبحون ربهم، ويزيدهم خشوعاً [الإسراء: 107-109]. هذا وصف قرآني جامع لا يحتاج إلى تزيين قصصي. كما أن العلم النافع يقود إلى الخشية [فاطر: 28]، فلا ينفصل حسن التلاوة عن أثر العلم والعمل.

تطبيق: لا يسأل القارئ أولاً: هل تأثرت كما تأثر فلان؟ بل:
ماذا علمت، وبماذا صدقت، وما الذي أطعته؟ الخبر الصحيح
أنس وشاهد، لكنه لا يحول الدمع إلى مقياس وحيد للانتفاع،
ولا يبيح اختراع ما لم يرد.

38 | محاسبة القلب: الأصل القرآني

محاسبة القلب أصل قرآني محكم؛ فقد أمر الله كل نفس أن تنظر ما قدمت لغد [الحشر: 18]. فلا يحتاج معنى المحاسبة إلى تعليق القلب بلفظ منسوب إلى أحد ما دام الأصل الإلهي قائماً واضحاً.

وموضع الاستدلال هنا [الحشر: 18].
خطوة قربية: جلسة قصيرة بعد اليوم: نعمة تشكر، تقصير يستغفر، وحق يرد.

المعنى القرآني قبل نسبة العبارة

ما ينسب إلى الحسن البصري من كلمات المحاسبة كثير، وليس كل لفظ مشهور ثابتاً بمجرد شهرته. لذلك يتقدم الأصل الذي لا نزاع في ثبوته: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} [الحشر: 18]. الآية لا تدعو إلى جلد النفس، بل إلى نظر يثر تقوى واستعداداً.

المحاسبة الخاشعة دقيقة ومحدودة: ما النعمة التي قصرت في شكرها؟ ما الحق الذي أخرته؟ ما الذنب الذي تعرف اسمه وتستطيع أن تبدأ توبته؟ حين تتحول المحاسبة إلى غموض متواصل أو احتقار للنفس دون إصلاح، تفقد مقصدها. وحين ترتبط

باستغفار ورد حق وخطة عمل تصير عبادة تعيد للقلب اتجاهه. ولا حاجة إلى نسبة لفظ مخصوص إلى الحسن البصري ما لم يثبت موضعه؛ فالأصل القرآني يغني عن ذلك.

المعنى الذي يقوم عليه الفصل: محاسبة النفس أصل يشهد له الأمر بالنظر لما قدمت النفس لغد [الحشر: 18]. يمكن بناء التربية على الآية: مراجعة العمل، والتوبة، وعدم الاغترار، من غير حاجة إلى حكاية لا يثبت أصلها.

والفارق بين النقل والاستنباط مهم. فمحاسبة المرء نفسه بعد الصلاة تطبيق تربوي يُستفاد من أصل المحاسبة، أما نسبة عبارة بعينها إلى الحسن البصري فتحتاج إلى أصل مضبوط. بهذه الحدود يبقى المعنى دافئاً وأميناً معاً.

المحاسبة نظر إلى ما قُدِّم لا دوران حول الذات

المحاسبة التي تبني الخشوع ليست مراقبة مرهقة لكل شعور، بل نظر في عمل يمكن تسميته: صلاة حفظت، كلمة آذت، مال أدى حقه أو تأخر، نعمة شكرت أو نسيت. ثم تأتي خطوة تناسب الحقيقة: حمد، أو استغفار، أو رد حق، أو خطة صغيرة. إذا خرج المرء من محاسبته باحتقار غامض لنفسه ولم يتغير شيء، فقد دار حول ذاته. وإذا خرج بعمل صالح وخوف ورجاء فقد نظر إلى ما

قدم لغده. وبذلك تنتقل المحاسبة من مزاج ثقيل إلى عبادة مسؤولة.

أصل محكم: قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد» [الحشر: 18]. هذا أصل محكم للمحاسبة: نظر في المقدم، وتوجيه إلى الغد، وتقوى لله المطلع. ولهذا يقوم المعنى على الآية، ولا تنسب عبارة إلى الحسن البصري بغير أصل مضبوط. المحاسبة ليست تعذيب النفس بتكرار الاتهام، ولا محاولة استخراج يقين عن الباطن. هي جرد صادق للعمل والحق والسبب والنتيجة الممكنة. تسأل: ماذا فعلت؟ ما الدليل؟ من تضرر؟ وما التصحيح؟ وحين تنتقل من الوقائع إلى أحكام كلية مثل «أنا فاسد دائماً» تخرج من وظيفة المحاسبة إلى خطاب قد يزيد العجز.

صلة الخشوع: القلب الخاشع يقبل أن يرى نقصه من غير أن ينازع الحق، لكنه لا يدعي التواضع باحتقار ما أنعم الله به عليه. يثبت الحسنة فضلاً من الله، ويثبت السيئة مسؤولية تحتاج توبة، ويترك الحكم النهائي لربه. بذلك تجمع المحاسبة بين الخوف والرجاء: خوف يمنع التبرير، ورجاء يفتح التصحيح.

تطبيق: بعد يوم أو عبادة يختار الإنسان واقعة واحدة، لا حياته كلها، ويكتب أو يتذكر: نعمة يشكرها، وخطأ يصححه، وحقاً يؤديه، وخطوة غد. هذه وسيلة تنظيمية. وإذا تحولت المراجعة إلى

وسواس متكرر يعيد الأسئلة نفسها بلا معلومة أو فعل، يوقف
الدوران ويستعين بأهل العلم أو الاختصاص بحسب بابه. من
الخشوع ألا يجعل الإنسان محاسبته معبوداً آخر.

39 | المحافظة على الصلاة: المعنى المحكم

المحافظة على الصلاة لا تُبنى على اندفاع عابرة، بل على دوام . يتكرر حتى يصير خُلُقًا. قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [المعارج: 34]، وفي الصحيح: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» [البخاري: 6464].

وموضع الاستدلال هنا [المعارج: 34].
خطوة قريبة: البدء بالمحافظة على الوقت والجماعة لمن وجبت عليه، ثم طلب مزيد من الحضور.

المحافظة لا تحتاج رقماً مدهشاً

بدليل شرعي: فضيلة المحافظة على الصلاة ثابتة في القرآن، ودوام العمل وإن قل ثابت في صحيح البخاري 6464. يكفي هذان الأصلان لبناء عادة التكبير من غير عدد يلفت القارئ أكثر من العبادة.

يبدأ الإنسان بما يقدر عليه: يعرف وقت الصلاة، ويغلق عمله قبلها، ويستدرك إذا فاتته. لا يحول هدف الجماعة أو التكبير إلى وسواس، ولا يئأس من تعثر يوم. المقصود مسار محافظة صادق، لا منافسة قصة لم يثبت مقدارها.

المحافظة بناء يومي: أداء في الوقت، وإقامة للأركان، ودوام لا تلتهمه المواسم، وعناية بالجماعة حيث تجب. وفي صحيح البخاري 6464 توجيه إلى دوام العمل وإن قل. لا يستعمل الحديث لتسوية الفرائض بالنوافل أو للاكتفاء بالقليل من الواجب، بل لتربية النفس على عمل مشروع مستمر. بدل أن يعجب القارئ برقم لم يتحقق، يمكنه أن يهين وضوءه، ويغلق مهمته قبل ضيق الوقت، ويعالج سبب التأخر المتكرر. هكذا يصبح توقير السلف حافزاً لا حكاية استهلاك.

المحافظة أمانة يومية لا بطولة رقية

أصل محكم: أمر الله بالمحافظة على الصلوات والقيام له قانتين [البقرة: 238]، وذكر في صفات المؤمنين المحافظة على الصلوات [المؤمنون: 9]. المحكم يثبت قيمة الدوام والحراسة. أما الأرقام المدهشة التي تشيع في بعض أخبار المحافظة فلا تُروى على أنها ثابتة حتى يصح أصلها؛ وتعظيم السلف لا يكون بنسبة ما لم يصح. المحافظة أوسع من عدم الفوات؛ تشمل معرفة الوقت، والاستعداد، وأداء الأركان، وحراسة الصلاة من المزاحمة المتعمدة. وقد يعرض عذر أو سهو له حكمه، فلا يتحول كل خلل إلى يأس. كما أن المواظبة الظاهرة تحتاج قلباً يتجدد، لكنها ليست أمراً قليلاً؛ انتظام الفرض نفسه من أعظم أبواب تربية القلب.

منع المقارنة: قد يسمع القارئ خبراً عن عبادة طويلة فيقارن بدايته بنهاية غيره، فيترك ما يستطيع. المنهج الأعدل أن يعرف الواجب، ثم يبني النافلة على طاقته، ويترك نتائج القبول لله. لا تُلغى المهمة، لكن توجه إلى دوام صالح بدل اندفاعه يتبعها انقطاع أو أذى للبدن والحقوق.

تطبيق: ينظر المرء في أكثر سبب يهدد وقت الصلاة: نوم، أو اجتماع، أو هاتف، أو انتقال، ثم يضع حاجزاً عملياً واحداً. يربط الموعد بالتنبيه أو الضوء أو طريق المسجد بحسب حاله، ولا يجعل الوسيلة سنة عامة. وبعد الاستقرار يعمل على الفهم والطمأنينة. المحافظة تحفظ الباب مفتوحاً، وكل دخول جديد فرصة لخشوع أصدق.

تلتقي هذه المواضع الخمسة في بناء واحد. قيام النبي ﷺ يبين أن العبادة شكر، وحديث المسيء في صلاته يبين أن الطمأنينة نتعلم، وصلاته عند الشدة ترد الخائف إلى الاستعانة، وآية المحاسبة تراجع ما قدم، وآيات المحافظة تحرس الدوام. لا يغني واحد منها عن الآخر: الحماس بلا علم قد يضر، والعلم بلا دوام يذبل، والمحاسبة بلا رجاء تشل، والاستعانة بلا سبب تتخذ ذريعة، والمحافظة بلا تجديد قد تصير عادة غافلة.

والخشوع هو الروح التي تصل بينها من غير أن تبتلع أحكامها. فهو لا يحول النافلة إلى فرض، ولا يجعل الشعور شرطاً لصحة كل

عمل، ولا يعطي الإنسان حق الحكم على قبول غيره. لكنه يسأل في كل موضع: لمن أفعل؟ وكيف أوافق الهدي؟ وما الحق الذي يبقى بعد العبادة؟ بهذا تصبح الصلاة مدرسة شكر وعلم واستعانة ودوام، لا مشهداً منفصلاً عن بقية الحياة.

40 | أمانة الرواية في باب الخشوع

الأخبار المؤثرة أكثر المواضع تعرضاً للزيادة. جمال القصة لا يكفي؛ لا بد من أصلها وسندها وسياقها، ومنع الحوار والشعور المخترعين.

وموضع الاستدلال هنا [الحجرات: 6].

خطوة قريبة: إذا سمعت حكاية مؤثرة فلا تجعلها أصلاً حتى يثبت مصدرها، وارجع إلى الآية أو الحديث الصحيح الذي يحمل المعنى.

أربع بطاقات قبل كل حكاية

كل قصة مؤثرة تحتاج قبل أن تُتخذ دليلاً إلى أربعة أسئلة: أين مصدرها الأصلي؟ وما حال إسنادها أو حكم النقاد فيها؟ وما اللفظ الثابت الذي يجوز حكايته؟ وما وجه الدلالة الذي تحتمله؟ فإذا غاب واحد من هذه الأصول لم يعوضه جمال الأسلوب. ولا يجوز أن يتحول التلخيص إلى حوار، أو أن يُنسب إلى صاحب القصة شعور باطني لم ينقله المصدر.

هذا المنهج يحمي وجدان القارئ؛ إذ لا يبني تأثره على قصة قد تنهار عند السؤال. ويحرر الناقل من خوف الفراغ: القرآن والسنة الصحيحة غنيان، والصدق نفسه عبادة من عبادات القلب.

الأثر الثابت لا يحتاج إلى مسرح

حين يقرأ المرء خبر أبي بكر أو ابن مسعود أو عثمان رضي الله عنهم، قد تدفعه الرغبة في التأثير إلى توسيع اللحظة: يصف المكان، ويضع كلمات على السنة الحاضرين، ويخبر عما جرى في الصدور. هذه الزيادات قد تجعل الصفحة أكثر حركة، لكنها تنقلها من الرواية إلى التخيل من غير علامة. وهذا المنهج يمنع ذلك؛ لأن السلف ليسوا شخصيات روائية، ولأن من حق القارئ أن يعرف أين ينتهي الخبر وأين يبدأ فهم الناقل.

تكفي التفاصيل الثابتة في البخاري 679 و5050 والترمذي 2308 لبناء معنى حي: رقة تحمل إمامة، وسماع يفتح باب الشهادة، ووقوف عند القبر يحول الغيب إلى استعداد. الحرارة لا تأتي من اختراع اللون، بل من تقريب الدلالة إلى حياة القارئ: إذا رق قلبك فلا تترك التكليف، وإذا سمعت القرآن فانتقل إلى الامتثال، وإذا تذكرت الموت فرد الحق. هذا انتفاع بالخبر، لا وصف لباطن الصحابي بما لم ينقل.

وفي الانتفاع بالنصوص خطران متقابلان: أن تبقى المعلومة باردة لا تعبر إلى القلب والعمل، أو أن يندفع الوعظ حتى يختلط الثابت بالمحتمل. والطريق بينهما أن يُحفظ النص، ثم يفهم وجه دلالته، ثم يُختار تطبيق لا ينسب إلى الشرع بوصفه سنة مخصوصة. هكذا تجتمع الدقة مع حياة المعنى.

قد يظن الناقل أن ترك الحكاية غير الثابتة يضعف الوجدان، فيعيد صياغتها بعبارات محتملة أو ينسبها إلى «بعض السلف» بلا أصل. لكن الإبهام لا يصنع ثبوتاً؛ وما لم يثبت لا يُجزم ببطلانه لمجرد غياب الدليل المتاح، ولا يروى بوصفه حقيقة.

تطبيق: إذا سمعت قصة مؤثرة، فلا تجعل قوة تأثيرها دليلاً على ثبوتها. اسأل عن أصلها وموضعها، وما الذي يثبت منها فعلاً، وما وجه الدلالة الذي تحتمله. وما لم يثبت لا يحتاج إلى قصة بديلة؛ فقد تحمل آية أو حديث صحيح المعنى وحدهما. ومن الخشوع في العلم أن تقبل معنى أقل إثارة إذا كان أثبت وأصدق.

الباب السادس: ما يسرق الخشوع

41 | العجلة

المسيء صلاته كان ينقر أفعالها بلا طمأنينة، فأمره النبي ﷺ أن يعيد. العجلة لا تختصر الزمن فقط؛ إنها تمنع القلب من اللحاق بالجسد.

خطوة قريبة: إعطاء كل ركن قدره، وعدم بدء الذكر قبل استقرار البدن.

العجلة لا تُعالج بإطالة مصطنعة، بل بإعطاء الركن حقه. حديث المسيء صلاته في صحيح البخاري 757 يكرر الأمر بالطمأنينة في الركوع والرفع والسجود والجلوس. فالمشكلة ليست سرعة حركة واحدة، بل صلاة لا يستقر فيها البدن قدر الذكر الواجب ولا يلحق فيها القلب بمعنى ما يقول.

ويبدأ العلاج قبل التكبير: لا تدخل الصلاة وأنت تقاوم موعداً صنعه يديك، واترك هامشاً قصيراً بين المهمة والصلاة. وفي داخلها لا تنتقل حتى يستقر الجسد، ولا تسبق الإمام، ولا تجعل التسليم لحظة قفز إلى الشاشة. الطمأنينة ركن عملي، ومنها يتعلم القلب السكون. وليس المطلوب أن يحسب المصلي ثواني مبتدعة، بل أن يؤدي الصلاة كما علمها النبي ﷺ من غير نقر ولا تمطيط.

العجلة ضد الطمأنينة

وفي الحديث: كرر صحيح البخاري 757 الأمر بالطمأنينة في الركوع والاعتدال والسجود والجلوس. التكرار في بنية التعليم يبين أن الصلاة ليست مروراً سريعاً بين الأشكال.

للعجلة أسباب قبل الصلاة: تأخيرها، وضيق الموعد، واستمرار النظر إلى الهاتف، وتصور أن الفراغ منها هو الغاية. يعالج المرء السبب حيث يبدأ؛ يترك هامشاً زمنياً، ويغلق المهمة، ويدخل الصلاة قبل أن يصبح كل ركن خصماً للوقت.

والطمأنينة ليست تطويلاً اعتباطياً. هي استقرار يحصل به الركن على وجهه. يتعلمها المصلي من صفة الصلاة وأهل العلم، ولا يحدد لنفسه ثواني تعبدية مخترعة. إذا هدأ البدن وجد القلب فرصة للفهم، وإن بقي الشroud أعاده برفق.

جمع الدليلين: أمر صحيح البخاري 636 بالسكينة عند الإتيان إلى الصلاة، وأمر صحيح البخاري 757 بالطمأنينة داخلها. يبين الجمع أن العجلة ليست حادثاً يقع في السجود وحده؛ إنها طريقة انتقال تبدأ من قبل الصف وتمتد إلى الركوع والسلام.

تشخيص عملي: إذا تكرر النقر في الصلاة، فليبحث العبد عن الدقيقة التي سبقتها: هل أخر الوضوء؟ هل ظل يكتب حتى الإقامة؟ هل دخل وفي ذهنه موعد لا يحتمل التأخير؟ علاج الجذر أيسر من محاربة آثار متعددة بعد التكبير.

ويضع حاجزاً زمنياً صغيراً قبل الصلاة، لا بوصفه سنة مخصوصة، بل وسيلة. فإذا تعذر لم ييأس؛ يطبق ما استطاع من السكينة ويؤدي الأركان على وجهها. الخشوع يتعلم من حسن الانتقال كما يتعلم من حسن الوقوف.

العجلة تبدأ قبل أن يتحرك الجسد

يعالج حديث المسيء صلاته في صحيح البخاري 757 الطمأنينة داخل الأركان، ويعالج صحيح البخاري 636 السكينة في الطريق إلى الصلاة. الجمع بينهما يبين أن العجلة ليست سرعة في السجود فحسب؛ إنها سلسلة تبدأ من تأخير الاستعداد، ثم الجري، ثم الدخول بنفس مضطرب، ثم محاولة تعويض الوقت بنقر الركعات. ولهذا قد لا يكفي أن يأمر الإنسان نفسه بالهدوء بعد التكبير إذا أبقى مقدمات الاضطراب كما هي.

يُصلح السبب بما يستطيع: يترك هامشاً قبل الصلاة، يوقف الكتابة عند نقطة واضحة، ويتوضأ قبل ضيق الوقت. وإذا تأخر على رغم ذلك لم يزد الخطأ بالجري؛ يأتي بالسكينة، يصلي ما أدرك، ويتم ما فاتته. وفي الركوع والسجود ينتظر استقرار البدن قبل الانتقال. لا يبتدع عدد ثوان، ولا يطيل ليرى، لكنه يرفض أن يعامل الركن كفراغ بين قراءتين. الطمأنينة زمن العبادة نفسها، وليست حشواً يخصم من اليوم.

العجلة ليست سرعة الحركة وحدها؛ قد يدخل المصلي وفي قلبه موعد صممه بلا فسحة، أو مهمة رفض أن يترك لها حداً، فيصبح كل ركن عقبة. الطمأنينة التي علّمها النبي ﷺ في حديث المسبيء صلاته تكشف أن الزمن جزء من أداء الركن، لكن إصلاحه يحتاج أحياناً إلى إعادة ترتيب ما حول الصلاة.

من صور العجلة أن يضغط الإنسان نافلة بين واجبين ثم يغضب من نفسه لأنه لم يجد حضوراً، أو يؤخر الفرض إلى نهاية الوقت بلا عذر ثم يريد أداءً هادئاً. ليست المشكلة كلها في القلب؛ الجدول نفسه يرسله إلى الصلاة مطارداً. الخشوع يطالبه بالصدق: هل أحتاج فعلاً إلى هذه السرعة، أم صنعتها بخياري؟

ولا يعني ذلك أن صاحب العمل الشاق أو الأم مع الأطفال يملكان فسحة مثالية. لكل حال قدرته. قد يكون خشوع أحدهما أن يحفظ الفرض بطمأنينته الممكنة في يوم مزدحم، لا أن يقارن نفسه بخلوة غيره. العدل مع النفس لا يبرر التفريط، لكنه يمنع قياس الناس بظروف واحدة.

التطبيق أن يضيف هامشاً قصيراً قبل صلاة واحدة بدل مشروع كبير ينهار. إذا لم يقدر، حذف فعلاً غير لازم بعدها حتى لا يصلي وهو يطارده. راجع النتيجة: هل تحسنت الطمأنينة؟ إن لم تتغير بحث عن سبب آخر. العلاج تجريبي منضبط، لا اتهام شامل.

يساعد الخشوع على فصل الدافع عن الفعل. الغضب قد يخبر عن ظلم، لكنه لا يحدد وحده الرد. والفرح قد يبشر بفرصة، لكنه لا يكفي لتوقيع عقد. يقف الإنسان قدراً يجمع فيه الدليل، ثم يتحرك.

التأني ليس قيمة مطلقة؛ بعض الحقوق تفوت بالتأخير. لذلك يحدد ما يحتاج قراراً الآن وما يحتمل. الخشوع يعطيه تواضعاً ليطلب رأياً سريعاً بدل أن يمثل المعرفة.

ومن علامات القرار الخاشع أنه قابل للتصحيح. يوثق أسبابه، ويحدد ما سيجعله يغيره، ولا يربط كرامته بالنتيجة. إذا ظهرت معلومة جديدة رجع.

الدعاء في هذه المرحلة يعينه على سلامة القصد، لكنه لا يحول الميل الشخصي إلى حكم إلهي. يقول اخترت بعد اجتهاد، لا: أمرت باطناً.

الحركة التي تبدأ قبل الركعة

تبدأ «الأمر المنافية للخشوع» في «أعمال القلوب» في مبحث «الأمر التي تنافي الخشوع»، بكثرة الحركة، ومنها الحركة المتتابعة في الصلاة بلا حاجة. وليس المراد أن كل حركة تبطل الحضور أو أن السكون قيمة مستقلة؛ فقد تقع الحركة لحاجة، وقد يكون

البدن سائكاً والقلب يطارد شواغله. المقصود أن الحركة المتتابعة بلا حاجة تكشف اضطراباً يمكن معالجة بعض أسبابه.

كثير من الحركة يبدأ قبل التكبير: ثوب لم يسو، وهاتف لم يغلق، وحاجة بدنية أهملت، ومكان اختير مع وجود شاغل ظاهر. علاج هذه المقدمات رحمة بالقلب. يهين المصلي ما يستطيع، ثم يدخل من غير أن يحول التهيؤ إلى طقس مرهق. فإذا طرأت حاجة في الصلاة فعل ما أذن به الشرع، ولم يين على ذلك حكماً قاسياً على صلاته كلها.

العجلة أعمق من سرعة الجسد. قد يقرأ ببطء ولسانه يريد الوصول إلى السلام، وقد يطيل وقلبه غائب عن معنى الركن. علاجها إعطاء كل ركن حقه: استقرار قبل الذكر، وطمأنينة تمنع نقر الصلاة، ووعي بأن الانتقال نفسه عبادة. لا يحتاج ذلك إلى إطالة تشق على النفس أو على المأمومين؛ يحتاج إلى حضور في القدر المشروع.

ومن النافع اختيار حركة واحدة تكرر بلا حاجة، ثم إزالة سببها أسبوعاً: ضبط الثوب قبل الدخول، أو وضع الهاتف بعيداً، أو ترك النظر إلى الساعة. المقصود تدريب الانتباه على السكون، لا مراقبة البدن بقلق جديد.

42 | الذنوب

دل القرآن على أن الكسب السيئ يرين على القلب. لا يعني هذا تفسير كل شرود بذنوب معين، لكنه يثبت أثر المعصية المتراكمة في التلقي.

وموضع الاستدلال هنا [المطففين: 14].

خطوة قريبة: توبة محددة من ذنب معروف، ورد مظلمة إن وجدت، بدل شكوى عامة من القسوة.

قال الله تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14]. الآية تربط الكسب بحال القلب، لكنها لا تمنحنا علماً خفياً نعين به لكل شرود ذنباً مخصوصاً. قد يكون التشتت من تعب أو شاغل مباح أو ضعف تعلم؛ وقد تكون المعصية المتكررة من أسبابه. لذلك يجتمع الفحص الصادق مع ترك الجزم بغير علم.

والدواء ليس جملة عامة: «قلبي قاس»، بل توبة محددة. يحصي العبد ذنباً يعرفه، يقطعه، يندم، ويعزم ألا يعود، ويرد الحق إن تعلق بآدمي. ثم يصلي ولا ينتظر اكتمال حاله قبل أن يطرق الباب. إن الشيطان قد يستعمل الذنب مرتين: مرة حين يوقع فيه، ومرة حين يقنع صاحبه أنه لا يستحق العودة. والخشوع الصادق يكسر الدائرة بتوبة ورجاء وعمل.

الذنب يجب ولا يغلق باب العودة

دليل الباب: يقرر القرآن أثر الكسب في الرين على القلوب [المطففين: 14]، ويقرر في مواضع التوبة سعة المغفرة. الجمع يمنع التهوين من المعصية كما يمنع اليأس من الإصلاح. من وجد قسوة لا يكتفي بوصفها؛ يبحث عن ذنب متكرر أو حق مؤجل أو مادة تغذي الغفلة. يترك السبب ويتوب ويستغفر. ولا يربط كل شرود بذنوب معين من غير علم، فالتعب والمرض والقلق أسباب واقعية كذلك.

التوبة العملية تعيد للقلب صدقه: إقلاع وندم وعزم، ورد للمظلمة إن تعلقت بحق آدمي. ثم يصلي العبد راجياً لا واثقاً بعمله. ما دام الباب مفتوحاً فالمجاهدة ممكنة، وما دام الذنب مؤثراً فلا يصح التطبيع معه.

الأصل القرآني: يثبت القرآن أثر الرين بما كسبت القلوب [المطففين: 14]، ويفتح باب التوبة والمغفرة. الجمع يحفظ الخوف والرجاء: الذنب ليس تفصيلاً بلا أثر، والتائب ليس محكوماً بقسوة أبدية.

لا يجزم المرء أن كل خاطر في الصلاة عقوبة على ذنب بعينه؛ فهذا علم لم يؤته. لكنه يراجع المعصية المعلومة والحق المؤجل والعادة التي تملأ خياله. فإذا وجدها تاب بصدق ورد الحق، ثم لم يطالب ربه بشعور فوري مقابل توبته.

التوبة عبادة لله، والخشوع فضل منه. قد يلين القلب سريعاً وقد يحتاج إلى صبر طويل. وظيفة العبد أن يطرق الباب ولا يحتاج على التأخر؛ يصلح ما يعلم، ويستمر في الصلاة، ويحذر من معصية اليأس بعد معصية الغفلة.

الذنب المعلوم أولى بالعلاج من الاتهام الغامض

يقرر القرآن أثر الكسب السيئ في القلب: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14]. لكنه لا يمنح المرء إذناً أن يفسر كل شرود بعقوبة محددة، أو أن يفسر به أحوال غيره. قد يدخل التعب والجوع والمرض والشاغل المباح في التشتت، وقد تدخل المعصية. الفرق أن الذنب المعلوم يمكن التوبة منه، أما الاتهام الغامض فيستهلك القلب بلا إصلاح.

ينفع أن يستبدل المصلي جملة «أنا قاسي القلب» بسؤال محدد: هل أؤخر حقاً؟ هل أكرر نظراً محرماً؟ هل أحمل خصومة أستطيع إصلاحها؟ فإذا وجد تاب ورد الحق وقطع السبب، ثم عاد إلى الصلاة. لا يشترط على الله أن يجد لذة فوراً، فالتوبة عبادة لا صفة شعورية. وإن لم يجد ذنباً معيناً لم يفتش حتى يمرض؛ يأخذ بأسباب الحضور، ويسأل الله قلباً خاشعاً كما في صحيح مسلم 2722، ويستمر في الطاعة بين خوف ورجاء.

قال الله تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14]. يربط النص بين الكسب وأثره على القلب، فيمنع فصل السلوك عن الخشوع. لكن الآية لا تمنح الإنسان حق اختراع ذنب وراء كل شرود، ولا الحكم على غيره من ظاهر صلاته.

التوبة تبدأ من معلوم: نظر محرم، أو مال لا يحل، أو أذى، أو فريضة ضيعت. يسمي العبد الخطأ ويتركه ويندم ويرد الحق بحسب بابه. أما الدوران حول عبارة «قلي قاس» من غير فعل محدد فقد يصير حجاباً جديداً، يعطي صاحبه إحساس المحاسبة من غير كلفتها.

وقد يتوب الإنسان ولا يشعر فوراً بلين. لا يجعل غياب الشعور دليلاً على رد التوبة. يستمر في شروطها والعمل الصالح، ويخاف ويرجو. كما أن انشراحاً عاطفياً بعد الاستغفار لا يسقط حقوق الناس. الميزان الشرعي أسبق من الحالة.

من التطبيق أن يراجع مانعاً واحداً بدل قائمة العمر كلها. إن كان حقاً رده، وإن كان عادة وضع حاجزاً، وإن كان يجهل الحكم سأل. ثم يصلي وهو يرجو أن يطهر الله قلبه. لا يساوم: سأترك الذنب إن خشعت؛ بل يتركه لأنه أمر، ويستعين بالخشوع على الثبات.

قد يحتاج التنفيذ إلى سرعة وانضباط. الخاشع لا يخلط السكينة بالتراخي؛ يعمل بتركيز، ويخفض الضوضاء الزائدة، ويحفظ حق الفريق. إذا طرأ خطأ أوقف ما يسبب ضرراً ثم راجع. وفي المهام الطويلة يوزع الجهد حتى لا يحترق ثم يترك. حفظ الجسد من الاستنزاف ليس ضعف همة؛ هو فقه للاستمرار. لكنه لا يستعمل الراحة لإلقاء العبء على غيره. الذكر القصير بين الأعمال يعيد الوجهة، من غير أن يقطع حقوق الناس. قد يستغفر أو يحمّد، ثم يعود. لا يحتاج كل انتقال إلى طقس ظاهر.

إذا نجح جزء لم يتوسع في الاحتفال قبل إكمال الأمانة. وإذا فشل جزء لم يهدم المشروع كله. التوازن ثمرة معرفة أن العمل سبب والنتيجة بيد الله.

43 | فضول النظر

البصر مدخل سريع إلى القلب، وما يطلق طوال اليوم يعود صوراً في الصلاة. غض البصر ليس حراسةً للحظة فحسب بل إعداد لمساحة القلب.

وموضع الاستدلال هنا [النور: 30].

خطوة قريبة: تقليل التصفح البصري المشتت، ولا سيما قبل الصلاة.

الأمر بغض البصر في [النور: 30] ليس خاصاً بلحظة الفتنة المباشرة؛ إنه تربية لمدخل من أسرع مداخل القلب. وما تتبعه العين من صور متتابعة لا يختفي بمجرد التكبير، بل قد يعود في هيئة خواطر ومقارنات وقلق. لذلك يكون حفظ النظر إعداداً للصلاة، لا إجراءً منفصلاً عنها.

وفي صحيح البخاري 373 أن النبي ﷺ صلى في خميسة لها أعلام، فلما انصرف أمر أن تُرد وأخذ ثوباً لا أعلام فيه؛ لأنها ألهته عن صلاته. الحديث لا يحرم كل نقش، لكنه يثبت مشروعية إزالة المشتت المحسوس. ومن تطبيقه: اختيار مكان أهدأ، وإبعاد الشاشة، وعدم الصلاة أمام حركة متتابعة ما أمكن. هذا أخذ بسبب ظاهر، وليس ادعاء أن المكان وحده يصنع قلباً خاشعاً.

ما تراه العين يدخل الصلاة

وفي حديثين ثابتين: في صحيح البخاري (373) أزال النبي ﷺ الثوب ذا الأعلام لأنه شغله، وفي البخاري (750) نهى شديد عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة. وكلاهما يبين أن اتجاه النظر والمحيط المرئي جزء من أدب الصلاة.

تطبيق: يزيل المصلي الزخرفة الملفتة ما استطاع، ويختار موضعاً أهدأ، ويحفظ بصره وفق السنة. لا يحول البيت إلى مكان خال من كل لون، لكن يقلل ما ثبت أنه يشغله. والهااتف أقوى المشتتات المعاصرة؛ إبعاده تطبيق عام لإزالة الشاغل، لا حديثاً خاصاً فيه.

وإذا وقعت العين على شيء لم يقطع الصلاة أو يفتح باب الوسواس. يعيدها إلى موضعها، ثم يعالج البيئة في المرة التالية. المقصود تربية الانتباه، لا الخوف المرضي من كل مرئي.

دليل الباب: في صحيح البخاري 373 أزيل الثوب ذو الأعلام لما شغل في الصلاة. يدل الخبر على مشروعية إزالة المشتت المحسوس، لكنه لا يقول إن كل شرود سببه الجدار أو الثوب.

قد يبعد المصلي الهااتف وتبقى المحادثة في ذهنه؛ فالعلاج درجتان: قطع المجري الخارجي، ثم العودة إلى المعنى كلما استدعى الخيال ما رآه. لا يفتش في كل صورة، بل يرد بصره وقلبه إلى موضع العبادة.

ومن التطبيق تقليل النظر المثير قبل الصلاة، واختيار مكان أقل زخرفة، وعدم حمل قائمة طويلة من المحتوى إلى الصف. وإذا بقي الشرود لم يعد الجهاز إلى يده بحجة فشل التجربة؛ الاستقلال عن العادة يبني بالتركرار.

العين لا تغلق سجّلها عند التكبير

الأمر بغض البصر في [النور: 30] يحرس القلب طوال اليوم، لا في اللحظة التي تقع فيها الفتنة وحدها. الصور التي يجمعها المرء في دقائق التصفح قد تعود في الصلاة بلا استئذان، لا لأن الصلاة ضعيفة، بل لأن الذاكرة حملت مادة كثيرة. ويؤكد صحيح البخاري 373 مشروعية إزالة الشاغل المرئي حين شغلت أعلام الثوب النبي ﷺ في صلاته.

ليس المقصود تحريم كل لون أو نقش، ولا تعليق الخشوع كله على المكان. العلاج على درجتين: يقطع المرء ما يقدر عليه من المدخل الخارجي، ثم يرد نفسه إلى القراءة إذا عادت الصورة الداخلية. يختار موضعاً أقل حركة، ويغلق الشاشة قبل الصلاة، ويخفض جرعة الصور المتابعة في يومه. وإذا بقي خاطر لم يخاصمه طويلاً، يعود. غض البصر هنا عبادة مستقلة وثمرة إعداد للصلاة، لا حيلة تقنية فحسب.

غض البصر أمر قرآني [النور: 30-31]، وليس أثره محصوراً في لحظة النظر. الصور تبقى، وتعود حين يسكن الخارج. لهذا قد يجد المصلي في صلاته ما جمعه طوال يومه. علاج الخاطر يبدأ من الباب الذي دخل منه، لا من الحرب معه بعد استقراره وحدها. لكن الخطاب يحتاج عدلاً: ورود الصورة لا يساوي اختيارها الآن، وقد تقتحم الذاكرة بما يكره الإنسان. التكليف في الاسترسال والاستجابة والسبب الممكن. يستعيز ويرد نفسه، ولا يعيد المشهد ليتأكد أنه قاومه؛ فهذا قد يزيد ثباته.

وفي عصر الشاشات لا يقتصر فضول النظر على المحرم الصريح. التتابع السريع نفسه يربي الانتباه على القفز. قد تكون المواد مباحة منفردة، لكن كثرتها قبل الصلاة تجعل السكون أثقل. هذا استنباط تربوي، لا تحريم للباح ولا تشخيصاً طبيًا. يختبر الإنسان أثر التقليل على نفسه.

التطبيق أن ينشئ مسافة بلا صور متتابعة قبل الصلاة التي يكثر فيها الشرود، وأن يغلق التنبيهات ويختار موضعاً غير مواجه للشاشة. إذا تحسن عرف السبب، وإذا لم يتحسن لم يجعل الخطة عقيدة؛ ينتقل إلى سبب آخر. المقصود فقه الطريق إلى القلب.

بعد ظهور النتيجة يراجع الإنسان ما كان يمكن معرفته وقت القرار، لا ما عرفه لاحقاً فقط. قد يكون القرار معقولاً ثم تأتي نتيجة مؤلمة، وقد ينجح قرار متهور. النتيجة وحدها لا تثبت الحكمة.

المحاسبة الخاشعة تعترف ولا تجلد. تحدد خطأ قابلاً للإصلاح، وتضع حاجزاً، وتعتذر لمن تضرر. ثم تتوقف عن إعادة المشهد إذا اكتمل الواجب. الاستمرار في التعذيب لا يرد حقاً. ويشكر عند النجاح من غير دعوى أنه ضمن المستقبل. يسجل الدرس وينسب الفضل ويستعد لتغير الظروف. بهذا لا تتحول الخبرة إلى كبر.

هذا المنهج ينفع في الصلاة كذلك: يراجع سبب شرود واحداً، لا يحاكم كل ركعة طوال الليل. يغير سبباً قبل الصلاة التالية ويمضي.

إزالة الشاغل من غير عداوة للعالم

النص الشرعي: ثبت في صحيح البخاري 373 أن النبي ﷺ صلى في خميسة لها أعلام، فلما انصرف أمر بإبعادها لأنها ألهته عن صلاته. وثبت في صحيح البخاري 751 وصف الالتفات في الصلاة بأنه اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد. النصان يثبتان أن حماية الانتباه تشمل معالجة السبب الظاهر ومجاهدة الاسترسال.

ليس كل شاغل معصية. الزخرفة في الثوب كانت مباحة، لكنها صارت في ذلك المقام سبب إلهاء فأزيلت. هذا يفتح باباً تربوياً واسعاً: قد يكون الشيء حسناً أو مباحاً في نفسه، لكن

موضعه وتوقيته يجعلان إبعاده حكمة. لا يحتاج المصلي إلى ذم الدنيا كلها كي يفرغ مكان سجوده.

ومن جهة أخرى، لا تكفي هندسة المكان وحدها. قد يخلو الجدار ويبقى القلب ملتفتاً. حديث الالتفات يذكر بالمعركة الداخلية: العين والجسد والخيال يمكن أن تنسحب قليلاً قليلاً من الصلاة. العلاج عودة متكررة، لا غضب على النفس يضيف تشويشاً جديداً.

يختلف الشاغل العارض عن الشاغل المتعمد. العارض يقتحم من غير اختيار؛ يرده المصلي بقدر استطاعته. والمتعمد صنع له طريقه: شاشة مفتوحة، إشعار مسموع، موضع يواجه حركة، أو ترك حاجة يمكن قضائها. الخشوع يقتضي الصدق في إزالة ما نملك، والرفق فيما لا نملك.

كما يمنع هذا الباب الوسواس في إعداد المكان. ليس المطلوب غرفة مثالية ولا تفتيش كل تفصيل قبل التكبير. إذا صار التهيؤ أطول من العبادة أو عذراً لتأخيرها انقلب المقصود. يزيل السبب البين، ثم يدخل الصلاة ويقبل أن العالم لن يصمت كله.

تطبيق: يجري المصلي فحفاً قصيراً لا يتجاوز دقيقة: هاتف صامت وبعيد، حاجة عاجلة مقضية، منظر شديد الإلهاء مزاح، ومهمة يخشى نسيانها مدونة. ثم يتوقف عن التهيئة ويكبر. بعد

أسبوع يراجع أثر سبب واحد، لا عشرين سبباً. هكذا تتحول السنة
إلى فقه للانتباه، لا إلى مطاردة للكمال.

44 | فضول الكلام

الكلام الكثير يترك ضجيجاً داخلياً ومسؤولية مكتوبة. وليس الصمت غاية مطلقة؛ المطلوب كلام خير وترك ما لا ينفع. وموضع الاستدلال هنا [ق: 18].

خطوة قريبة: فاصل صامت قصير قبل الصلاة مع استغفار وترك النقاش المشتعل.

الكلمة لا تنتهي حين يهدأ الصوت؛ قد تترك خصومة أو مباهاة أو سؤالاً معلقاً يحملها القلب إلى الصلاة. وقول الله تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 18] يرد اللسان إلى المسؤولية. وليس المراد اعتزال الحديث النافع، بل الاقتصاد فيما لا ينفع وترك الأذى.

ومن الحكمة ألا يبدأ المرء نقاشاً مشتعلًا قبل الصلاة إن أمكنه تأجيله، وألا يدخلها وهو مصر على إساءة لم يعتذر عنها. لحظة صمت واستغفار قبل التكبير ليست عبادة بعدد محدث، وإنما ترتيب مباح للنفس. وإذا تعلق الكلام بحق عاجل أداه أولاً. الخشوع لا يبنى على إسكات الآخرين، بل على تهذيب لسان صاحبه وحفظه من الفضول والغيبة والمراء.

فضول الكلام يرافق صاحبه

دليل الباب: جعلت سورة المؤمنون الإعراض عن اللغو بعد الخشوع في الصلاة [المؤمنون: 1-3]. هذا التجاور يربط حفظ اللسان بحياة الصلاة دون ادعاء أن كل حديث مباح يفسدها. الكلام المتدفق قبل التكبير يترك ذيولاً في الذهن، ولا سيما الجدل والغيبة. من أراد قلباً أجمع أغلق الحديث قبل الصلاة، واستغفر من خطئه، ولم يحمل الخصومة معه إلى الصف. بعد الصلاة يختبر الأثر في أول مجلس: هل يعود إلى اللغو نفسه؟ الخشوع لا يطلب صمتاً دائماً، الكلام الطيب والتعليم والمؤانسة حقوق ومصالح. لكنه يطلب أن يملك الإنسان لسانه، فلا يصبح كل خاطر كلاماً وكل خبر مادة نقل. أصل الباب: جاء الأمر بقول الخير أو الصمت في صحيح البخاري 6018، وجاء الإعراض عن اللغو ملاصقاً لوصف المؤمنين الخاشعين [المؤمنون: 1-3]. يلتقي الأصلان في حفظ اللسان، لا في مدح صمت يترك تعليماً أو إصلاحاً أو جواب سلام.

تطبيق: قبل الصلاة يوقف جدالاً لا ثمرة له، ولا يفتحه في الطريق إلى المسجد. وبعدها يسأل: هل خرج لساني أهذا وأعدل؟ إذا عاد مباشرة إلى الغيبة لم يتهم الصلاة بالعجز؛ يتهم اختياره ويستأنف المجاهدة.

الصمت وسيلة لا صورة خشوع. قد يسكت إنسان كبراً، ويتكلم آخر بخير ورحمة. الميزان مضمون القول ووقته وأثره، والغاية أن لا يحمل القلب ضجيجاً صنعه اللسان ثم يشكو منه في الصلاة.

الكلمة تسبقك إلى الصف

جمع صحيح البخاري 6018 بين إكرام الجار والضيف وبين قول الخير أو الصمت. ويضع القرآن الإعراض عن اللغو بعد وصف الخشوع في الصلاة مباشرة [المؤمنون: 1-3]. هذا التابع لا يجعل كل كلام ضد الخشوع؛ فالبيان والتعليم والإصلاح عبادات. لكنه يكشف أن اللسان المنفلت يصنع ضجيجاً أخلاقياً يحمله صاحبه معه: خصومة يريد الانتصار فيها، أو غيبة يخشى انكشافها، أو استعراض ينتظر صداه.

قبل الصلاة يمكنه أن يوقف نقاشاً غير عاجل، ويعتذر عن كلمة ظالمة، ويؤجل ما لا يثمر. وبعدها يختبر الأثر في أول مجلس: هل صار أصدق وألطف وأقل مرأء؟ الصمت ليس هيئة قداسة؛ قد يسكت الإنسان كبراً أو عقوبة للآخرين. الميزان أن يقول خيراً في وقته، ويترك الشر والفضول. فإذا تهذب اللسان خف على القلب حمل مصنوع بيده، وصارت الصلاة مصدر أدب خارج المسجد لا جزيرة صامئة داخله.

الكلمة التي يطلقها الإنسان قبل الصلاة قد تبقى خصومة كاملة في رأسه. لذلك يدخل فضول الكلام باب الخشوع من طريقين: ذنب يحتاج توبة، واستثارة تحتاج هدوءاً. ليس المطلوب صمتاً دائماً؛ البيان والتعليم والمواساة حقوق، لكن اللسان الذي لا يعرف حداً يحمل صاحبه إلى صلاته مثقلاً.

قد يكون العلاج اعتذاراً لا مجرد محاولة نسيان. إذا جرح شخصاً ثم حاول طرد صورته من الصلاة، بقي الحق يطالبه. أداء الحق يخفف الشاغل ويصلح القلب. وقد يكون الكلام مباحاً لكنه طال بلا حاجة، فالعلاج تنظيم الوقت لا جلد النفس.

ومن الخطر أن يستعمل المرء الخشوع ذريعة لترك جواب واجب أو شهادة حق. الصمت ليس فضيلة مطلقة، كما أن الكلام ليس نقصاً مطلقاً. الميزان مقصد وحكم وأثر. يهدأ حيث الهدوء أولى، ويتكلم حيث يجب، ويحفظ طريقته من الكبر والأذى. التطبيق قبل الصلاة أن يغلق نقاشاً بجملة واضحة: نكمله بعد الصلاة، بدل أن يتركه معلقاً بنصف استفزاز. وبعد الصلاة يعود فعلاً إذا كان حقاً. بهذا لا تصبح العبادة وسيلة هروب من الناس، بل محطة تضبط الرجوع إليهم.

حين يملك الإنسان قراراً في مال أو وظيفة أو أسرة يظهر معنى خضوعه لله. يستطيع أن يعاقب، فهل يلتزم المقدار؟ يستطيع أن

يخفي المعلومة، فهل يؤدي الأمانة؟ يستطيع أن ينسب النجاح لنفسه، فهل يعدل؟

السلطة لا تحرم صاحبها الحزم، لكنها تمنعه من استعمال الحق لإشباع الغضب. يضع معايير معلنة، ويسمع التظلم، ويفصل ما استطاع بين المصلحة الشخصية والحكم.

وقد يكون التنازل عن قرار هو الخشوع إذا ظهر خطؤه، وقد يكون الثبات هو الخشوع إذا ضغط الناس لترك حق. لا تعرف الإجابة من لين النبرة؛ تعرف من الدليل والعدل.

من وسائل الحماية مراجعة مستقلة وصلاحيات موزعة. القلب يحتاج إلى تقوى، والنظام يحتاج إلى حواجز؛ الجمع بينهما أحكم من الاعتماد على صلاح الشخص وحده.

ما يقوله اللسان يعود إلى القلب

النص الشرعي: جعل الله الإعراض عن اللغو من صفات المؤمنين في السياق الذي افتتح بالخشوع في الصلاة [المؤمنون: 1-3]، وقرر أن الكلمة محفوظة: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 18]. الصلة بين الصلاة والكلام ليست وعظاً عابراً؛ اللسان الذي يملأ يومه بلغو وعدوان يحمل آثاره إلى موضع الوقوف. الكلام يصنع داخل الإنسان مسارات. كثرة السخرية تجعل النظر إلى الناس أقرب إلى الاحتقار، وكثرة الشكوى بلا حاجة

توسع مركز المشكلة، وكثرة الجدل تهيئ القلب للرد حتى أثناء القراءة. الصمت وحده لا يظهر ذلك، لكن ضبط المادة المتكررة يقلل ما يستدعيه الذهن عند الصلاة.

ليس اللغو كل كلام مباح لا يشتمل على معلومة نافعة مباشرة. للأنس والمزاح المباح والراحة حق، والإنسان لا يعيش في خطاب رسمي دائم. المعيار أقرب إلى الثمرة والحد: هل يضعي الكلام واجباً؟ هل يحمل كذباً أو غيبة أو إيذاء؟ هل صار عادة تستهلك الساعات وتترك القلب أثقل؟ بهذا الفقه نتجنب تحريم المباح كما نتجنب تزيين الفضول.

توبة اللسان ليست قرار صمت شاملاً، بل إصلاح أنواع محددة. من اعتاد نقل الأخبار بلا تثبت يبدأ بهذا الباب، ومن يؤذي في المزاح يضبطه، ومن يكرر الشكوى يبحث عن جهة علاج. التحديد أصدق من شعار «سأتكلم أقل» الذي لا يعرف صاحبه أين يبدأ. وفي المجال الرقمي تصبح الكتابة كلاماً له بقاء وانتشار. قد يرسل المرء جملة في ثوان ثم يدخل الصلاة، بينما أثرها يعمل في قلب آخر. من الخشوع أن يؤخر نشر الغضب، وأن يراجع التهمة، وأن يحمو ما لا يرضى أن يلقي الله به. ليست العبرة بنبرة هادئة على الشاشة إذا كان المعنى جارحاً.

تطبيق: يختار العبد ساعة قبل صلاة واحدة يجعلها خالية من الجدل والنشر المتعجل، لا من التواصل الضروري. يلاحظ ما

يعود إلى ذهنه أثناء الصلاة، ثم يعالج مصدرًا واحدًا. وإذا أخطأ في كلمة لم يكتف بالاستغفار السري؛ يصححها عند من بلغته ويرد حق صاحبها. هذا وصل بين خشوع السجادة وأمانة اللسان.

45 | الهاتف قبل الصلاة

الهاتف أداة، لكن انتقال القلب بين المقاطع والتنبيهات يجعل جمعه أشق. يدخل ضبطه في الإعراض عن اللغو وحفظ الانتباه. وموضع الاستدلال هنا [المؤمنون: 3].
خطوة قريبة: إغلاق التنبيهات ووضع الهاتف بعيداً قبل الأذان بدقائق ممكنة.

ليس الهاتف عدواً قائماً بذاته، لكن تصميم التنبيهات والمقاطع القصيرة يدرّب النفس على الانتقال السريع. فإذا دخلت الصلاة بعد سلسلة من الصور والأخبار حملت معها بقاياها. ويؤخذ هذا من أصل الإعراض عن اللغو في [المؤمنون: 3]، ومن السنة العملية في إزالة ما يشغل البصر كما في صحيح البخاري 373.
والحل ليس شعاراً عاماً ضد التقنية؛ بل ترتيب قابل للقياس: إيقاف التنبيهات قبل الصلاة، وضع الجهاز خارج مجال النظر، إغلاق العمل الذي ينتظر جواباً، وترك دقائق انتقال إن اتسع الوقت. ومن كانت وظيفته تتطلب اتصالاً دائماً يضبط الضرورة بقدرها. المقصود أن يدخل الصلاة بإرادة واحدة، لا أن يظل نصفه ينتظر اهتزازاً قد لا يأتي.

الهاتف مجرى لا عدو مستقل

لا يوجد نص خاص بالهاتف، فلا ينسب إليه حكم تعبدي مستقل. لكنه يجمع صوراً وأخباراً ورسائل تعرف بالتجربة أنها تستدعي الانتباه، فيدخل تحت أصل إزالة الشاغل الذي يشهد له البخاري 373.

تطبيق: يوقف التنبيهات ويضع الجهاز بعيداً قبل الصلاة، ويخبر من يحتاج أنه سيعود بعد دقائق. من كانت له ضرورة حقيقية يربتها بقدرها. لا يجعل الإجراء معيار صلاح للناس، بل أداة لحفظ انتباهه هو.

والأهم علاج ما بعد الإبعاد: قد يبعد الجهاز ويبقى القلب يتوقعه. يعيد نفسه إلى معنى القراءة كلما انتبه، ويقلل جرعات التصفح قبل الصلاة. الخشوع لا يبني بزر واحد، لكنه يستفيد من قرار تقني واضح.

التكييف: الهاتف وسيلة معاصرة، فلا ينسب إليه نص خاص. يدخل ضبطه تحت إزالة الشاغل، وحفظ الوقت، ومنع الأذى. والخطوة تختلف باختلاف الواجب؛ طبيب المناوبة ليس كمن يتصفح للفراغ.

خطة قابلة للتنفيذ: قبل الصلاة يوقف التنبيهات غير الضرورية، ويبعد الشاشة عن مجال النظر، ويبلغ من يلزم بوقت عودته. وإذا

كان ينتظر اتصالاً واجباً رتب من ينوب عنه أو عمل بالحكم الشرعي الذي يسأل عنه أهل العلم؛ لا يفتي لنفسه باسم الخشوع. بعد السلام لا يندفع مباشرة إلى الشاشة. يمنح الأذكار حقها، ثم يعود لحاجته. بهذا يتعلم أن الأداة في يده لا أن قلبه في يدها، وأن الخشوع قرار يمتد دقائق خارج السجادة.

لا يوجد نص خاص بالهاتف، ولا يصح إلصاق حكم شرعي بتقنية لمجرد النفور منها. لكنه يدخل في الأصول العامة: إزالة الشاغل، والإعراض عن اللغو، ومنع الأذى، وحفظ الوقت. فالانتقال كل ثوان بين رسالة وصورة وخبر يدرب الذهن على التبديل، ثم يطلب صاحبه منه أن يسكن بمجرد سماع الإقامة.

العلاج ترتيب لا خصومة مع الأداة. يوقف التنبيهات التي لا ضرورة لها، ويضع الجهاز خارج مجال النظر، ويكتب آخر خطوة في عمله ليعود إليها بعد الصلاة، ويترك للأذكار دقائقها قبل فتح الشاشة. أما من كانت لديه مناوبة أو ضرورة فيقدرها بقدرها ويسأل عن أحكام حاله، ولا يحمل الناس على ظرف واحد. الهدف أن يستعيد حرية الاختيار: يفتح حين يريد لحق، ويغلق حين يقف بين يدي الله، بدل أن تستدعيه الأداة كلما شاءت.

الانتباه مورد أخلاقي لا مهارة إنتاجية فقط

يعامل الخطاب المعاصر الانتباه غالباً بوصفه أداة لإنجاز العمل. وفي العبادة يظهر بعده الأخلاقي: ما الذي يملأ به الإنسان بصره وسمعه؟ ولمن يمنح أفضل دقائق وعيه؟ فضول النظر والكلام والتنبيهات لا تسرق وقتاً فحسب؛ إنها تدرب النفس على أن تستجيب للأقوى إثارة لا للأعلى قيمة.

لهذا لا تختزل معالجة الهاتف في وضع الصامت. قد يسكت الجهاز وتظل النفس تنتظر فتحه. المطلوب إعادة ترتيب العلاقة بالتدريج: أوقات يفتح فيها الحاجة، ومساحات يغلق فيها بقرار، ومحتوى يتركه لأنه يلوث الذاكرة أو يثير المقارنة. غض البصر في [النور: 30] أصل عبادي، والإعراض عن اللغوي [المؤمنون: 3] أصل آخر؛ والتقنية موضع معاصر لتطبيقهما لا مصدر حكم مستقل.

ولا يلزم من المجاهدة نجاح كامل. إذا دخل الخاطر أعاده صاحبه بلا غضب، وإذا فشل في يوم استأنف في التالي. الدوام أحب من اندفاعة قاسية تنتهي سريعاً، كما في صحيح البخاري 6464. وبمرور الوقت يتعلم القلب أن الصمت القصير ليس فراغاً، وأن الآية لا تحتاج مؤثراً جديداً كل ثوان كي تبقى حية. الهاتف يجمع وظائف كثيرة: اتصال ضرورة، ومصحف، وعمل، وصحبة، وهو. لذلك لا يفيد وصفه بالعدو بإطلاق، ولا

تركه بلا حدود. حديث الخميصة في صحيح البخاري 373 يقدم قاعدة عملية: ما ثبت أنه يليه يبعد عن موضع الصلاة بقدر الإمكان.

يبدأ العلاج من التنبيه المرئي والمسموع. وضع الصامت قد لا يكفي إذا بقي الجهاز أمام العين أو إذا كان صاحبه ينتظر خبراً. يمكن أن يضعه في موضع آخر، أو يفوض اتصال الطوارئ لمن معه، أو يستخدم إعداداً يسمح لأرقام محددة. هذه ترتيبات بشرية تتغير ولا تنسب إلى السنة.

المشكلة الأعمق هي التوقع: العقل ينتظر مكافأة جديدة كل لحظة. الانتقال المباشر من تمرير المقاطع إلى التكبير يترك آلة التوقع تعمل. لذلك تفيد مهلة قصيرة بلا تصفح، لا لأنها عدد مقدس، بل لأنها تسمح بانخفاض السرعة. يختبر المرء طولها بحسب حاله. ولا يعامل من يحتاج إلى هاتفه في عمل أو رعاية كما يعامل من يتصفحه عبثاً. الخشوع لا يجهل الواقع. يطلب من الأول تقليل ما يستطيع، ومن الثاني الصديق في تسمية اختياره. وفي الحالتين، إذا عاد الخطر إلى الجهاز أعاده إلى القراءة بلا غضب يضاعف التشتت.

لا يسمى الاعتذار سجوداً على الحقيقة، لكنه يحمل معنى انكسار الكبر: يعترف الإنسان بأنه تجاوز. الاعتذار الصحيح يحدد الفعل، ولا يضع اللوم على مشاعر المتضرر، ولا يطلب غفراناً فوراً.

قد يقول: أخطأت حين فعلت كذا، وهذا ما سأصلحه. ثم يؤدي الحق. الكلمات بلا إصلاح قد تزيد الجرح، والإصلاح بلا كلمة قد يترك غموضاً. يجمع ما يحتاجه المقام. ولا يلزم المظلوم أن يعيد العلاقة كما كانت. يمكن أن يقبل الاعتذار ويحفظ حدوده. الخشوع لا يطالبه بإلغاء خبرته ولا يعفي المخطئ من العواقب.

من تعود الاعتذار خف خوفه من انكشاف النقص، وصار أقدر على التعلم. هذه ثمرة بعيدة للسجود لله: لا يعود حفظ الصورة أكبر من حفظ الحق.

46 | الانشغال بحقوق الناس

المظالم تثقل القلب، والعبادات لا تسقط حقوق العباد. قد يطرق صاحب الحق الذاكرة في الصلاة لأنه لم يؤد حقه خارجها. وموضع الاستدلال هنا صحيح مسلم 2581. خطوة قريبة: كتابة الحق المؤجل وخطة أدائه، والاعتذار حيث يلزم.

قد يلح صاحب الحق في الذاكرة عند الصلاة لأن الملف خارجها لم يغلق. حديث المفلس في صحيح مسلم 2581 يبين خطر الحسنات التي تذهب بسبب ظلم الناس. فلا يصح أن يبحث المرء عن خشوع مريح وهو يؤخر ديناً قادراً على أدائه، أو يمسك أجراً، أو يصير على أذى يمكن إصلاحه.

ليس كل خاطر عن الناس دليل مظلمة، ولا يجوز تحويل الوسواس إلى اتهام للنفس. لكن الحقوق المعلومة تحتاج قائمة واضحة: مال يرد، اعتذار يقال، وعد يصحح، وموعد وفاء واقعي. حين يفعل العبد ما يستطيع يخف حمل معلوم عن قلبه، ويدخل الصلاة طالباً العون على تمام العدل. فالخشوع الذي لا يثر أمانة مع الخلق ناقص الأثر، وإن بدا جميلاً في الهيئة.

حقوق الناس تدخل ميزان العبادة

وفي الحديث: يبين صحيح مسلم 2581 حال المفلس الذي يأتي بصلاة وصيام وزكاة، وقد ظلم الناس بلسانه ويده وماله، فتؤخذ من حسناته. الحديث يمنع تصور عبادة قلبية منفصلة عن المظالم. من شغله حق إنسان في الصلاة لا يكفي أن يتعلم حيلة للتركيز؛ قد يكون العلاج رد الحق أو الاعتذار أو قضاء الدين. الخشوع لا يحو المظلمة، بل ينبغي أن يحرك إلى تصحيحها. وفي المقابل لا يدخل المصلي في حسابات طويلة أثناء الصلاة. إذا خطر الحق ثبت عزمه، وأكمل عبادته، ثم نفذ ما يلزم بعد السلام. بهذا يحفظ الصلاة ولا يستعملها للهروب من صاحب الحق.

والدليل: يصور صحيح مسلم 2581 المفلس الذي يأتي بعبادات ثم توزع حسناته بسبب ما وقع فيه من ظلم للناس. لا يدل الحديث على بطلان كل عبادة مع الذنب، لكنه يهدم الوهم القائل إن كثرة الشعائر تعفي من الحقوق.

إذا عاد دين أو خصومة أو مال محبوس في الصلاة، فقد يكون الفكر نداء ضمير لا مجرد مشقة. لا يحل المسألة داخل الركعة، لكنه يعزم على رد الحق ويكتب ما يلزم بعد السلام. إن كان النزاع ملتبساً رجع إلى القضاء أو الفتوى المختصة.

وإصلاح الحق لا يضمن شعوراً خاصاً، لكنه يزيل سبباً حقيقياً من أسباب قلق القلب. الخشوع الذي لا يحمل صاحبه على العدل ناقص الأثر، والعدل الذي يؤديه الله من أعمال القلب والجوارح معاً.

يصور صحيح مسلم 2581 المفلس يوم القيامة وقد جاء بصلاة وصيام وزكاة، ثم جاءت مظالمه في الناس فأخذوا من حسناته. لا يفيد الحديث بطلان كل عبادة مع كل ذنب، لكنه يمنع الاطمئنان إلى كثرة الشعائر مع الإصرار على أذية الخلق. وإذا عاد دين أو أجر عامل أو خصومة ظالمة إلى الذاكرة في الصلاة، فقد لا يكون الحل مهارة تركيز وحدها.

لا يحل المصلي النزاع داخل الركعة، بل يكمل صلاته ثم يسجل ما يجب ويبدأ رده. إن كان الحق مشتبهاً رجع إلى فتوى أو قضاء مختص، وإن كان واضحاً لم يؤجله خلف كلام وجداني عن صفاء القلب. ومن لم تكن عليه مظلمة معلومة لا يتهم نفسه بلا بينة. التوازن أن يتعامل مع الحق المعلوم بجحد، ومع الوسواس بالإعراض. الخشوع الذي يخرج بصاحبه إلى عدل أعمق أبقى من خشوع يبحث عن راحة خاصة ويترك الآخرين يحملون أثره.

حقوق الناس ليست هامشاً على أعمال القلوب

من السهل أن يتخيل القارئ كتاب الخشوع حديثاً عن الخلوة والدمع والذكر فحسب. لكن صحيح مسلم 2581 يضع المظالم بجوار الصلاة والصيام والزكاة في مشهد المفلس، وسياق المعارج يضع حق المال والأمانة والشهادة بين وصفَي الدوام والمحافظة على الصلاة [المعارض: 22-35]. هذه ليست إضافة اجتماعية على موضوع القلب؛ إنها كشف لصدقه.

قد يكون صاحب الحق أشد حضوراً في الذهن من الآية لأن العبد آخر ما يجب. العلاج ليس دائماً أن يتعلم صرف الخاطر؛ أحياناً أن يؤدي الحق. وإذا لم يملك الوفاء كله بدأ بما يقدر عليه، وطلب الإمهال بصدق، ووثق ما يلزم. وإذا كان النزاع ملتبساً لم يحكم لنفسه، بل رجع إلى جهة علم أو قضاء. وعندما يعتذر لا يجعل اعتذاره وسيلة لشراء راحة قلبه فقط؛ يعطي المتضرر حقه في القبول أو التأخر.

بهذا يصبح الخشوع قوة عدل. الصلاة تذكّر العبد بمن يقف بين يديه، فيستحي أن يطلب الرحمة وهو يصر على ظلم. ولا يعني ذلك أن المذنب يترك العبادة حتى يصلح كل شيء؛ بل يعبد ويتوب ويصلح معاً. باب الله لا يغلق في وجه المقصر، لكن فتحه لا يتخذ ستاراً لإغلاق أبواب الحقوق.

قد ينشغل المصلي بدين أو وعد أو مظلمة. ليست كل هذه الخواطر سواء؛ بعضها ضئيل، وبعضها جرس حق. إذا كان يستطيع أداء الحق قبل الصلاة من غير تفويت أو ضرر فعل، وإذا لم يستطع وضع خطة واضحة بعد الصلاة. أما محاولة إسكات الضمير مع بقاء الظلم فليست خشوعاً.

قال الله إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر [العنكبوت: 45]. لا يقتضي ذلك أن كل مصلي يترك كل منكر فوراً، لكنه يثبت وظيفة الصلاة في بناء النهي. حين تذكره الركعة بمظلمة، فالثمرة أن ينتقل من التذكر إلى التوبة والرد، لا أن يعد ورودها فشلاً محضاً.

وفي المقابل، قد يكون الخاطر وسواساً بحق قديم أدي أو مسألة لا يملكها. هنا يحتاج إلى بيئة وحكم، لا إلى إعادة الاعتذار بلا نهاية. يستشير من يعلم ويغلق ما أغلق شرعاً. الخشوع لا يطلب إرضاء كل شعور بالذنب، بل الخضوع للحق المحدد.

التطبيق إعداد سجل حقوق خارج الصلاة: ما يجب اليوم، وما يحتاج موعداً، وما هو محل نزاع يحتاج حكماً. عندما يقتحم أحدها الصلاة يقول لنفسه إن له مكاناً معلوماً بعد السلام. ثم يفي بالمكان؛ لأن الخطوة التي لا تنفذ تصبح خدعة جديدة للقلب.

الأصل حب السر وترك تتبع العورات، لكن إذا استمر اعتداء أو تعلق حق عام وجب إبلاغ من يقدر على منعه وفق النظام

والشرع. الصمت هنا قد يخدم الظالم. الفقه يفرق بين فضول النشر وحاجة الحماية.

يقتصر المبلغ على ما يعلم، ويميز المشاهدة من الظن، ويحفظ الوثائق، ولا يضيف اتهامات لتقوية قضيته. الخشوع يمنعه من الكذب حتى على من ظلمه.

وبعد وصول الأمر إلى الجهة المناسبة لا يحوله إلى مادة جمهور إلا لحاجة معتبرة. كرامة الناس لا تسقط كلها بخطأ، والتحقيق له أهله.

هذا الباب يحتاج استشارة عند التعقيد، ولا يحسم بشعار «استر» أو «افضح». الانقياد لله هو طلب الحكم المناسب ولو خالف انفعال اللحظة.

47 | التكلف في الهيئة

قد تبدو العبادة للناس وتفرغ من الإخلاص. الهيئة الساكنة نافعة إذا تبعت السنة، لكنها تفسد حين تصير عرضاً للخشوع. وموضع الاستدلال هنا [الماعون: 4-6].

خطوة قريبة: نسيان نظرات الناس، وفحص الصلاة في الخلوة حيث لا مدح.

قد يظن المصلي أن عليه أن يصنع ملاحم مخصوصة ليرى خاشعاً. والقرآن ذم المرائين في [الماعون: 4-6]، فصار فحص القصد لازماً. ليست الهيئة الساكنة مذمومة؛ بل كثير منها موافق للأدب والسنة. المذموم أن تتحول إلى عرض، أو أن يقسو المرء في الخلوة ويتزين في الجماعة بما لا يطلب به وجه الله.

ويعين على السلامة أن يعتني المصلي بصلاة لا يراه فيها أحد كما يعتني بصلاته أمام الناس، وأن يترك مراقبة صورته في أعينهم. لا يفتش في وجهه عن أثر، ولا يختبر دموعه، ولا يهتم غيره. المعيار الأقرب: هل حفظ الأركان؟ هل ازداد بعد الصلاة صدقاً ورفقاً؟ أما بواطن الخلق فإلى الله.

الهيئة تتبع المعنى

السكون المشروع مطلوب، لكن تصنع الانكسار للنظر أو اعتماد هيئة لم تثبت يفسد التربية. الجسد يتأدب بأحكام الصلاة، والقلب يتعلم معانيها، ولا يحتاج أحدهما إلى تمثيل الآخر. قد يكون الإنسان بطبعه هادئاً ولا يكون حاضراً، وقد يبدو على آخر أثر يسير وقلبه صادق. لذلك لا يحكم على البواطن، ولا يهمل ظاهر نفسه. يلتزم الهيئة الصحيحة، ويترك الحركات العابثة، ولا يصنع نبرة أو انحناء إضافياً طلباً لصورة الخاشع. والعلاج مراقبة المقصود: هل أصلح صلاته لله أم ليدو كذلك؟ إذا اختلط القصد استغفر وجدد نيته، ولا يترك العمل. صدق المجاهدة أهدأ من مطاردة صورة مثالية. لا يهمل العبد ظاهر الصلاة بحجة أن القلب هو الأصل، ولا يصنع هيئة إضافية ليقنع الناس بأن قلبه خاشع. يلتزم السكون والطمأنينة وغيض البصر وفق السنة، ويترك الحكم على غيره. إذا وجد من نفسه التفاتاً إلى نظرة الناس، جدد نيته وأكمل، ولا يقطع العمل. علاج الرياء ليس ترك الهيئة المشروعة، بل رد القصد إلى الله. كل مرة يعود فيها من الصورة إلى المقصود خطوة في صدق الخشوع.

لا تجعل السكون خطاباً للجمهور

الطمأنينة وغيض البصر وتقليل الحركة أعمال مشروعة في مواضعها، لكن القلب قد يلتفت بها إلى الخلق. يحذر القرآن من الرياء [الماعون: 4-6]، ويثبت صحيح مسلم 1905a خطورة طلب السمعة بالعلم والصدقة والجهاد. ويقرر صحيح مسلم 2564c أن نظر الله يتعلق بالقلوب والأعمال، لا بالصور والأموال؛ فيجتمع إصلاح الباطن مع صدق العمل، ولا تصبح الهيئة الخارجية غاية. لا يسقط ذلك العمل المشروع؛ بل يطالب بتصحيح القصد. فترك الصلاة أو العبادة خوفاً من رؤية الناس قد يكون باباً آخر من سلطانهم.

يعالج العبد الالتفات بأن يستوي عنده أصل العمل في الخلوة والجلوة، وأن لا يضيف هيئة ليراها أحد، وأن يقبل انكسار صورته إذا احتاج إلى تصحيح. ولا يحكم على شخص ساكن بأنه مرء، أو كثير الحركة بأنه خال من الخشوع؛ فالبواطن إلى الله، والظاهر تضبطه الأحكام. ويقرر ابن رجب في «الذل والانكسار للعزیز الجبار» أن أصل الخشوع لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره، وأن الجوارح تتبع القلب إذا خشع؛ أما العبارة المشهورة «لو خشع قلب هذا...» فلا ترفع حديثاً نبوياً ثباتاً. سلامة النسبة من سلامة القصد.

ربط ابن رجب أصل الخشوع بالقلب واتباع الجوارح له في «الذل والانكسار للعزیز الجبار» عند قوله: «وأصل الخشوع...»، وفي «مدارج السالكين» شرح ابن القيم عبارة صاحب «المنازل» في الدرجة الأولى: «التذل للأمر والاستسلام للحكم»، مبيناً معنى القبول والانقياد والافتقار. ويلتقي المعنيان في أن الظاهر ثمرة ومجال إصلاح، لكنه ليس نافذة يقينية إلى السر.

التكلف قد يكون في إبطاء المشي، أو خفض الصوت حيث يحتاج البيان، أو صناعة ملاح يراها الناس. وقد يكون في الطرف الآخر: حركة كثيرة مع دعوى أن القلب حاضر. المنهج يعدل بينهما؛ يصلح العبد جوارحه بما جاءت به السنة، ولا يجعل الصورة غاية.

إذا رأى الإنسان من نفسه رغبة في أن يلاحظ الناس خشوعه، لم يترك العبادة لأجل الخاطر. يجاهد القصد ويكتم ما يستطيع من العرض ويستمر. ترك العمل المشروع خوف الرياء قد يصير باباً آخر للشيطان، كما أن طلب نظر الناس يفسد المقصود. يحتاج إلى علم وحذر بلا يأس.

التطبيق أن يقلل العلامات التي يصنعها هو، لا العلامات التي تغلبه. لا يتصنع البكاء، ولا يقاوم دمعاً جاء ليبدو قوياً. لا يرفع صوته ليؤثر، ولا يخفضه ليشتهر بالخشوع. يتبع الحكم ويترك الصورة لله.

يعرف المؤمن نقصه، لكنه لا يهين نفسه بعبارات مطلقة. هو عبد مذنب يرجو، لا كتلة فساد بلا باب. الرحمة بالنفس تعني إعطاءها حق النوم والعلاج والتعلم، ومنعها في الوقت نفسه من هواها المحرم.

التزكية المذمومة أن يشهد لها بالكمال أو يحتقر غيره، أما معرفة نعمة الله وقدره النفس على التعلم فليست كبراً. يمكن أن يقول: تحسنت في حفظ الوقت، ويحمد الله، ثم يواصل. والقسوة على النفس قد تتكرر في لباس المجاهدة. يحملها فوق طاقتها، ثم ينقطع ويكره العبادة. السنة تبني دواماً، والواجبات تضبط الأولوية.

يسأل في كل برنامج: هل يصلحني أم يعاقبني؟ العقوبة الذاتية لا تكفر الذنب، والتوبة لها طريق معلوم. هذا السؤال يحرر المجاهدة من الغضب على الذات.

48 | اليأس من قلب شارد

تكرر الشرود لا يبيح القنوط؛ كل عودة إلى المعنى عبادة ومجاهدة. اليأس يجعل العارض حكماً نهائياً على القلب. وموضع الاستدلال هنا [الزمر: 53].

خطوة قريبة: العودة الهادئة كلما انتبه المصلي، من غير قطع للصلاة ولا جلد للنفس.

حين يكتشف المصلي شروده قد يظن أن الصلاة ضاعت كلها، فيستسلم لبقية الركعات. وهذا باب آخر للشيطان. قوله تعالى: {لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ} [الزمر: 53] أصل عام يمنع تحويل التقصير إلى حكم نهائي. والعودة إلى الآية أو الذكر كلما انتبه العبد عمل متكرر، لا فضيحة داخلية.

الشرود لا يحكم على الصلاة كلها

أصل الباب: الاستعاذة من قلب لا يخشع ثابتة في مسلم 2722، والدوام على العمل وإن قل ثابت في البخاري 6464. يجمع الأصلان الاعتراف بالنقص والاستمرار في الإصلاح.

تطبيق: حين ينتبه المصلي إلى الشرود لا يعيد الحوار الداخلي ولا يسب نفسه. يرجع إلى الكلمة التي هو فيها ويكمل. بعد السلام

يسجل السبب إن كان متكرراً: موعد ضيق، شاشة، جوع، خصومة، أو معنى يجهله.

اليأس شاغل آخر؛ إذ يحول كل تعثر إلى حكم دائم. أما الرجاء المنضبط فيقول: أخطأت وسأعود وأصلح السبب. هذا لا يزيك الصلاة ولا يضمن قبولها، لكنه يحفظ باب العمل مفتوحاً ويمنع الشيطان من جمع الغفلة والقنوط معاً.

من السنة: في صحيح مسلم 2203a شكا عثمان بن أبي العاص أن الشيطان حال بينه وبين صلاته وقراءته ولبسها عليه، فعلمه النبي ﷺ الاستعاذة بالله، والنفث اليسير عن اليسار ثلاثاً على الصفة المذكورة. ثبت العلاج في نص صحيح، فلا يستبدل به طقس مبتدع ولا يوسع خارج أحكامه.

وجود الوسوسة لا يساوي غياب الإيمان، وشكوى الصحابي نفسها تمنع اليأس من تصور أنه وحده. يعمل بالتوجيه المشروع، ويتعلم أحكام الشك من أهل العلم، ولا يعيد الصلاة لمجرد خاطر ما لم يقم سبب شرعي.

ومن التطبيق أن يفرق بين شاغل له سبب يمكن إزالته ووسوسة قهرية تتكرر بلا معنى. الأول يعالج بتنظيم البيئة والوقت، والثاني بالاستعاذة والإعراض وعدم الاسترسال، مع طلب مساعدة مختصة عند الحاجة الصحية. لا يحول الكتاب العبادة إلى

تشخيص طبي، لكنه لا يجعل المريض مذنباً لأنه ابتلي بما لا يختاره.

أهم ما يضيفه خبر عثمان بن أبي العاص في صحيح مسلم 2203a إلى هذا الباب أن الشكوى نفسها لم تكن علامة طرد؛ عرض الصحابي اضطراب صلاته وقراءته، فتلقي علاجاً نبوياً محدداً بالاستعاذة والنفث اليسير على صفته. يخرج المصلي من الخبر بإمكان العلاج، لا بهوية جديدة يسمي فيها نفسه «صاحب قلب مطرود»، ولا بطقوس يزيد بها كلها اشتد قلقه.

يفرق المصلي بين شاغل واضح ووسوسة ملحة. الشاغل الظاهر يعالج بتنظيم الوقت والمكان؛ والوسوسة يدفعها بالاستعاذة والإعراض، ويتعلم أحكام الشك من أهل العلم. وإذا تحولت الأفكار القهرية إلى معاناة صحية طلب علاجاً متخصصاً من غير وصمة. ليس مطلوباً أن يفحص إيمانه بعد كل خاطر، بل أن يعود إلى ما بين يديه. كل عودة هادئة مقاومة، وعدم مناقشة الوسواس انتصار عملي ولو لم يصحبه شعور قوي.

بين المحاسبة والوسواس

المحاسبة تنظر إلى عمل معلوم ثم تقترح إصلاحاً؛ والوسواس يدور في احتمال بلا نهاية. الأولى تقود إلى توبة أو حمد أو رد حق، والثانية تستهلك القدرة وتطلب يقيناً لا يملكه الإنسان. قوله

تعالى: {وَلَتَنْظُرُنَّ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} [الحشر: 18] يوجه النظر إلى ما قدمت، لا إلى تفتيش لا ينتهي في كل خاطر.

حين يراجع المرء صلاته يختار ملاحظة أو اثنتين ثم يغلق الصفحة. لا يعيد تحليل كل ركعة، ولا يسأل نفسه مرات هل كان مخلصاً. إذا ظهر حكم شرعي تعلمه، وإذا ظهرت وسوسة أعرض عنها وعمل بالعلاج النبوي في بابه. المحاسبة رحيمة لأنها تقود إلى الله، والوسواس قاس لأنه يحبس صاحبه في نفسه.

قد يخرج الإنسان من صلاة مضطربة فيصدر حكماً نهائياً: لا خير في قلبي. هذا الحكم أوسع من الدليل وأشد ضرراً من الواقعة. المطلوب أن يرى النقص، لا أن يغلق باب الرجوع. قال الله بعد نداء الخشوع وتحذير القسوة إنه يحيي الأرض بعد موتها [الحديد: 16-17]؛ وفي السياق رجاء يحفظ المحاسبة من القنوط.

الشروء له درجات وأسباب. قد يكون عارضاً، وقد يتكرر بسبب عادة، وقد يدل على حق مهمل، وقد يكون وسواساً يحتاج علاجاً. جمعها في هوية واحدة يمنع التشخيص الصحيح. يسأل: متى بدأ؟ ما الذي سبقه؟ ما الموضوع الأكثر اضطراباً؟ ثم يختار سبباً يعالجه.

ولا يقيس قلبه بصلاة شخص يراه أو قصة لم يتحقق منها. لا يعلم باطن غيره، ولا يعرف كلفة طريقه. المقارنة النافعة مع واجبه

ومع حاله السابق بقدر لا يولد العجب. إن تحسن شكر، وإن تأخر استمر.

التطبيق بعد الصلاة الشاردة خطوة واحدة: استغفار بلا تهويل، وتحديد سبب، وإصلاح قبل الصلاة التالية. لا يعيد الفريضة لمجرد عدم الشعور من غير حكم، ولا يترك النافلة كلها، ولا يدعي أن الأمر بسيط. يجمع الخوف والرجاء والعمل.

الخاشع يرجو للمحسن ويخاف على المسيء، لكنه لا يوزع أحكام الآخرة على الأعيان بغير دليل. يرى ظاهر العمل ويحكم عليه بما شرع، ويترك السريرة والخاتمة لله.

هذا الأدب يلين الدعوة. ينكر المنكر بلا تشف، ويدعو بلا ضمان استجابة، ويعلم أن قلبه نفسه محتاج إلى الثبات. لا يجعل ماضيه الصالح حصانة من الفتنة.

وفي النقاش العام يبتعد عن الأوصاف الكلية التي تغلق الباب: لا خير فيك، لن نغير. يصف الخطأ ونتيجته، ويبين طريق الرجوع. حتى العقوبة المشروعة لا تمنع بقاء باب التوبة.

والرحمة لا تعني تعريض الآخرين للخطر باسم حسن الظن. تُتخذ الاحتياطات وتوضع الحدود، مع كف اللسان عن الزائد. هكذا يجتمع العدل والرجاء.

الباب السابع: الخشوع خارج الصلاة

49 | خشوع عند القرآن

السجود والبكاء وزيادة الخشوع آثار ذكرها القرآن لسماع الوحي. المقصود قبول الحق وانحاء القلب له قبل الانفعال وبعده. خطوة قريبة: قراءة تفسير موثوق لمقطع قصير ثم تنفيذ أمر أو ترك نهى ظهر فيه.

قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا} ثم قال: {ويزيدهم خشوعاً} [الإسراء: 107-109]. زيادة الخشوع هنا مرتبطة بالتصديق والتسبيح والسجود، لا بمجرد جمال الأداء. فالقرآن يبني موقفاً من الحق قبل أن يصنع شعوراً.

لذلك تكون جلسة التلاوة أتم إذا خرج منها القارئ بأمر يمثل أو نهى يترك أو خبر يصدق. قد يبكي وقد لا يبكي؛ لكن لا ينبغي أن يغادر الآية كما دخلها. ومن التدريب النافع اختيار مقطع قصير، وقراءة تفسير موثوق، ثم تدوين أثر واحد. لا يحول ذلك القرآن إلى قائمة مهام، بل يمنع أن يبقى أثره صوتاً عابراً.

العلم الذي يسجد

والدليل: تصف [الإسراء: 107-109] أهل العلم بأنهم يخرون للأذقان سجداً، ويسبحون ربهم، ويبكون، ويزيدهم القرآن

خشوعاً. جاءت المعرفة والتصديق والسجود والبكاء والزيادة في سياق واحد.

العلم بالقرآن لا يكتمل بجمع المعلومات عن السورة؛ يتحول إلى تعظيم وتصديق وعمل. ولا يعني ذلك أن كل قارئ يبكي في كل مجلس. الآيات تصف أثراً صادقاً، والمكلف يطلب أسبابه ولا يمثل نتيجته.

بعد التلاوة يحدد القارئ خبراً صدقه، وأمرًا امتثله، أو نهياً تركه. السجود المشروع في موضعه عبادة، والعمل بالآية امتداد لها. بهذا يصير القرآن قائداً لليوم لا خلفية صوتية له.

قال الله في أهل العلم عند سماع الوحي: {وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: 109]. وفي فاتحة سورة المؤمنون جاء الخشوع في الصلاة ثم الإعراض عن اللغو وإيتاء الزكاة وحفظ الفروج ورعاية الأمانات [المؤمنون: 1-11]. جمع السياقين يمنع اختزال أثر القرآن في لحظة بكاء؛ فالوحي يخفض القلب ثم يرتب السلوك.

قد يتأثر القارئ ولا تسيل عينه، وقد يبكي ثم يحتاج إلى مجاهدة حتى يثبت الأثر. لا يحقر الحال الأولى ولا يضمن الثانية. يقرأ مقطعاً قصيراً، ويفهم خطاب التكليف فيه، ثم يحدد استجابة: كلمة يتركها، حق يؤديه، أو طاعة يداوم عليها. وإذا كانت الآية

خبراً آمناً به ورد علمه إلى الله. بهذا يصير القرآن قائداً، لا موسيقى روحية يستعملها المرء ثم يعود إلى عاداته كما كانت.

أصل محكم: وصف الله الذين أوتوا العلم من قبل القرآن بأنهم إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً، ويقولون سبحان ربنا، ويخرون يبيكون ويزيدهم خشوعاً [الإسراء: 107-109]. جمع السياق العلم والتلاوة والسجود والتسبيح والبكاء وزيادة الخشوع. ليست الدلالة أن كل تلاوة تستلزم أثراً جسدياً واحداً، بل أن العلم الصحيح يهيئ للاستجابة ويمنع الاستعلاء على الوحي.

الخشوع عند القرآن ثلاث حركات: إنصات يفهم، وتصديق يسلّم، وعمل يجيب. قد يتأثر السامع بالصوت ولا يفقه الأمر، وقد يفهم المعنى ويبقى متردداً في أمثاله، وقد يعمل بجزء وينسى أن الفضل لله. اكتمال الطريق أن يخدم جمال الصوت المعنى، وأن يقود المعنى إلى عبودية، وأن تمنع العبودية العجب.

حد الاستدلال: لا يصح أن يحول القارئ آيات البكاء إلى اختبار للناس، ولا أن يظن أن عدم الدمع يبطل الانتفاع. القرآن نفسه يذكر زيادة الخشوع، وهي أوسع من الدمع: تعظيم، وتسليم، وسجود، وذكر لوعده الله. كما لا يكفي الدمع إذا قام صاحبه من المجلس مصراً على حق عرفه ثم تركه.

تطبيق: عند مقطع قصير يحدد القارئ خبراً يصدقه، وأمرًا أو نهياً يراجعه، ووعداً أو وعيداً يضعه في ميزانه. ثم يختار جواباً

واحدًا ممكنًا. هذه طريقة فهم وتنظيم، لا هيئة تلاوة ماثورة بعدد مخصوص. فائدتها أن تمنع القرآن من أن يكون خلفية صوتية للانفعال، وتعيده خطابًا يطالب القلب والجوارح.

من المعنى إلى المجال

الفصول الأولى تحرر حقيقة الخشوع، والفصول 49-55 تختبرها في مجالات مختلفة. الرابط بينهما أن القلب لا يغير حقيقته كلما تغير المجلس: الذي يتطامن للحق في الصلاة ينبغي أن يتطامن له عند القرآن، والذي يقر بفقره في السجود ينبغي أن يقربه في الدعاء، والذي يعرف المنعم ينبغي أن يشكره عند النعمة، والذي يتعلم عن الله ينبغي أن يزداد خشية، والذي يذل لله ينبغي ألا يذل للباطل.

هذا الاتصال يمنع بناء شخصيتين: عابدًا رقيقًا في محرابه، ومجادلاً متكبرًا إذا نوقش؛ أو قارئًا باكيًا عند الآية، ثم مؤجلًا لحق علمه منها. لا يعني ذلك أن الإنسان يستقيم دفعة واحدة، لكنه يعني أن يرى التناقض موضع علاج لا قدرًا يبرره. الصلاة والقرآن والدعاء والذكر ليست جزرًا منفصلة؛ هي أبواب إلى عبودية واحدة. قال الله تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: 45]. جمعت الآية التلاوة والإقامة والأثر، ثم ختمت بعلم الله بما يصنع الناس. لا

تجعل الصلاة مجرد لحظة وجدانية، بل قوة نهى تدخل صناعة القرار.

ليس معنى الآية أن وقوع المصلي في ذنب يبطل كل أثر أو يخرج منه من دائرة الرجاء. قد يضعف النهي ويقوى، وقد يعصي الإنسان ثم يعود. لكن لا يصح أن يصالح بين صلاة يطلب فيها القرب وخطة معصية مرتبة خارجها. التناقض ليس قدراً محترماً، هو موضع توبة.

الخشوع عند القرآن في الصلاة يضع الأمر والنهي أمام القلب. إذا قرأ رحمة رجاها وسعى في أسبابها، وإذا قرأ وعيداً لم يجعله مادة صوتية. وقد يكون أول الأثر تأخير المعصية، ثم ترك سبب، ثم توبة. لا يحتقر البداية ولا يسميها نهاية.

من التطبيق ربط آية واحدة بقرار معلوم بعد الصلاة. لا يبحث عن تكليف خفي؛ يعمل بالمحكم: غض بصر، صدق، رد أمانة، بر، أو ترك أذى. وإذا لم يعرف وجه العمل سأل. بهذا تتحول التلاوة إلى هداية لا إلى ضغط عاطفي عابر.

يتواضع الطالب للعلم، فينصت ويرجع إلى المصادر ويحفظ قدر العلماء. لكنه لا يمنح بشراً عصمة. الخشوع للحق يجعله يسأل بأدب عن الدليل، ويفرق بين مخالفة مهذبة وخصومة تبحث عن الغلبة.

وقد يمنع الكبر سؤالاً بسيطاً خوفاً من ظهور الجهل. العلاج أن يتذكر أن الجهل الموجود لا يزول بإخفائه. السؤال الصادق عبودية إذا قصد به العمل، أما جمع الأسئلة لإحراج المعلم فباب آخر. وعند اختلاف العلماء لا ينتقي الأسهل لهواه ثم يسميه سعة، ولا الأشد ليظهر الورع. يسأل من يثق بعلمه ودينه، ويبين واقعه، ويتبع ما يغلب على ظنه أنه الحق. من أثر الخشوع العلمي نسبة الأقوال بدقة. إذا لخص قال هذا تلخيص، وإذا اقتبس حافظ على اللفظ، وإذا استنبط لم يعلقه باسم عالم. هذا أدب قلبي قبل أن يكون قاعدة بحث.

من السماع إلى السجود

النص الشرعي: قال تعالى عن الذين أوتوا العلم من قبل القرآن: {إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا}، ثم ذكر تسبيحهم وتصديقهم بوعده الله وبكاءهم وزيادة خشوعهم [الإسراء: 107-109]. المشهد لا يصف سماعاً سليماً؛ المعرفة السابقة التقت بالوحي فظهرت استجابة قولية وبدنية وقلبية.

السماع أول الطريق، وليس كله. قد يصغي الإنسان لجودة الأداء، أو لندرة المعلومة، أو لأنه يحب المتحدث. الاستجابة القرآنية تبدأ حين يصبح الحق هو المركز. يصدق الوعد، وينزه

الرب، ويخضع، ثم يحمل المعنى إلى حياته. لهذا لا يكفي عد المقاطع المسموعة إذا لم يعرف السامع ماذا ثبت له منها. والسجود في الآيات خبر عن قوم مخصوصين واستجابة مشروعة في سياقها؛ لا يصنع القارئ من كل تأثر هيئة جديدة. فقه سجود التلاوة وأحكامه يؤخذ من موضعه. المقصود هنا دلالة الانتقال من العلم إلى الانقياد، لا اختراع ممارسة.

كثرة المحتوى قد تضعف هذا الانتقال. ينتقل السامع من تلاوة إلى موعظة إلى نقاش من غير زمن يفهم أو يعمل. المشكلة ليست في وفرة الخير، بل في غياب الهضم. الخشوع يحتاج أحياناً إلى إغلاق المقطع التالي، وإعادة آية واحدة إلى سياقها، ثم سؤال النفس عن حقها.

كما أن تعظيم القرآن يمنع استعماله زينة للخصومة. قد يقطع المرء آية ليكسب نقاشاً، أو يرسلها لمن يخالفه من غير فهم لحاله، أو يجعلها عنواناً لمحتوى لا يصون معناها. من خشع للقرآن حفظ سياقه ولم يجعله أداة انتصار شخصي.

تطبيق: في مجلس القرآن يختار القارئ مقطعاً قصيراً، ويقرأ تفسيراً موثقاً، ويفصل في ملاحظته بين «النص»، و«شرح العالم»، و«ما فهمته للتطبيق». هذا الفصل لا يبرد التلقي؛ بل يحميه من نسبة الخاطر إلى الوحي. ثم يلتزم أثراً واحداً، ولو كان ترك كلمة أو أداء أمانة.

50 | خشوع في الدعاء

أمر الله بدعائه تضرعاً وخفية، فخشوع الدعاء يظهر في الافتقار والأدب وصدق الطلب، لا في الصياح أو تزويق العبارة. وموضع الاستدلال هنا [الأعراف: 55].
خطوة قريبة: دعاء خفي بكلمات واضحة، يبدأ بالحمد ويتضمن سؤال الهداية.

قال الله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [الأعراف: 55].
التضرع افتقار، والخفية أبعد عن الاستعراض وأجمع للقلب. لا يلزم أن تكون العبارة طويلة أو مزخرفة؛ فصدق الحاجة واتباع المأثور أولى من صناعة كلام يعجب قائله.

ويمكن أن يبدأ الدعاء بحمد الله والصلاة على نبيه ﷺ ثم بسؤال واضح: هداية في قرار، أو عون على طاعة، أو مغفرة ذنب. لا يحدد الله صورة الإجابة، ولا يجعل تأخرها علامة رفض. ويظل الدعاء مصحوباً بالأسباب المشروعة: من يسأل السداد يستشير ويتحقق، ومن يسأل الرزق يسعى، ومن يسأل صلاح العلاقة يؤدي حقها. بهذا يجتمع خشوع الطلب مع صدق العمل.

خفاء الدعاء يحرس المقصود

دليل الباب: أمر الله بدعائه تضرعاً وخفية [الأعراف: 55].
التضرع يقرر الافتقار، والخفاء يجمع القلب ويحرسه من طلب نظر الناس، مع بقاء الجهر مشروعاً في مواضعه الثابتة.
لا يحتاج الدعاء إلى بلاغة متكلفة. يسأل العبد حاجة مشروعة بوضوح، ويحمد ربه، ويصلي على نبيه ﷺ في موضعها، ويتجنب الاعتداء. وإذا دعا بلفظ مأثور حفظه كما ورد.
ثم يصدق السؤال بسبب مناسب: من يسأل علماً يتعلم، ومن يسأل إصلاحاً يعتذر، ومن يسأل رزقاً يسعى. العمل لا يشتري الإجابة، لكنه يمنع الدعاء من أن يكون بديلاً عن الواجب.
أمر الله عباده أن يدعوه تضرعاً وخفية [الأعراف: 55].
الخفاء يرد السائل إلى حاجته الحقيقية، فلا يطيل لأن الناس يسمعون، ولا ينتقي العبارة ليعجب بصياغته. والتضرع لا يعني الصراخ؛ هو افتقار يعرف فيه العبد عجزه وكمال ربه، ويطلب بأدب ويوقن أن الإجابة ملك لله صورةً ووقتاً.
يمكن للداعي أن يبدأ بالمأثور الجامع، ومنه ما في صحيح مسلم 2722 من سؤال تزكية النفس والاستعاذة من قلب لا يخشع. لا يغير اللفظ النبوي ليحسنه، ولا يجعل عدداً لم يثبت شرطاً. ثم يقرن السؤال بسبب مشروع: من يسأل علماً نافعاً يتعلم ويعمل، ومن يسأل قلباً خاشعاً يترك المانع ويتدبر الذكر. الدعاء لا يلغي

العمل، والعمل لا يستغني عن العون؛ واجتماعهما هو صورة الافتقار الناضج.

الدعاء الخفي يربي الصدق ولا يحتكر الإجابة

أصل محكم: أمر الله بدعائه تضرعاً وخفية، ونهى عن الاعتداء، ثم قرن الدعاء بالخوف والطمع والإحسان [الأعراف: 55-56]. وفي صحيح مسلم 2722 استعاذة النبي ﷺ من قلب لا يخشع ودعاء لا يسمع. يجمع الموضعان أدب الدعاء وحاجة الداعي وخوفه ورجاءه، من غير وعد بأن كل صورة يختارها العبد ستقع كما تصور.

الخفاء يحرس المقصود من العرض، لكنه ليس شرطاً في كل دعاء؛ في السنة أدعية جهر بها للتعليم أو في مواطن مشروعة. المقصود ألا يصبح سماع الناس غاية خفية. وكذلك التضرع لا يعني الاعتداء في المسألة أو الجزم على الله أو تعليق الإيمان على تحقق صورة واحدة. يدعو العبد راغباً، ويقبل حكمة ربه، ويستمر في العمل الذي يقدر عليه.

منع الوهم: قد يتأخر المطلوب، فلا يجوز أن يخترع الناقل سبباً باطنياً جازماً: لأن يقينك ناقص، أو لأن دعائك غير خاشع. هذه دعاوى لا يعلمها. يقال بدلاً منها: راجع الموانع المعلومة، وتب إن

ظهر ذنب، وأصلح السبب، ولا تقطع الرجاء. الإجابة أوسع من تصور الداعي، والتأخر لا يساوي الرفض.

تطبيق: يهين الداعي قلبه بجملة حاجة صادقة، ويسمي مطلوبه من غير تكلف، ويثني على الله بما يعلم، ثم يدعو. وبعد الدعاء يسأل: ما الخطوة التي كلفت بها؟ قد تكون إصلاح علاقة، أو طلب علاج، أو سعي رزق، أو صبراً عن محرم. بهذا يبقى الدعاء عبادة افتقار لا بديلاً عن التكليف.

أمر الله بالدعاء تضرعاً وخفية [الأعراف: 55]، وأمر بذكره في النفس تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول [الأعراف: 205]. الخفاء يحرس المقصود من طلب نظر الناس ويمنح القلب مساحة صدق، لكنه لا يعني أن كل دعاء مسموع رياء؛ في السنة أدعية جهر بها للتعليم ومواطن لها حكمها.

المعيار هو القصد والاتباع. قد يخفض شخص صوته وقلبه ينتظر الثناء، وقد يسمعه الناس من غير أن يطلبهم. لا يملك الإنسان تفتيش كل خاطره، لكنه يملك أن يقلل دواعي العرض وأن يرد نفسه إذا لاحظها. ولا يترك الدعاء لأنه خاف الرياء؛ يدعو ويجاهد.

وفي الدعاء الجماعي أو التعليم أو القنوت مسائل فقهية لا يحسمها الانطباع الوجداني. يرجع فيها إلى الدليل وأهل العلم.

الخشوع لا يعطي صاحبه حق تبديع هيئة لم يدرسها، ولا حق اختراع هيئة يحبها.

التطبيق في الدعاء الفردي أن يسمي حاجته بلا سجع متكلف، ويثني على الله بما صح، ويجمع الرجاء بالخضوع. ثم يقوم إلى سببه الممكن. إن تأخرت الإجابة لم يخترع حكماً على باطنه، بل يبقى على الباب ويصحح المعلوم.

الموظف الخاشع لله يعلم أن الوقت والمال أمانة. لا يكفي أن يصلي في مكتبته ثم يضيع حقوق المراجعين. يظهر أثر الصلاة في الموعد، والوضوح، ورد الخطأ، وعدم استعمال النفوذ لمصلحة خاصة.

الإتقان لا يعني الكمال المستحيل. يضع معياراً مناسباً، يسلم في الوقت، ويطلب مراجعة في المواضع الحساسة. السعي إلى صورة كاملة قد يؤخر مصالح الناس مثلها يؤخرها الإهمال.

إذا أخطأ لم يدفن الخطأ ليحفظ سمعته. يبلغ من يلزم، ويصلح الضرر، ويتعلم. هذا الانكسار العملي أثقل من كلمات كثيرة عن التواضع.

ومن حقه أن يطلب أجره وحدوده، فالخشوع ليس قبول الاستغلال. يطالب بأدب وبيئة، ولا ينتقم من المستفيدين لأن المؤسسة ظلمته.

51 | خشوع عند الذكر

الذكر الذي يخاطب القلب أوسع من حركة اللسان، لكنه لا يستغني عنها. تواطئ اللسان والقلب هو الطريق، والتفاوت لا يبطل البداية.

خطوة قريبة: اختيار ذكر ثابت وفهم معناه وتكراره بلا عدد مخترع.

قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} [الحديد: 16] يجعل الذكر باباً للخشوع، لكنه لا يلغي عمل اللسان ولا يحصر الذكر فيه. المقصود أن يعرف العبد من يذكر، وأن تستيقظ معاني التسبيح والتحميد والتكبير والاستغفار في قلبه. قد يبدأ اللسان والقلب متأخر، فلا يترك الذكر لهذا السبب. يبطئ قليلاً، ويفهم اللفظ، ويتجنب عدداً لم يثبت إذا جعله عبادة مخصوصة. وبعد الصلاة تأتي الأذكار الثابتة لتمنع القطيعة المفاجئة بين الوقوف بين يدي الله والعودة إلى العالم. الذكر جسر، لا ضوضاء أخرى تضاف إلى اليوم.

الذكر فهم ودوام

دليل الباب: جعلت [الحديد: 16] ذكر الله وما نزل من الحق باباً لخشوع القلوب، وحذرت من طول الأمد والقسوة. الذكر هنا متصل بالوحي والاستجابة، لا بمجرد حركة لسان منفصلة. يبدأ الإنسان بالذكر الثابت، ويفهم معناه، ويكرره في وقته من غير عدد مخترع. قد يسبق اللسان القلب، فلا يترك الذكر، بل يبطئ ويستحضر من يخاطب. وقد يحضر القلب ثم يغفل، فيعود بلا عجب.

والدوام أهم من دفعة قصيرة تستنزف صاحبها. يثبت الأذكار المشروعة حول الصلوات والصباح والمساء بحسب علمه وقدرته، ويطلب التصحيح من مصدر موثوق. هكذا يصير الذكر طريقاً مألوفاً لعودة القلب.

قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} [الحديد: 16] يجعل الذكر باعثاً إلى حياة القلب. وليس المقصود أن يظل المرء في عزلة لفظية؛ فالذكر المشروع يدخل في الصلاة وبعدها، وفي أحوال اليوم، ويرد صاحبه إلى واجبه. وقد يذكر اللسان والقلب بعيد، فلا يترك اللفظ الثابت؛ يبطئ ويفهم ويجاهد التواطؤ.

أقرب التدريب أن يختار ذكراً ثابتاً في موضعه، يعرف معناه، ويمنحه انتباهاً من غير عدد مبتدع. فإذا قال «أستغفر الله» بعد

الصلاة تذكر نقصه ورجاءه، وإذا حمد بعد نعمة استعملها في الخير. لا يقيس نجاح الذكر بإحساس لحظي، بل بقدر ما يقطع الغفلة ويعيده إلى الاستقامة. الذكر جسر إلى الحياة تحت نظر الله، لا وسيلة للهروب من مسؤولياتها.

الذكر حضور يتكرر داخل الواجب

أصل محكم: قال تعالى: «فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» [البقرة: 152]، وأمر بذكره في النفس تضرعاً وخيفة بالغدو والآصال، ونهى عن الغفلة [الأعراف: 205]. يظهر من الموضعين أن الذكر علاقة عبودية وشكر ومداومة، لا حركة لسان منفصلة عن المقصود.

لا يلغى فضل الذكر اللساني إذا شرد القلب؛ اللسان باب، والقلب يعاد. لكن لا تُجعل كثرة العدد حجاباً عن المعنى والحق. وقد يأتي الذكر في طريق أو عمل أو انتظار، فلا يشترط أن ينسحب الإنسان من وظيفته. وفي مواطن حقوق الناس يكون من تمام الذكر أن يؤدي العمل بأمانة وألا يتخذ النافلة ذريعة لإضاعة الواجب.

صلة الخشوع: الذكر الخاشع لا يعني دوام انفعال قوي. يعني أن يعرف الذاكر من يذكر، وأن يستحضر قدراً من المعنى، وأن يرد نفسه إذا غفلت. وقد تكون ثمرة الذكر سكوناً، وقد تكون توبة أو

شكراً أو كف أذى. لا يجبس الذكر في الشعور، ولا يحول الشعور إلى ضمان للقبول.

تطبيق: يختار العبد ذكراً ثابتاً يعرف معناه، ويصلح موطناً واحداً يقوله فيه من غير إهمال لحق. فإن قال «الحمد لله» سمي نعمة وأدى بعض شكرها، وإن استغفر راجع ذنباً معلوماً، وإن هلك جدد رفضه لتعلق القلب بغير الله. الربط بالمعنى ليس شرط صحة لكل لفظ، لكنه باب تربية يمنع الآلية.

قال الله: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: 14]، وقال بعد الصلاة في حال الخوف: {فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ} [النساء: 103]. الصلاة ذروة منظمة للذكر، ثم يمتد الذكر إلى أحوال الحياة. لا تناقض بين تخصيص العبادة بهيئتها وبين دوام الصلة خارجها.

من الخطأ أن يطلب الإنسان من كل ذكر خارج الصلاة الإحساس نفسه، أو أن يحتقر الذكر اللساني عند ضعف الحضور. يستمر ويجاهد المعنى، لكن لا يجعل العدد ساتراً عن واجب ولا يبتدع قدراً يظنه لازماً. الثابت يتبع، والمطلق يبقى في سعته.

الذكر الذي يثر خشوعاً يرد الإنسان إلى العبودية عند النعمة والغضب والخوف. يقول الحمد لله ثم يؤدي شكر النعمة، ويستغفر ثم يترك الذنب، ويكبر ثم لا يعظم ضغط الناس فوق أمر الله. بهذا تتصل الكلمة بالقرار.

التطبيق اختيار موطن انتقالي: ركوب، انتظار، أو انتهاء عمل، يذكر فيه الله بذكر ثابت من غير تعطيل لحق. وإذا كان في حوار يحتاج إنصاتاً أنصت؛ أداء الحق ذكر بمعناه العام ولا تراحه نافلة لسانية. الخشوع يضع كل عبادة في موضعها.

في البيت تسقط كثير من الزينة الاجتماعية، ولذلك يكون ميداناً صادقاً للأثر. من طال سكونه في المسجد ثم قسا لسانه على أهله لا يئأس، لكنه لا يجوز أن يزين الفجوة. يبدأ باعتذار وقاعدة عملية.

الخشوع لا يجعل الوالد متردداً في التربية. يضع حدوداً مفهومة وعواقب متناسبة، ويتبعد عن الإهانة. الفرق أن المقصود إصلاح السلوك لا تفريغ الغضب.

والزوج أو الزوجة لا يستعمل العبادة لإغلاق الحوار: لا يقول أنا متعب فلا تناقشني، ولا يجعل درساً دينياً بديلاً عن الإنصات. الحق الخاص يحتاج وقتاً وكلاماً واضحاً.

تطبيق بسيط أن يختار أهل البيت كلمة يتوقفون عندها إذا ارتفع الحوار، ثم يعودون بعد هدوء. الوسيلة تنظيمية لا عبادة مخصوصة، لكنها تحمي أثر الصلاة.

52 | خشوع عند الموت

ذكر الموت يكشف زيف التأجيل، لكنه في الإسلام يقترن بالعمل والرجاء. ليس المقصود تخيل تفاصيل لا نعلمها. وموضع الاستدلال هنا [ق: 19].

خطوة قريبة: رد الحقوق وكتابة الوصية الواجبة وتجديد التوبة. الموت حقيقة لا تحتاج إلى زخرفة، قال تعالى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} [ق: 19]. والخشوع أمامها لا يعني استحضار تفاصيل غيبية لم تثبت، ولا إغراق النفس في صور مرعبة. غايته أن يسقط وهم الخلود، وأن يعاد ترتيب ما يستحق المبادرة. يترجم هذا الخشوع إلى توبة ورد حق ووصية واجبة وصلة رحم. ومن حضر جنازة حفظ حرمة أهلها، ولم يحول مصابهم إلى مادة وعظية قاسية. ويظل الرجاء قائماً؛ لأن المؤمن يعمل بين خوف ورجاء. فذكر الموت الذي يقود إلى القنوط مختل، وذكره الذي لا يغير قراراً ولا حقاً مجرد خاطر عابر.

الموت يختصر قائمة التأجيل

من السنة: يروي الترمذي 2308 خبر عثمان عند القبر والحديث في أول منازل الآخرة، مع وصف الترمذي له بالحسن

الغريب. يذكر النص بجدية الانتقال، ولا يبيح اختراع مشاهد البرزخ.

تطبيق: يسأل الإنسان: ما الحق الذي لا أريد أن ألقى الله وهو في ذمتي؟ ثم يبدأ برده. يكتب الوصية الواجبة، ويتوب، ويصل ما قطع. هذه الأعمال أصدق من تكرار صورة الموت بلا تغيير. ولا يحول ذكر الموت إلى قنوط أو إساءة لأهل المصاب. يجمع خوف الحساب برضاء الله، ويحفظ حرمة الجنازة. المقصود قصر أمد التسويف، لا إطفاء الحياة التي أمر بإعمارها.

ثبت في خبر عثمان السابق معنى القبر أول منازل الآخرة، وقرر القرآن مجيء سكرة الموت بالحق [ق: 19]. هذان الأصلان يكفیان لتصحيح التأجيل من غير رسم مشاهد غيبية لم ترد. ليس المطلوب أن يعيش المؤمن مشلولاً بالخوف، بل أن يعرف أن الوقت رأس مال ينقص وأن حقوقاً لا يصح حملها إلى الرحيل.

يظهر خشوع الموت في قرارات هادئة: توبة لا تؤجل، دين يوثق، وصية واجبة تكتب، رحم تصل، ومخاصمة يطلب إصلاحها. ويظهر كذلك في الرحمة بأهل المصاب؛ فلا يجعل جنازتهم منصة لتقريعهم أو رواية تفاصيل عن مיתهم. الخوف الذي يثمر عملاً صالحاً متوازن، والرجاء الذي يدفع إلى باب الله حق. أما القنوط وتعطيل الدنيا المأمور بعمارته فليساً من ثمرة الذكر الصحيح.

ذكر القبر في خبر عثمان رضي الله عنه يوقظ الخوف، لكن الخوف الشرعي لا يحتقر الدنيا من حيث هي مزرعة العمل. من أيقن بالموت يحفظ ساعته، ويتقن واجبه، ويخفف مظالمه؛ لا ينسحب من عمارة ما كلفه الله به. ولذلك لا يُقاس صدق التذكر بطول الحزن وحده، بل بقدر ما أعاد ترتيب الأولويات.

يسأل المرء: لو ضاق الأجل، ما الحق الذي يؤلني بقاؤه؟ يبدأ به. قد يكون صلاة يؤخرها، أو مالاً في ذمته، أو قطعة يستطيع وصلها، أو علماً كتم نفعه. ولا يضع قائمة مستحيلة تزيده عجزاً؛ يختار واجباً واضحاً ويستعين بالله. وإذا نزل به حزن ثقيل طلب الصحبة والعلاج، فلا يترك وحده باسم الموعظة.

الرجاء يرافق هذا كله. القرآن الذي يذكر الموت يفتح باب المغفرة، والنبي ﷺ استعاذ من قلب لا يخشع وعلم أمته الدعاء والعمل. فالموت لا يقول للعبد إن الفرصة انتهت ما دام حياً؛ يقول إن الفرصة محدودة، وإن الرجوع اليوم أصدق من وعد مؤجل.

ذكر الموت يعيد ترتيب الحاضر

أصل محكم: قال تعالى: «وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد» [ق: 19]، وقال إن كل نفس ذائقة الموت [آل

عمران: 185]. يواجه النص حقيقة لا يملك الإنسان دفعها، لكنه لا يدعوه إلى ترك الحياة؛ بل إلى استعمالها قبل انقضائها. الخشوع عند الموت ليس حباً للفناء ولا ازدراءً للعافية. هو سقوط وهم الدوام، وانكشاف أن القضايا المؤجلة لها نهاية زمنية. لذلك ينبغي أن يزيد ذكر الموت الوفاء بالحقوق، والرفق بالأحياء، والاستعداد بالعمل، لا أن يصنع عجزاً أو انسحاباً مرضياً. ومن كان في حزن شديد يحتاج إلى خطاب يجمع الحقيقة بالرحمة، ولا يستعمل الموت لتغليظ ألم لا يحتمله.

باب الموت سريع التأثير، ولذلك تكثر فيه حكايات وعبارات لا تضيف إلى المحكم شيئاً. يكفي النص الثابت، ولا يحتاج الناقل إلى اختلاق لحظة احتضار أو حوار أو شعور باطني. وإذا نقل خبراً عن السلف عين مصدره وحدوده؛ وإلا بقي العبرة القرآنية أصدق وأغنى.

تطبيق: يراجع الإنسان أمام حقيقة الموت قائمة واحدة: حق لله، وحق لعبد، وأمانة، ووصية مشروعة، وعلاقة تحتاج إصلاحاً. يختار ما يجب تقديمه ولا يغرق في قائمة تخيفه ثم تشله. ذكر الموت النافع يقلل التأجيل، ولا يلغي التخطيط للغد؛ فالتخطيط نفسه قد يكون أمانة ما دام القلب يعلم أن الأجل لله.

يروى هاني مولى عثمان في جامع الترمذي 2308 وقوف عثمان رضي الله عنه على القبر وبكاءه، ثم يورد الخبر قولاً مرفوعاً

في منزلة القبر الأولى؛ وقد وصف الترمذي الرواية بالحسن الغريب. وظيفه هذا الموضع ليست إعادة رسم المشهد، بل بيان أن التقرير الصحابي والقول المرفوع طبقتان تحفظان كما وردتا، وأن قوله تعالى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} [ق: 19] أصل قرآني مستقل في استيقاظ القلب للنهاية.

ذكر الموت لا يساوي ترك التخطيط أو كراهية النعمة. من علم قصر الطريق أتقن الأمانة وأصلح الوصية ورد الحقوق وعمر ما كلف به. قد ينسحب إنسان من واجبه باسم الزهد، وهذا ليس من ثمرة الخشوع. الموت يخلع وهم الدوام، لا مسؤولية اليوم. كما لا يستعمل الباب لإثارة المصاب أو المريض بلا رفق. الحقيقة الشرعية تقال بحكمة، والناس تختلف قدرتهم وأحوالهم. من غلبه حزن مرضي لا يلام بعبارات قاسية، ويجوز أن يطلب علاجاً ومساندة. الخشوع أمام النهاية يورث رحمة بالأحياء. التطبيق مراجعة أمر مؤجل واحد له حق: دين، وصية، اعتذار، أو علم ينفع. يبدأ به ولا يفتح قائمة ترعبه. وإذا لم يملك تمامه وضع خطة وطلب عوناً. الاستعداد عمل متدرج تحت يقين الأجل.

قد يحسن التاجر عبارته الدينية ويكثر من القسم، بينما يخفي عيباً. الخشوع يرده إلى البيان والصدق؛ فالله الذي يقف بين يديه هو الذي حرم أكل المال بالباطل. لا تنفصل المعاملة عن المحراب.

والصدق لا يعني كشف أسرار العمل أو ترك حق التفاوض. يبين ما يجب بيانه، ولا يكذب، ولا يستغل جهل الطرف الآخر فيما يحرم. وإذا اشتبه عليه عقد سأل قبل أن يبيني أرباحاً يصعب ردها.

عند الخسارة تظهر العبودية في ضبط اللسان وأداء الحقوق، لا في إنكار الحزن. يجوز أن يحزن ويعيد الخطئة، لكن لا يحمل العامل أو المشتري ما ليس عليه.

ومن تمام التوبة التجارية تصحيح النظام الذي أنتج الخطأ، لا رد واقعة واحدة فقط. يضيف فحصاً، أو يوضح سياسة، أو يفصل صلاحيات. الخشوع يبيني إجراءً يحفظ الناس.

53 | خشوع أمام النعمة

كل نعمة من الله؛ ومعرفتها تخفض عجب النفس وتورث شكراً. الخشوع للنعم لا يعني ازدراء النعمة بل حسن استعمالها. وموضع الاستدلال هنا [النحل: 53].

خطوة قريبة: تسمية نعمة واحدة، وشكرها بقلب ولسان وعمل. قال الله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَنِ اللَّهُ} [النحل: 53]. نسبة النعمة إلى واهبها تكسر العجب، لكنها لا تطلب إنكار السبب أو جحد جهد البشر. يشكر العبد ربه أولاً، ثم يشكر من أجرى الخير على يده، ويستعمل العطية في الطاعة.

وقد يكون الخشوع هنا هادئاً: صحة تُصان، ومال يؤدي حقه، وعلم ينفع به، ووقت لا يبدد. ليست النعمة دليل رضا مطلق، كما أن نقصها ليس دليل سخط مطلق. هي امتحان يحتاج إلى شكر. ومن التطبيق أن يسمي العبد نعمة بعينها، ثم يحدد لها عمل شكر واحداً. بهذا ينتقل الحمد من عبارة صحيحة إلى عبودية ظاهرة.

النعمة باب تواضع وعمل

دليل الباب: يقرر القرآن أن ما بالإنسان من نعمة فمن الله [النحل: 53]. نسبة النعمة إلى واهبها لا تلغي الأسباب ولا شكر الناس، لكنها تمنع العجب والاستقلال.

الخشوع أمام النعمة أن يستعملها في طاعة ويحفظ حقها. شكر المال أداء وبذل، وشكر العلم تعليم وأمانة، وشكر الصحة صيانة وعمل. لا يحتقر العبد عطية الله باسم الزهد، ولا يجعلها برهان رضا مطلق.

ويمكن أن يراجع كل أسبوع نعمة واحدة وعمل شكر واحدًا، من غير اعتقاد خصوصية للعدد. المراجعة وسيلة تنظيم، والعبادة في الحمد والعمل. كلما رأى الفضل من الله خف طلبه لمدح الناس.

قال تعالى: {وَمَا يَكْمُرُ مِنْ نِعْمَةٍ فَنَسِيَ اللَّهُ} [النحل: 53]. نسبة النعمة إلى الله لا تلغي الأسباب ولا تمنع شكر الناس، لكنها تمنع أن يعبد المرء كفاءته أو ينظر إلى المحروم باحتقار. كل قدرة ووقت وفرصة مادة امتحان؛ والاعتراف بالمنعم يحول الامتلاك إلى أمانة.

يتجاوز الشكر عبارة اللسان إلى استعمال العطية: شكر العلم نشره بأمانة، وشكر المال أداء حقه، وشكر الصحة حفظها وبذلها في طاعة، وشكر المنصب عدل ورحمة. ولا يستدل بكثرة النعمة على رضا مطلق؛ فقد تكون استدراجاً أو ابتلاء، كما أن ضيقها لا يدل وحده على سخط. الخشوع أمام النعمة أن يفرح بها من غير بطر، ويخاف تقصيره من غير جحود، ويسأل كيف يرد أثرها خيراً إلى الخلق.

النعمة تخفض العجب وترفع المسؤولية

أصل محكم: قرن الله الذكر بالشكر [البقرة: 152]، ووعد بالزيادة على الشكر [إبراهيم: 7]. وليس الشكر كلمة امتنان وحدها؛ إنه معرفة المنعم، وإقرار القلب، وثناء اللسان، واستعمال النعمة في مرضاته بحسب نوعها.

الخشوع أمام النعمة يمنع طرفين: أن ينسبها الإنسان إلى استحقاقه المحض، وأن يحتقرها باسم الزهد. المال والصحة والعلم والوقت أبواب تكليف كما هي أبواب فضل. من خشع للمنع فرح بنعمته من غير بطر، واستعملها من غير عبودية لها، وخاف سؤاها من غير أن يحرم نفسه ما أحل الله.

حد الوعد: لا يجوز تحويل قوله «لأزيدنكم» إلى معادلة تجارية يحدد العبد بها صورة الزيادة ووقتها. الآية وعد حق، والزيادة يقدرها الله بحكمته. قد تظهر في عين النعمة أو بركتها أو هداية صاحبها إلى حسن استعمالها، ولا نجزم بتعيين لم يعينه النص. الشكر عبادة لأنه حق الله، لا صفقة تضمن رغبة عاجلة.

تطبيق: أمام نعمة محددة يسأل العبد: ممن وصلت؟ ما الحق المتعلق بها؟ وما باب الكفران الذي يهددها؟ علمه يدعوه إلى التواضع والتعليم الأمين، وماله إلى النفقة والبعد عن الأذى، وصحته إلى الطاعة وحفظ البدن. بذلك يصير خشوع النعمة حركة شكر، لا شعوراً عابراً بالامتنان.

قد يظهر الخشوع عند البلاء لأن الافتقار واضح، ويخف عند السعة لأن النفس ترى الأسباب ملكاً لها. الشكر يعيد النعمة إلى المنعم من غير أن ينكر جهد العبد. يقول: هذا فضل الله، وقد أمرني بالسعي، فثبت السببين في مرتبتهما.

المال والعلم والصحة والوقت ليست زخارف حول العبادة؛ هي ميادينها. خشوع الغني في أمانة ماله، وخشوع العالم في صدق نسبته، وخشوع القوي في نصرة لا بطش فيها. لا يكفي شعور الامتنان إذا بقيت النعمة تخدم الكبر أو الأذى.

ولا يحول وعد الزيادة على الشكر [إبراهيم: 7] إلى معادلة يحدد بها العبد صورة المكافأة. يشكر لأن الله يستحق ولأن النعمة حق، ويرجو زيادة يقدرها الحكيم. قد تكون الزيادة حفظاً أو بركة أو هداية في الاستعمال، ولا يجزم بصورة لم يعينها النص.

التطبيق أن يختار نعمة ويكتب حقها لا عددها: علم يحتاج تعليمًا أمينًا، ومال يحتاج زكاة أو نفقة، ووقت يحتاج حفظًا، وصحة تحتاج طاعة. حين يؤدي الحق يخرج الشكر من الثناء إلى الخشوع العملي.

قد يقول أحدهم لخصمه: لو كان في قلبك خشوع لوافقتني. هذه دعوى على الباطن، وتخلط الحق بمقام القائل. المسألة تحسم بدليلها، ولا يثبت الرأي بتوزيع درجات القلوب.

الأدب أن يصف الفعل لا السريرة: هذه العبارة جارحة، هذا العقد خالف الشرط، هذا النقل غير ثابت. التحديد يفتح باب الإصلاح، أما اتهام القلب فيدفع إلى دفاع لا نهاية له. وإذا كان الخصم ظالماً لم يمنع الخشوع تسميته ظلماً وفق البيئة. الرحمة لا تلغي الوصف الشرعي، لكنها تمنع الزيادة والتشفي. لا يُنسب إليه ما لم يفعل، ولا تنشر خصوصيته خارج حاجة الإنصاف.

بعد انتهاء النزاع يوقف الإنسان إعادة المشهد إن أخذ حقه. بقاء الغضب مفهوم، لكنه لا يغذيه بمحتوى جديد. قد يحتاج وقتاً أو علاجاً، ويستعين من غير أن يجعل الكراهية هوية.

54 | خشوع في العلم

جعل القرآن الخشعية ثمرة علم بالله وآياته؛ فالعلم الذي يزيد الجدل ولا يزيد العبودية يحتاج مراجعة المقصد وطريقة التلقي. وموضع الاستدلال هنا [فاطر: 28].

خطوة قريبة: أن يخرج طالب العلم من كل مجلس بعمل أو أدب، لا بمعلومة للغلبة.

قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: 28]. جاءت الآية في سياق النظر في ألوان الخلق واختلافها، فالعلم بالآيات يقود إلى معرفة القدرة والحكمة، ثم إلى الخشعية. أما المعلومة التي تزيد صاحبها جدلاً وازدراءً للناس ولا تزيده عبودية فتحتاج إلى مراجعة القصد والطريق.

خشوع طالب العلم يظهر في نسب القول إلى قائله، وفي قوله «لا أدري»، وفي ترك الخبر حتى يثبت، وفي قبول التصحيح. ومن تمام الأمانة أن يميز القرآن من الحديث، والحديث من الأثر، والنص المنقول من فهم الشارح أو استنباطه. ليست الأمانة ملحقاً فنياً؛ إنها ثمرة من ثمرات الخشعية.

الخشية ثمرة معرفة أمينة

والدليل: جاءت [فاطر: 27-28] بعد عرض تنوع الخلق، ثم قررت أن العلماء يخشون الله. السياق يربط النظر في الآيات بمعرفة القدرة والحكمة والخشية.

من ثمار العلم أن يقول صاحبه «لا أدري»، وينسب القول، ويقبل التصحيح، ويترك الخبر حتى يثبت. كثرة المعلومات مع الجرأة على النسبة تناقض الأمانة التي يفترض أن يبنها العلم. ويظهر الخشوع في طلب العلم بترك ما لم يثبت من قصص السلف، وبفصل الحديث عن الأثر، والنص عن الفهم المستنبط. وقد يحرم الصدق المرء من حكاية مؤثرة، لكنه يمنحه ما هو أثقل: الثقة.

خشوع العالم والمتعلم يظهر في نسبة القول، وتصحيح الخطأ، والتفريق بين النص والتلخيص والاستنباط، وقبول أن تبقى مسألة مفتوحة. ويظهر في العمل: المعلومة عن الصلاة ينبغي أن تحسن الصلاة، والمعلومة عن حقوق الناس ينبغي أن تزيد العدل. وإذا كثر المحفوظ وقل الأثر راجع المرء قصده وطريقة تلقيه، لا أصل العلم. العلم نور حين يدل على الله ويضبط اللسان، ووجه حين يتحول إلى زينة لا تغير صاحبها.

العلم الذي يزيد الخشية ويعرف حدوده

أصل محكم: قال تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» [فاطر: 28]، وجاء قبلها ذكر تنوع المخلوقات وألوانها، وبعدها تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة والإنفاق [فاطر: 27-30]. السياق يربط العلم بالنظر في الآيات، والخشية، ثم العبادة والبذل. فالعلم الذي لا يغير موقف صاحبه من الله ناقص الأثر، وإن صحت معلوماته. خشوع العالم لا يعني ترك البرهان أو قبول كل قول، بل أن يمنعه علمه من الكبر والقول على الله بغير علم. ومن الخشوع العلمي كلمة «لا أدري»، ورد المسألة إلى أهلها، وتصحيح الخطأ إذا ظهر. أما تواضع اللفظ مع الجرأة في النسبة فصورة بلا حقيقة. تمييز الطبقات: النص القرآني يقرر اقتران العلم والخشية. أما القول بأن مقداراً معيناً من المعلومات سيولد شعوراً محدداً فهو استنباط لا ضمان. قد يعلم الإنسان ويعوقه هوى أو رياء، ولذلك يحتاج العلم إلى توبة ومجاهدة. كما لا يجوز الحكم على عالم بعينه بخلو قلبه من الخشية لمجرد خلاف أو جفاف أسلوب.

تطبيق: قبل نشر فائدة يسأل الناقل أو المتعلم: هل عرفت المصدر والموضع؟ هل ميزت النص من تلخيصي؟ هل أظهرت الخلاف المؤثر؟ وهل سيقود هذا العلم إلى حق أم إلى عرض الذات؟ هذه أسئلة تحقيق وأخلاق معاً. والخشوع هنا لا يطلب إخفاء العلم، بل إخراجه أميناً نافعاً لا يتجاوز ما ثبت.

وقد يظن الناقل أن القارئ يريد اليقين في كل مسألة، فيخفي الخلاف أو الاحتمال. لكن الأمانة تمنح القارئ نوع المعرفة: هذا نص، وهذا تلخيص، وهذا وجه دلالة، وهذا مقترح تطبيقي. لا تعني هذه العلامات برودة الأسلوب؛ يمكن للغة أن تكون دافئة وصادقة معاً.

الخاشع ليس حجراً يبكي ويحزن ويطلب العون، ولا يناقض ذلك صبره ما دام لا يقول محرماً ولا يترك واجباً بلا عذر. مطالبة المصاب بوجه هادئ دائم قد تزيد ألمه وتدفعه إلى التمثيل. الصبر فعل متجدد: حبس عن محرم، وأخذ بسبب، واستعانة بالله. قد يضعف يوماً ثم يعود. لا يحاكم نفسه بكل موجة شعور؛ يحاكم ما يختاره بقدر استطاعته.

ومن خدمة المصاب ألا نغرقه بالمواعظ في أول لحظة. قد يحتاج ماءً أو نوماً أو إنجاز معاملة. الكلمة الشرعية توضع في وقتها وبقدرها. الخشوع في المواساة أن يرى حاجة الآخر لا فرصة المتكلم.

وإذا طال الحزن وأعاق الحياة طلب مساعدة متخصصة، ولا يعد ذلك نقص توكل. النفس والجسد لهما أسباب، والله هو الشافي.

العلم الذي يغير موضع صاحبه

النص الشرعي: قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: 28]. وفي مشهد آخر وصف أهل العلم حين يتلى عليهم القرآن بأنهم يخرجون للأذقان سجداً، ويقولون: {سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كَانُوا وَعَدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا}، ثم ذكر بكاءهم وزيادة خشوعهم [الإسراء: 107-109]. العلم في هذه المواضع لا يزيد المعلومات فقط؛ يغير موقع صاحبه أمام الحق.

ثمرة العلم أن يرى الإنسان عظمة ما يعلم وحدود ما يعلم معاً. يعرف من آيات الله ما يورثه خشية، ويعرف أن جهله أوسع من دعواه. لذلك يقل تسرعه في الفتوى والحكم على الأشخاص، ويزيد توقيه في النقل. ليس التردد الدائم علماً، لكن الجزم في غير موضعه ليس قوة.

وقد يعتاد طالب العلم النص حتى يفقد دهشته الأولى. العلاج ليس طلب غرابة جديدة كل يوم، بل إعادة وصل المعلومة بالتكليف. إذا درس حكم الأمانة سأل عن أمانته، وإذا قرأ في الإخلاص راجع موضع طلب الثناء، وإذا عرف سعة الرحمة فتح باب الرجاء للتائب بدل أن يجعل العلم أداة تعيير.

سجود أهل العلم عند التلاوة يبين أن الفهم الصحيح لا يقف خارج النص مراقباً له من علي. الباحث يسأل عن اللغة والسياق والدلالة، ثم يبقى عبداً للمخاطب سبحانه. التحقيق العلمي يحرس

الخشوع من الخرافة، والخشوع يحرس التحقيق من الكبر. لا تعارض بين الدقة والرقّة إذا عرف كل منهما وظيفته. ومن علامات خلل العلم أن يزداد صاحبه احتقاراً للناس أو شهوة للغلبة. قد يحسن الاستدلال ويخطئ المقصد والطريقة. هنا لا يبطل العلم، لكنه يحتاج توبة من استعماله. كما أن رقة القلب لا تعفي من مراجعة النقل؛ الدمع لا يصحح نسبة، وحسن المقصد لا يحول الضعيف صحيحاً.

تطبيق: بعد كل درس يكتب المتعلم سطرين منفصلين: «ما ثبت من المصدر»، و«ما يلزمني به». الأول يمنع التوسع في الدعوى، والثاني يمنع العلم من أن يصير مقتنى ذهنيًا. وإذا لم يظهر تطبيق مباشر حفظ النص كما هو ولم يخترع له أثرًا. الخشوع للعلم يبدأ بأمانة الحد.

55 | خشوع لا يذل لغير الله

من خضع لله تحرر من عبودية الخلق؛ فلا يناقض الخشوع عزة المؤمن، بل يضع الذل التعبدى في موضعه. وموضع الاستدلال هنا [آل عمران: 175].

خطوة قريبة: قول الحق بأدب، وترك طلب الرضا بمعصية الله. قال الله تعالى: {فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 175]. الخشوع لله لا يصنع شخصية مستباحة؛ بل يرد الخوف التعبدى إلى موضعه، ويمنع أن يصبح رضا الناس إلهًا خفيًا يحكم القرار. ومع ذلك لا يبرر الغلظة ولا إسقاط حقوق الوالدين وأهل الفضل والسلطة المشروعة.

الفرق بين التواضع والذل أن الأول خلق اختياري يضع النفس عند الحق، والثاني قد يكون تنازلاً عن واجب أو قبولاً بباطل. والموازنة أن يقول المؤمن الحق بأدب، ويرفض المعصية بلا كبر، ويحسن إلى الناس من غير أن يعبد نظرهم. حينها يصبح الخشوع مصدر عزة هادئة، لا انكماشاً ولا استعلاءً.

الخضوع لله يحرر من ضغط الناس

دليل الباب: نهى القرآن عن خوف أولياء الشيطان وأمر بخوف الله [آل عمران: 175]. الخوف التعبدى إذا استقام لم

يجعل صاحبه مستباحاً، بل حرره من تقديم رضا الخلق على أمر الله.

العزة لا تعني الغلظة، والتواضع لا يعني قبول الظلم. يقول المؤمن الحق بأدب، ويؤدي حقوق الوالدين وأهل الفضل والسلطة المشروعة، ويرفض المعصية من غير كبر. هذه موازنة تحتاج علماً وحكمة.

ويختبرها في قرار صغير: هل يغير الحق لأن جماعته لا تحبه؟ إذا ثبت مع حسن خلق، كان خشوعه مصدر شجاعة هادئة. وإذا استعلى على الناس باسم الثبات، فقد نقل النفس من ذل مذموم إلى كبر مذموم.

قال الله تعالى: {فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 175]. الخوف التعبدى لله يحرر القلب من أن يجعل قبول الناس مرجعه الأعلى. لكن التحرر لا يساوي فظاظة؛ يبقى بر الوالدين، وإكرام الكبير، وطاعة ولي الأمر في المعروف، وأداء حقوق الخلق. العزة الإيمانية تحفظ الأدب ولا تبيع الحق.

يختبر المرء هذا المعنى عندما يتعارض الصواب مع صورته: هل يعتذر إذا أخطأ؟ هل يترك معصية تجلب له قبول المجموعة؟ هل يقول كلمة الحق بلطف من غير طلب بطولة؟ من خضع لله استطاع أن يتواضع للحق ولا يذل للباطل، وأن يخدم الناس من

غير أن يعبد رضاهم. الخشوع بهذا المعنى قوة اتجاه، لا انكماش شخصية ولا ارتفاعاً على الخلق.

الذل لله يصنع عزة منضبطة

أصل محكم: قرر القرآن أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين [المنافقون: 8]، ونهى المؤمنين عن الوهن والحزن المفضي إلى الاستسلام وهم الأعلون بالإيمان [آل عمران: 139]. لا تناقض بين خشوع القلب لله وعزته عن الحرام؛ بل الأولى أصل الثانية. التحرر من ضغط الناس لا يعني احتقارهم أو رفض المشورة. المؤمن يسمع النصيح، ويقبل الحق ممن جاء به، ويعتذر إذا أخطأ؛ لكنه لا يبيع دينه لطلب القبول. كما لا يجعل «العزة» اسماً للفظاظة أو قطيعة الرحم أو ترك الحقوق. العزة المنضبطة تحفظ الكرامة وتبقي الرحمة.

موطن الامتحان: يظهر هذا الخشوع حين يتعارض رضا الله مع تصفيق الجمهور، وحين يستطيع المرء أن يرد الإساءة بظلم فيتركه، وحين يعترف بخطئه مع أن الاعتراف يجرح صورته. في كل ذلك يخفّض لله لا للهوى. وربما كان أصعب الخضوع أن يتراجع الإنسان عن عبارة قالها أمام الناس بعد أن بان له الحق. تطبيق: يحدد القارئ موقفاً يضغط فيه رأي الناس على قراره، ثم يفرق بين ثلاثة أمور: حق يجب قبوله، ونصيحة يستفيد منها،

ومجرد رغبة في الإعجاب. لا يرفض الكل باسم الاستقلال، ولا يقبل الكل باسم التواضع. يصلي ويستشير ويزن الدليل، ثم يختار ما يراه حقاً ويتحمل كلفته بأدب. هذه عزة عبد يعرف أن قلبه لا يصلحه ثناء الخلق ولا يملكون له القبول عند الله.

من ذل لله تحرر من عبودية التصفيق، لكنه لم يتحرر من حقوق الناس. قد يقول الحق بأدب، ويرفض الحرام، ثم يقبل نصيحة طفل أو خصم إذا بان صدقها. العزة ليست تصلباً، والخشوع ليس خنوعاً، كلاهما يلتقيان في إخراج الهوى من مقام الحكم.

يمتحن القلب حين يخسر صورة بناها أمام الناس. التراجع عن خطأ قد يكون أصدق سجدة خارج الصلاة؛ ليس سجدة اصطلاحية، بل خضوعاً للحق ظهر في قرار. أما الإصرار لحفظ الهيبة فيكشف أن الجمهور صار أكبر في القلب من الدليل.

وفي مواقع العمل والأسرة قد يخلط القوي بين الطاعة المشروعة والاستغلال. لا يطلب من أحد قبول الظلم باسم الخشوع، ولا يبرر المظلوم ظلماً مضاداً باسم العزة. يسلك طريق الحق والقضاء والنصيحة بحسب الحال، ويحفظ لسانه من البغي.

التطبيق أن يختار موقفاً يخاف فيه كلام الناس، ويكتب: ما الدليل؟ ما الحق؟ ما المصلحة؟ ثم يستشير ويصلي ويقرر. إذا تكلم لم يذك نفسه، وإذا سكت لم يسم خوفه حكمة. معرفة الدافع جزء من مجاهدة القلب.

كما يختبر القلب بالمصيبة يختبر بالفتح. الفرح مباح، وإظهاره قد يكون شكراً، لكن الخشوع يذكر المنعم ويحفظ حقوق من لم ينل مثل نعمته. لا يحول النجاح إلى منصة لإذلال المتعثر. الشكر ليس كلمة فقط؛ يستعمل النعمة في طاعة، ويؤدي حقها، وينسب الفضل لله مع ذكر أسباب البشر بالعدل. إن ساعده فريق لم يمح أسماءهم باسم التواضع لله. وقد يخاف بعض الناس من الفرح حتى يفسد نعمته توقعاً للزوال. الخوف المشروع لا يمنع السرور، بل يمنع البطر. يتمتع بالحلال، ويستعد للتغير من غير وسواس. التطبيق عند كل نجاح أن يؤدي حقاً واضحاً: صدقة، شكر لمن أعان، تحسين خدمة، أو تواضع في الخطاب. بهذه الحركة يصير الفرح طريق عبودية.

عزة لا تحتاج إلى كبر

النص الشرعي: قال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 139] في سياق ألم أحد، وقال: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: 8]. العزة هنا مستمدة من الإيمان بالله، لا من إنكار الجرح ولا من إذلال الآخرين. الخاشع يذل لربه، ولذلك لا يبيع الحق طلباً لرضا مخلوق. لكنه لا يحول هذه العزة إلى تعال؛ لأن الذي منحه الكرامة هو الذي

نناه عن الظلم والكبر. يجتمع في قلبه افتقار إلى الله وثبات أمام الضغط وتواضع للحق.

وقد يلتبس التواضع بالخوف الاجتماعي. يصمت الإنسان عن واجب، أو يقبل إهانة مستمرة، ثم يسمي ذلك خشوعاً. الميزان أن ينظر في الحكم والحق والاستطاعة. قد يكون العفو فضلاً، وقد يكون رفع الظلم واجباً أو مصلحة، وليس لأحد أن يفرض على المظلوم اختياراً واحداً باسم تزكية القلب.

عزة المؤمن لا تلغي الحزن. آية آل عمران تنهى عن الوهن في سياق جراح واقعة، فلا تطلب تمثيل القوة ولا إنكار الفقد. يمكن للإنسان أن يحزن ويطلب الدعم، ومع ذلك لا يسلم قياده لليأس. الفرق بين الحزن والوهن يظهر في القدرة على العودة إلى الحق بما يستطيع.

وفي العمل الدعوي أو العلمي، تظهر العزة في الاستقلال عن التصفيق. يقول ما ثبت ولو لم يلمع، ويتراجع إذا بان خطؤه ولو نقصت صورته. الاعتراف بالخطأ ليس ذلة للناس؛ هو خضوع للحق. والإصرار عليه خشية كلام الجمهور ليس عزة، بل أسر من نوع آخر.

تطبيق: يختار المرء موقفاً يكثر فيه طلب القبول، ويسأل: ما الحق الذي أخشى قوله؟ وما الطريقة العادلة لقوله؟ يستشير، ثم

يتكلم بلا تشف ولا مبالغة. وإذا كان الصمت أصلح صمت
اختياراً لا عجزاً. هكذا تتحول العزة من شعار إلى عبودية منضبطة.

56 | سكون القلب في الزحام

الطمأنينة بالذكر لا تشترط فراغ المكان. قد يسكن القلب وسط الأعمال إذا عرف وجهته وحفظ الفرائض والحقوق. وموضع الاستدلال هنا [الرعد: 28].

خطوة قريبة: وقفة ذكر قصيرة بين مهمتين، لا تعطل الواجب ولا تتحول إلى انعزال.

قال تعالى: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28]. لا تعني الطمأنينة غياب الحركة أو انتهاء المسؤوليات؛ فقد يكون المؤمن في سوق أو مستشفى أو بيت مزدحم، ويحفظ قلبه بذكر الله وأداء واجبه. الخشوع ليس امتياز الفراغ، ولا حجة لترك الناس.

وتنفع محطات قصيرة بين الأعمال: استغفار عند خطأ، وتسمية قبل بدء، وحمد بعد تمام، وأذكار ثابتة في أوقاتها. لا تحول اليوم إلى برنامج مرهق، بل تمنع التشتت من امتلاك القلب كله. وإذا احتاج الإنسان إلى راحة أخذها، وإذا احتاج أهل بيته إلى حضوره لم ينسحب باسم العبادة. سكون القلب يختبر في حسن القيام بالحق وسط الزحام.

الطمأنينة وسط الواجب

دليل الباب: يقرر القرآن أن القلوب تطمئن بذكر الله [الرعد: 28]. لا تشترط الآية فراغ المكان أو انقطاع المسؤولية؛ الذكر يصحب الإنسان في حياته مع حفظ أحكامه وأوقاته.

قد يكون الخشوع في السوق والمستشفى والبيت المزدحم أن يؤدي المرء واجبه وهو ذاكر لربه، فيحسن ويصبر ولا يظلم. الانسحاب ليس فضيلة إذا ضيع من يعول، والضجيج ليس عذرا لتترك الفرائض.

تنفع وقفات قصيرة بين المهمات: حمد بعد تمام، واستغفار من خطأ، وذكر ثابت في وقته. لا تحول اليوم إلى جدول يرهق أهله، بل تعيد الوجهة. سكون القلب ليس توقف الحركة؛ هو أن تتحرك الجوارح في الطريق الذي يرضي الله.

في [المعارج: 22-35] تبدأ الصفات بالمداومة على الصلاة، ثم تذكر حق المال، والتصديق بيوم الدين، والخوف، والعفة، والأمانات، والشهادة، ثم تعود إلى المحافظة على الصلاة. وفي [المؤمنون: 1-11] يبدأ السياق بخشوع الصلاة ويمتد إلى اللغو والزكاة والعفة والأمانة. هذا البناء القرآني يرد على فصل العبادة عن الزحام البشري: الصلاة في القلب، وحقوق الناس حولها وداخل ثمرتها.

لذلك لا يُقاس سكون القلب بقدرته على الانسحاب الدائم. قد يكون الطبيب في مناوبة، والأم بين أطفال، والعامل في سوق؛ وكل منهم يستطيع أن يحفظ الفرائض، ويذكر الله، ويؤدي الأمانة. يحتاج أحياناً إلى خلوة وراحة، لكنه يعود منها أقدر على الحق لا أضيق بالناس. حين يضيق اليوم، تكفي وقفة صادقة بين مهمتين: ذكر ثابت، ونية صحيحة، وأداء للعمل بإحسان. الخشوع الباقي لا يفر من العالم؛ يرد العالم إلى ميزان العبودية.

سكون القلب في الزحام لا انسحاب من الواجب

أصل محكم: مدح الله رجالاً لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكره وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة [النور: 37]. لم يخرجهم الذكر من السوق، بل ضبط السوق في قلوبهم وأعمالهم. السكون المقصود قدرة على رد القلب إلى ربه داخل الحركة المشروعة.

انخلط الشائع: قد يجعل المرء العزلة شرطاً لكل خشوع، فإذا عاد إلى الأسرة والعمل ظن أن العبادة انقطعت. وقد يجعل الانشغال عذراً دائماً لترك الذكر والصلاة. الآية تقدم تركيباً أصعب وأصدق: تجارة قائمة، وحقوق قائمة، وقلب لا تلهيه عن الله.

تطبيق: يبني الإنسان نقاط عودة داخل يومه: أذان يوقف العمل، وذكر ثابت لا يعطل حقاً، ونية تصحح قبل معاملة، واستغفار بعد زلل. هذه تنظيمات لا أورد مختصرة. وإذا احتاج

خلوة مشروعة أخذها، ثم عاد إلى واجبه. الخشوع الذي لا يعيش إلا بعيداً عن الناس لم يختبر بعد في ميدان الحقوق. تعرض [النور: 37] نموذجاً تمارس فيه التجارة ولا تستولي على ترتيب الولاء والواجب؛ فالذكر والصلاة والزكاة باقية في قلب اليوم لا على هامشه. المقصود ليس تجريد الضوضاء ولا ذم الخلوة، بل إثبات إمكان عبادة الله مع استمرار الكسب وأداء الحقوق، من غير أن تتحول المهنة إلى عذر دائم أو تتحول العبادة إلى انسحاب.

قد يحتاج الإنسان إلى خلوة مشروعة يتعلم فيها، لكن هدفها أن يعود أصلب في الأمانة لا أن يحتقر الحياة. من لا يخشع إلا إذا اختفى كل واجب لم يختبر قلبه في مساحة الحقوق. ومن يحتاج بالعمل لترك الصلاة والذكر جعل السوق سيده.

مهارة العودة تبدأ بإشارات مشروعة: الأذان، والوضوء، والذكر الثابت، وإنهاء المعاملة بصدق. لا يحتاج إلى صناعة رموز سرية أو أعداد. وقد يعينه تنظيم المكتب وإغلاق التنبيهات وتحديد وقت للرد. الوسائل تبقى وسائل.

التطبيق في يوم مزدحم ألا ينتظر صفاء كاملاً. حين يأتي وقت الصلاة يوقف ما يستطيع، ويثبت مكان الرجوع، ويصلي. بعد السلام يعود إلى مهمته بصدق. تكرر هذه الدورة يربي القلب على ألا يجعل الانشغال عذراً دائماً.

في الزحام العملي قد يحمل القلب عدة مسؤوليات صحيحة. المطلوب ليس محوها، بل ترتيبها. قبل الصلاة يدون ما يخشى نسيانه، ثم يدخل. وبعدها يعود إلى القائمة. بهذه الوسيلة لا يحتاج العقل إلى تكرار المهمة طوال الركعة خوفاً من ضياعها. إذا اقتحمت فكرة واجبة الصلاة، عرف أنها محفوظة خارجها ولم يناقشها. وإذا كانت طارئة حقيقية تمس سلامة أو ضرراً عاجلاً، تصرف بحسب الحكم والحاجة. الخشوع لا يلغي فقه الطوارئ.

وخارج الصلاة يكون سكون القلب قدرة على فعل الشيء الحاضر بدل العيش في عشرة أشياء. يجيب الشخص أمامه، ثم ينتقل. هذا التركيز أخلاق؛ لأنه يمنح الناس حضوراً ويحفظ جودة العمل.

لا يصل الإنسان إلى ذلك دفعة واحدة. يقلل التبديل، ويحدد وقتاً للرسائل، ويراعي طبيعة وظيفته. الوسائل تختلف، والمقصد أن يخضع الانتباه للأمانة بدل أن تجره كل إشارة.

الباب الثامن: الطريق إلى الخشوع

57 | معرفة من تقف بين يديه

تفتتح الفاتحة بالحمد لله رب العالمين، ثم تذكر رحمته وملكه ليوم الدين [الفاتحة: 2-4]. هذه المعاني تجمع للقلب المحبة والرجاء والهيبة؛ فهو يقف بين يدي رب رباه بنعمه، ورحمن يرجو رحمته، ومالك يعلم أنه راجع إليه. ليست الآيات وصفاً لحالة نفسية مخصوصة، لكنها أصل المعرفة التي يقوم عليها الأدب في الصلاة. وكلما اتسعت معرفة العبد بأسماء الله وصفاته الثابتة صح اتجاهه في العبادة. يتعلم الاسم من نصه وسياقه، ولا يضيف إلى الله وصفاً لم يثبت، ثم يرى أثر المعرفة في دعائه وخوفه ورجائه. فإذا حضر قلبه شكر، وإذا شرد لم يترك الصلاة بحثاً عن حال مثالي، بل عاد إلى ما يقرأه وإلى افتقاره.

لا يبدأ المصلي حديثه عن نفسه، بل يبدأ بالحمد لله رب العالمين. قبل أن يعدد حاجاته يعرف أن الذي بين يديه رب يربي الخلق بنعمه، رحمن رحيم، ومالك يوم الدين. تجتمع الهيبة والرجاء والمحبة، فلا ينقلب الخشوع خوفاً مجرداً ولا ألفة بلا تعظيم. وحديث الفاتحة في صحيح مسلم 395a يبين أن العبد حين يقرأها ليس يردد ألفاظاً في فراغ؛ يثني على ربه ويسأله الهداية. هذا المعنى ثابت في الحديث، أما أثر استحضاره في جمع القلب فهو تطبيق تربوي.

ومن معرفة الله أن يعرف العبد نفسه: مخلوقاً محتاجاً، لا يملك قلبه ولا ثباته إلا بمعونة ربه. لذلك لا يدخل الصلاة متكئاً على خبرة قديمة أو حال عابرة. يقف كل مرة فقيراً إلى الهداية التي يطلبها، ويوقن أن تمام الأدب ليس في هيئة الجسد وحدها، بل في صدق العبودية التي تقول: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5].

المعرفة التي تمنع الغفلة عن صاحب النعمة

معرفة من يقف العبد بين يديه لا تُختصر في معلومات يحفظها ثم يتركها خارج الصلاة. قد يعرف المرء أن الله رب العالمين، ثم يدخل في العبادة وقلبه معلق بالأسباب كأنها تستقل بالنفع والضرر. والمعرفة النافعة ترد الأسباب إلى موضعها: يؤخذ بها لأنها مأمور بها أو مباحة، لكن القلب لا يجعلها أرباباً صغيرة يوزع عليها خوفه ورجاءه. فإذا قال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: 2] تذكر أن النعمة منه، وأن التربية والتدبير له، وأن ما في يده عارية واختبار.

وهذا المعنى يصحح النظر إلى النجاح والفشل في طلب الخشوع. لا ينسب العبد حضور قلبه إلى حسن ترتيبه وحده، ولا يجعل شروده دليلاً على أن باب الله أغلق في وجهه. يأخذ بالأسباب، ثم يبقى مفتقراً إلى ربه. وقد يتهياً ولا يحضر قلبه كما أراد، فيتعلم

العبودية في الرجوع، وقد يدخل مثقلاً فيفتح الله له، فيتعلم ألا يعجب بنفسه. المعرفة هنا لا تعدّه بحال ثابتة، بل تمنحه ميزاناً: فضل الله يُشكر، والتقصير يُستغفر منه، والطريق لا يترك.

ومن التطبيق القريب أن يصل كل اسم ثابت بمعناه التعبدية من غير تكلف: إذا قرأ أن الله رحمن رجاه، وإذا قرأ أنه مالك يوم الدين استعد للقاءه، وإذا قرأ أنه سميع راقب كلمته ودعاءه. هذا الربط استنباط تربوي من دلالة الأسماء والآيات، وليس اختراعاً لصفة ولا جزءاً بأثر غيبي مخصوص. وكلها صح العلم صار الوقوف أقل غفلة وأبعد عن أن يكون حركة منفصلة عن معرفة المعبود.

قال الله لموسى عليه السلام: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: 14]. جاء التعريف بالمعبود قبل الأمر بالعبادة؛ لأن صحة الوجهة تسبق كثرة الحركة. ومن هذا الترتيب يفهم أن جمع القلب لا يبدأ بملاحقة السكون في النفس، بل بتجديد معنى التوحيد: هذه الصلاة لله، لا لتجميل صورة العابد عند نفسه ولا عند غيره، ولا لمجرد التخلص من واجب ثقيل. وكلها اتضح المقصود خف التشتت الناشئ من تعدد المقاصد.

ويعين على ذلك أن يدخل المصلي الصلاة بمعنى واحد صحيح يناسب مقامها: في التكبير يتذكر أن الله أكبر من الشاغل الذي تركه، وفي الحمد يستحضر النعمة والربوبية، وفي الاستعاذة يعلن عجزه عن الاستقامة دون توفيق. لا يلزمه أن يستولد خاطراً جديداً

عند كل لفظ؛ فهذا قد يصير شاغلاً آخر. المقصود علم سابق يضبط العبادة، ثم حضور بحسب الاستطاعة. وإذا قصر قلبه لم يحول النقص إلى حكم نهائي على نفسه، بل يعود إلى الأصل الذي افتتح به: العبادة لله والرجوع إليه.

المعرفة التي تُستدعى عند الحاجة

معرفة من يقف العبد بين يديه لا تعني جمع أسماء وصفات في الذاكرة ثم انفصالها عن القرار. يظهر أثرها حين تضيق الأسباب: يذكر أن الله عليم بحاله فلا يحتاج إلى تزيين دعائه، وقدير فلا يئأس، وحكيم فلا يشترط صورة واحدة للفرج، ورحيم فلا يجعل تأخر ما يريد حكماً بالقسوة. هذه المعاني لا تنشئ من الخيال، بل نتعلم من القرآن والسنة ثم تستدعى في موضعها.

والاختبار العملي أن يربط معنى صحيحاً من أسماء الله بعبادة قائمة. إذا قرأ {إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: 18] راقب عملاً خفياً، وإذا ذكر رحمة الله لم يتساهل في الذنب بل أسرع إلى التوبة. لا يحول الأسماء إلى شعارات لتحقيق رغباته، ولا يستنبط منها وعداً خاصاً لم يرد. المعرفة التي تبني الخشوع تزيد العبد عبودية، لا ثقةً بنفسه في تفسير القدر.

من عرف أن الله عليم بحاله لم يحتج إلى تزيين الدعاء، ومن عرف قدرته لم يحبس الرجاء في الأسباب، ومن عرف حكمته لم

يشترط طريقاً واحداً للفرج. هذه المعاني نتعلم من الوحي، لا من تخيل الذات ولا من تجارب النجاح وحدها.

قد يضع الإنسان خطة لتحسين الصلاة ثم يتعلق بالخطة: إذا نفذها شعر بالأمان، وإذا تعطلت ظن أن الباب أغلق. المعرفة الصحيحة تعيد السبب إلى مرتبته. يخطط ويجرب، لكنه يعلم أن حياة القلب فضل، وأن عجزه عن سبب لا يعني انقطاع الرب عنه.

وفي المقابل لا يستخدم التوكل لترك التعلم. معرفة الله تشمل الإيمان بأنه أمر وأرشد وشرع. من تعظيمه أن يتبع هدي نبيه ﷺ في الطمأنينة والاستعاذة وإزالة الشاغل. الادعاء أن القلب يصل بلا طريق قد يخفي كسلاً.

التطبيق أن يبدأ كل خطة بدعاء وطلب علم، وينهيا بشكر أو مراجعة. إذا نجحت لم يرك نفسه، وإذا أخفقت لم يهدم العبادة. يغير السبب ويبقى على الباب.

حين يعرف العبد عظمة ربه يعرف فقره، لكن الفقر لا يعني أن ينكر ما أعطاه الله من قدرة. هو محتاج قادر بإقدار الله، مأمور أن يستعمل النعمة. لذلك يجتمع التواضع مع المبادرة، والدعاء مع التعلم، والاستعاذة مع تحمل النتيجة.

ومعرفة النفس هنا ليست انشغالاً لا ينتهي بتحليل النية. يعرف مواطن ضعفه العملية: وقت يتشتت فيه، أو ذنباً يتكرر، أو مدحاً

يفتنه. ثم يضع سبباً. أما الحفر الدائم في الباطن بلا عمل فقد يصير حجاباً جديداً.

كلما رأى طاعة نسب الفضل لله وشكر، وكلما رأى تقصيراً استغفر وأصلح. لا يثبت لنفسه مقاماً بسبب ماض، ولا يلغي نعمة حاضرة خوفاً من العجب. الشكر نفسه حماية؛ لأنه يرى المعطي ولا يعبد العطية.

هذا الميزان يصحب المصلي عند الدخول والخروج: يدخل فقيراً مستعيناً، ويخرج مسؤولاً عاملاً. فلا تكون الصلاة مهرباً من ذاته ولا إعجاباً بحاله، بل لقاء يعيدها إلى جمها وواجبها.

استحضار نظر الله وتعظيم الوقوف

يفتح «الطريق إلى الخشوع» في «أعمال القلوب» في مبحث «الطريق إلى الخشوع»، باستحضار اطلاع الله، ثم معرفة قدره وتعظيم الوقوف بين يديه. وهذان أصلا يصححان اتجاه القلب: الأول يمنع طلب الجمهور، والثاني يمنع أن تصبح الصلاة حركة مألوفة لا يشعر صاحبها بمن يناجي.

استحضار الاطلاع لا يعني تخيل صورة، ولا مراقبة النفس بقلق مرضي. معناه أن يعلم العبد أن الله يسمع قوله ويرى عمله ويعلم سره، فيستحي أن يجعل العبادة عرضاً. وإذا شرد لم يقل إن

الباب أغلق؛ عاد لأنه يعلم أن ربه يعلم ضعفه كما يعلم مجاهدته. هذا العلم يورث صدقاً ورجاءً مع الهيبة.

أما التعظيم فيبنى بالوحي: أسماء الله وآياته ووعدته ووعيدته، لا بالمبالغات الوجدانية. يقرأ العبد ما يثبت العلم والحكمة والرحمة والقدرة، ثم يحمل المعنى إلى الصلاة. حين يقول «الله أكبر» لا يدعي أن المشكلات اختفت، لكنه يضعها تحت سلطان الله، فلا تعود أكبر من الأمر ولا من الأمانة.

ومن التدريب النافع أن يختار معنى واحداً صحيحاً قبل الصلاة: السمع، أو العلم، أو الرحمة، أو القدرة. ثم يربطه بموضع من صلاته من غير تكلف. فإذا دعا تذكّر السمع، وإذا استغفر تذكّر العلم، وإذا سأل الهداية تذكّر الرحمة. هكذا تنتقل المعرفة من درس منفصل إلى عبودية حاضرة.

58 | فهم ما تقول

يسأل القرآن عن تدبره [محمد: 24]، والصلاة ممتلئة بكلام يمكن تعلم معناه: قراءة وتسبيح وتحميد ودعاء. حين يجهل المصلي ما يقول تتحرك شفتاه ويبقى قلبه بعيداً عن الخطاب. والجهل هنا ليس قدراً دائماً؛ أبوابه محدودة، ويمكن أن يبدأ بالفتحة ثم أذكار الركوع والسجود.

لا يحتاج التعلم إلى استعجال. يفهم ذكراً واحداً فهماً صحيحاً، ويحفظ لفظه المشروع، ثم يصلي به من غير أن يستبدله بشرح من عنده. وكلما اتصل اللفظ بمعناه قلّت غربته. وقد يبقى الشرود، لكن القلب يجد موضعاً معلوماً يرجع إليه بدل أن يطوف في فراغ.

المعنى لا يحل محل اللفظ المشروع، لكنه يوقظ اللفظ في القلب. حين يقول المصلي: «سبحان ربي العظيم» يعرف أنه ينزه ربه ويعظمه؛ وحين يسجد لا يجعل الدعاء قائمة سريعة، بل سؤال فقير في أقرب هيئات العبودية. لا يحتاج هذا إلى خواطر متكلفة، وإنما إلى علم صحيح بالذكر الذي يقوله.

والتعلم هنا متدرج. يبدأ بالفتحة لأنها تتكرر في كل ركعة، ثم بأذكار الانتقال والركوع والسجود، ثم بما تيسر من السور. ومن الخطأ أن يحمل المصلي نفسه على استحضار عشرات المعاني في

لحظة واحدة فينشغل بمراقبة استحضاره عن العبادة. المقصود أن يفهم، ثم يدع المعنى يعمل بهدوء. وإذا فات حضور بعضه لم يبطل ما حضر، ولم يتحول النقص إلى باب يأس.

الفهم الذي يتحول إلى استجابة

فهم ألفاظ الصلاة بداية، لكنه ليس نهاية الطريق. قد يعرف المصلي معنى التسبيح والتحميد ثم يمر بهما مسرعاً؛ لأن المعرفة لم تنتقل بعد من الذهن إلى الاستجابة. حين يقول في ركوعه ما شرع له، ينبغي أن يوافق تعظيم القلب خضوع الجسد، وحين يسأل الهداية في الفاتحة يتذكر أن الهداية ليست معلومة قديمة، بل حاجة في القرار الذي سيواجهه بعد الصلاة. لا تُضاف إلى الأذكار معانٍ لم تحملها، وإنما يُستخرج أثرها العملي من معناها الثابت.

والفهم يحمي من شرود من نوع آخر: أن يلاحق المصلي خواطر جميلة صنعها لنفسه حتى يغيب عن اللفظ الذي يتعبد به. الخشوع ليس إنتاج تأملات كثيرة داخل الصلاة، بل حضور مع المشروع منها. لذلك يتعلم المعنى قبل الصلاة، ثم لا يطالب نفسه أثناءها بمحاضرة داخلية. يكفي أن يعرف ما يقول، ويقوله على وجهه، ويرجع إذا شرد. وقد يكون حضور معنى واحد صادقاً أنفع من تراحم معانٍ كثيرة يضيع معها الركن.

ومن أراد برنامجاً واقعياً فليكتب خارج الصلاة الأذكار التي يجهل معناها، ثم يرجع إلى شرح موثوق ويتعلمها واحدة بعد أخرى. لا يجعل الجدول عبادة مستقلة ولا يربطه بعدد يعتقد له فضيلة، بل ينظمه بحسب حاجته. وبعد مدة يسأل: هل صار اللفظ أوضح؟ هل أثر في سلوكي؟ فإذا فهم الاستعانة مثلاً ثم استقل بنفسه في كل شأن، علم أن الفهم ما زال يطلب ثمرة.

في صحيح مسلم 395a جاء حديث قسمة الفاتحة بين الرب وعبد، وفيه جواب الرب سبحانه على ثناء العبد ودعائه. يفتح الحديث للمصلي باباً عملياً: أن يعرف موقع كل مقطع من الفاتحة. الحمد ثناء، والرحمة رجاء، وذكر يوم الدين تعظيم ومسؤولية، و{إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [الفاتحة: 5] عهد عبودية، و{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: 6] سؤال لا يستغني عنه أحد. حين تنتظم هذه المعاني لا تعود السورة كلمة ألفاظ متشابهة، بل منازل واضحة في المناجاة.

ويُحفظ الفرق بين الفهم والتفسير المتكلف. معنى الآية يؤخذ من لغة الوحي وتفسير أهل العلم، لا من انطباع عابر ينسب إلى مراد الله. أما تنزيل المعنى على حال العبد فهو باب محاسبة واستفادة، لا باب تفسير ملزم. لذلك يكون البرنامج الآمن قصيراً: يقرأ تفسيراً موثقاً للفاتحة، ويثبت المعاني الكلية، ثم يراجع في كل صلاة موضعاً واحداً. وبعد أيام ينتقل إلى ذكر آخر. بهذه الطريقة

يصير العلم خادماً للحضور، ولا تتحول الصلاة إلى درس ذهني يزاحم أفعالها.

الفهم مقدار يرافق التلاوة

قد يؤجل الإنسان حضور القلب حتى يتعلم تفسير كل ما يقرأ، فيفوت عليه العمل بما يعرف. الفاتحة نفسها تفتح طريقاً كافياً للبدء: حمد وثناء وعبادة واستعانة وسؤال هداية، وقد ثبت حديث قسمتها في صحيح مسلم 395a. يستطيع المصلي أن يدخل كل ركعة بمعنى واحد واضح، ثم يوسع عليه على مهل.

الاختبار أن يحدد قبل الصلاة لفظاً واحداً يفهمه، من غير أن يقطع نظم القراءة أو يبتدع وقفات. فإذا قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5] جمع بين التكليف والافتقار؛ فلا يعتمد على عمله ولا يحتج بالعجز لتركه. وبعد الصلاة يراجع هل بقي المعنى في قراره. الفهم ليس تعليقاً ذهنياً مستمراً على كل كلمة، بل نور يوجه القراءة ويمنع اللسان من أن يعمل وحده.

لا يحتاج المصلي أن يحمل تفسير السورة كله في ركعة واحدة. ازدحام المعاني قد يتحول إلى شاغل جديد. الفهم النافع قدر صحيح يوجه القلب، ثم يتسع على مهل. يبدأ بالفاتحة والأذكار المتكررة، لأن أثر العلم فيها يعود كل يوم.

ومن الخطأ أن يؤجل الخشوع حتى يصبح عالماً، أو أن يقرأ ترجمة أو تفسيراً أثناء الصلاة بغير حكم. يتعلم خارجها ويعبد داخلها بما شرع. إذا جهل معنى سأل بعد السلام، ولا يخترع معنى يناسب شعوره.

وقد يختلف فهم اللفظة بين تفسيرين معتبرين. لا يحول الصلاة إلى ساحة ترجيح، ولا يجزم بما لا يعلم. يكفيه المحكم: الحمد لله، والعبادة له، والاستعانة به، وطلب الهداية. التفاصيل لها وقت العلم.

التطبيق خطة تعلم لا خطة شعور: معنى واحد في الأسبوع من ذكر ثابت، مع مصدر موثوق. يراجع قبل الصلاة ثم يتركه يعمل بلا تكلف. إذا حضر شكر، وإذا غاب لم يغير اللفظ ولم يترك العبادة.

تدبر مقدارٍ يعمل به القلب

تجعل «أعمال القلوب» في مبحث «الطريق إلى الخشوع»، تدبر القرآن من أسباب الخشوع، وتصل بين فهم المعنى وحضور القلب. لا يشترط لذلك أن يحمل المصلي تفسيراً طويلاً في ذهنه، ولا أن يقف عند كل كلمة وقفة مصطنعة؛ يكفي أن يدخل بقدر صحيح من الفهم ثم يزيده مع الأيام.

الفهم في الصلاة إجمال يوجه القلب، والتعلم خارجها تفصيل يبني ذلك الإجمال. يراجع المرء تفسير الفاتحة والسور التي يكثر قراءتها، ويميز معنى التسبيح والتحميد والدعاء، ثم يترك الكلمات تعمل في موضعها. إذا حاول أثناء الركعة استرجاع صفحات الشرح قد انتقل من المناجاة إلى اختبار الذاكرة.

والتدبر ليس شعوراً فقط. قد يفهم آية في الأمانة فلا يبكي، ثم يرد مائلاً أو يصدق في وعد؛ هذه استجابة من جنس الخشوع. وقد يتأثر بمشهد الوعيد ثم يحتاج إلى خطوة تحفظ أثره. لذلك يسأل بعد القراءة: ما الأمر؟ ما النهي؟ ما الوعد؟ وما الحق القريب الذي أقدر عليه؟

ومن الحذر ألا يحول الخاطر الشخصي إلى تفسير. قد تفتح الآية له معنى يوافق أصلها، فينتفع به بوصفه تذكيراً، لكنه لا ينسب إلى الآية حكماً لم يدل عليه اللسان والسياق وشرح أهل العلم. الخشوع للقرآن يشمل الخضوع لحدوده في الفهم.

59 | التكبير والتهيؤ

شرع الوضوء للصلاة [المائدة: 6]، وهو عبادة وطهارة ومدخل ظاهر إلى الوقوف. ويعين التكبير على أن ينتقل البدن والقلب من حركة العمل إلى الصلاة من غير صدمة العجلة. ليس المقصود زمنًا موحدًا لكل الناس، ولا طقسًا يضاف إلى المشروع، بل أن يترك المرء لنفسه قدرًا ممكنًا من التهيؤ.

قد يكون الاستعداد بإتمام حاجة عاجلة، أو إغلاق ما يشتت، أو وضوء قبل ضيق الوقت. ويختلف نصيب العامل والمريض وراعي الصغير، فلا يكلف أحد صورة لا يقدر عليها. العبرة ألا يدخل الإنسان في الاستعجال باختياره ثم يشكو أن قلبه لم يسكن. كثير من الشرود يبدأ قبل التكبير: مهمة لم تغلق، ورسالة ما تزال في اليد، وبدن دخل الصلاة وهو يركض. التهيؤ لا يخلق الخشوع بذاته، لكنه يزيل بعض ما ينازعه. الوضوء عبادة وطهارة، والمشي إلى الصلاة وانتظارها يهيئان انتقالًا من ضجيج الحاجة إلى مقام المناجاة. ولا يعني ذلك صناعة طقوس لم تثبت؛ إنما ترتيب الممكن حتى لا يدخل العبد الصلاة وهو موزع عمداً. ومن فقه التهيؤ أن يكون واقعياً. من يعمل أو يرفع طفلاً أو يباشر مريضاً قد لا يجد سكوناً طويلاً؛ نصيبه أن يحفظ الفرض في وقته، ويأخذ من الأسباب ما يقدر عليه، ولا يحتقر عبادة

تمت وسط المشقة. وقد يكون استعداده إغلاق شاشة قبل الأذان بدقائق، أو إتمام حاجة ملحة، أو اختيار مكان أقل تشتيتاً. ليست القيمة في عدد الدقائق، بل في صدق الانتقال.

التهيو يحفظ حق الصلاة ولا يعزلها عن الواجبات

التبكير لا يعني أن يترك الإنسان واجباً قائماً أو يضيع من يعول بحجة أنه يريد سكوناً كاملاً. من فقه التهيو أن يرتب الحقوق قبل دخول الصلاة ما أمكن، وأن يميز بين حاجة يمكن تأجيلها وحق لا يجوز إهماله. الأم التي ترعى صغيراً، والطبيب في نوبة، والعامل في مسؤولية، لكل واحد صورة من الاستعداد تناسب قدرته. الجامع أن لا يصنع بيده فوضى كان يستطيع تخفيفها، ولا يحمل نفسه ما لا يملك.

ويبدأ التهيو أحياناً من وقت أبكر مما نظن. من ملأ الدقائق السابقة بجداول حاد أو متابعة متلاحقة سيحتاج زمناً حتى يهدأ أثرها. ليس الحل أن يحرم المباح كله، بل أن يعرف طبيعة قلبه. قد يترك آخر مقطع قبل الأذان، أو يؤجل نقاشاً غير عاجل، أو يكتب المهمة التي يخشى نسيانها ثم يدخل الصلاة. هذه وسائل تنظيمية متغيرة، لا سنن مضافة ولا مقادير تعبدية.

والتهيو الصادق لا يضمن غياب الشرود. فائدته أنه يقلل الأعذار المصنوعة، ويجعل الرجوع أيسر. فإذا بقي الهم دخل به

العبد على ربه من غير تمثيل ولا كلام مخترع ينسبه إلى الله؛ يصلي بما شرع، ويدعو بما صح أو بما جاز من الدعاء، ويطلب العون. هكذا تصبح الصلاة موضع عبودية في الواقع الذي يعيشه، لا مشهداً مثالياً يؤجل حتى تستقيم الدنيا كلها.

التهيؤ للصلاة ليس ترفاً لأصحاب الفراغ، بل حماية للفرض من ضغط اللحظة الأخيرة. من يؤخر أعماله حتى تضيق النافذة الزمنية يدخل الصلاة مسرعاً، وربما اجتمع عليه قضاء حاجة البدن، وإغلاق العمل، والبحث عن مكان. أما من راقب الوقت فقد لا يضمن حضور قلبه، لكنه يقلل أسباب العجلة التي صنعها بيده. وهذا فرق مهم: الخشوع هبة وتوفيق ومجاهدة، بينما إدارة السبب مسؤولية يستطيع العبد أن يأخذ منها بنصيبه.

ولا يلزم من التبكير مقدار واحد لكل الناس. الموظف، والمسافر، والقائم على مريض، والأم مع صغيرها تختلف قدرتهم. الميزان أن يترك المرء مساحة معقولة بقدر حاله، وألا يجعل الضرورة المعتادة نتيجة إهمال متكرر. وقد يكون التهيؤ في بعض الأيام وضوءاً قبل الوقت، وفي أيام أخرى مجرد إيقاف مهمة جديدة حين يقرب الأذان. فإذا عرض طارئ حقيقي لم يجلد نفسه على ما لم يملك؛ يؤدي الصلاة على الوجه المشروع المستطاع، ثم يصلح نط يومه إن كان الخلل متكرراً.

التبكير يعيد للعبادة حق الاختيار

التأخر الدائم يجعل الصلاة آخر ما يدخل الجدول، ثم يطلب صاحبها حضوراً كاملاً في وقت لم يترك له مساحة. أمر السكينة في صحيح البخاري 636 يعالج الطريق، لكنه يكشف أيضاً قيمة الاستعداد. التبكير وسيلة تنظيمية لا عدد تعبدية؛ يختلف مقداره باختلاف الشخص والعمل والمسافة.

يختبر المرء أسبوعه لا يومه المثالي: ما المهمة التي تمتد كل مرة إلى الأذان؟ أين يمكن وضع حد توقف؟ قد يحتاج إلى تنبيه قبل الصلاة، أو وضوء مبكر، أو اتفاق مع فريقه على دقيقة خروج. وإذا كانت هناك ضرورة لم يذم نفسه؛ يؤدي ما وجب ويأتي الصلاة بالسكينة. المقصود أن لا تكون العجلة عادة صنعها ثم سماها ظرفاً قاهراً.

قد ينتظر الإنسان مزاجاً روحانياً كي يصلي بخشوع، فيؤخر أو يتكلف. التهيؤ الشرعي أبسط: وقت، وطهارة، وستر، وقبلة، وعلم بما يقول. ثم تأتي وسائل مباحة لإغلاق المشتت وإنهاء الحاجة. لا يشترط شعور مسبق.

هذه القاعدة مهمة في الأيام الثقيلة. ربما يدخل المؤمن الصلاة متعباً أو حزيناً، ولا يملك تحويل حاله. يؤدي العبادة بصدق قدره، ويعرض ضعفه على الله من غير أن يغير الهيئة. الخشوع

ليس نشوة، وقد يكون في الثبات مع الجفاف نصيب عظيم لا يعلمه صاحبه.

ولا يجعل التبكير ذريعة لإضاعة حق من معه. يوازن بين سنة وحاجة وواجب، ويسأل عن التفصيل. الفكرة التربوية أن يقلل الانتقال الحاد من دون أن ينشئ عبادة جديدة.

التطبيق ترتيب ثلاث دقائق أو أكثر أو أقل بحسب الحال بلا تقديس للعدد: إغلاق العمل، قضاء الحاجة، وضوء، ثم صلاة. إن لم يملك إلا لحظة صدق أخذها. القيمة في وظيفة التهيؤ لا في رقمه.

الوقار يبدأ في الطريق

النص الشرعي: ثبت في صحيح البخاري 636 أن النبي ﷺ أمر من سمع الإقامة أن يأتي الصلاة وعليه السكينة والوقار، ونهاه عن الإسراع، وأرشده أن يصلي ما أدرك ويتم ما فاتته. يبدأ أدب الصلاة هنا قبل الدخول فيها: طريقة الوصول نفسها جزء من التهيؤ.

قد يظن المتأخر أن تعظيم الصلاة يقتضي الجري إليها، فيحمل اضطرابه الجسدي والنفسي إلى الصف. التوجيه النبوي يعالج هذا الوهم: لا يصلح الخطأ بخطأ آخر، ولا تستعاد الركعة بتعريض النفس أو الناس للأذى. يدرك ما كتب له ويتم ما فاتته.

ويمتد فقه السكينة إلى الوسائل المعاصرة. من يقود سيارة لا يجعل استعجاله للصلاة ذريعة للتهور، ومن يمشي لا يدفع الناس، ومن يدخل المسجد لا يحول خوف الفوات إلى تشويش على الصف. حفظ النفس وحق الطريق داخلان في الطاعة، لا عائقان عنها.

التبكير علاج مهم، لكنه ليس ضماناً دائماً؛ قد يعرض أمر لا يملكه الإنسان. حينئذ يظهر الخشوع في قبول ما أدركه من غير فوضى. هذا القبول يقطع وهم التحكم: أبذل السبب، لكن لا أستطيع إعادة الدقيقة. أبدأ من موضعي وأكمل ما يلزمي. كما أن الوقار ليس بطئاً متكلفاً. المقصود ترك العجلة المفسدة، لا صناعة مشية يراقبها الناس. قد يحتاج المرء إلى سرعة عادية في شأنه قبل الإقامة، فإذا توجه للصلاة حفظ سلامته وسكينة من حوله. الهيئة تابعة للحكم والواقع.

تطبيق: يجعل المصلي قبل الأذان التالي هامشاً صغيراً للانتقال: يغلق المهمة، ويقضي الحاجة، ويخرج. فإن تأخر لم يدخل في محاكمة طويلة لنفسه وهو يمشي؛ يأتي بسكينة، ويصلي ما أدرك، ثم يعالج سبب التأخر بعد السلام. بهذه الطريقة لا يصبح الندم شاغلاً جديداً داخل الصلاة.

60 | إزالة الشواغل

جاء في صحيح البخاري 671 تقديم العشاء إذا حضر وأقيمت الصلاة، وجاء في السنة النهي عن الصلاة مع مدافعة الأخبثين. الجامع مراعاة حاجة ظاهرة تشغل القلب، مع بقاء أحكام الوقت والجماعة وتفصيلها في باب الفقه. فلا تؤخذ الرخصة ذريعة إلى تفويت الصلاة، ولا تهمل الحاجة حتى تستولي على العبادة. والشاغل قد يكون طعاماً أو حاجة بدن أو صورة أمام المصلي أو تنبيهاً ينتظره. يعالج ما يستطيع قبل التكبير، ثم لا يشترط صفاء كاملاً. ما لا يملكه يفوضه إلى الله ويعود من شروده كلما انتبه. إزالة السبب الممكن حكمة، والبحث عن بيئة مستحيلة باب إلى التأجيل.

ثبت في صحيح البخاري 373 أن النبي ﷺ رد الخميصة ذات الأعلام لما ألهته في الصلاة، فدل الخبر على مشروعية معالجة المشتت الظاهر. ولا يلزم أن يتحول المكان إلى فراغ قاس؛ إنما يزال ما يغلب على الظن أنه يجذب العين. وفي زماننا يدخل الهاتف في هذا الباب من جهة التنبيه والصوت وتوقع الرسالة، لا لأن الجهاز في ذاته عدو للخشوع.

أما الشاغل المحمول في القلب فلا يزال كله قبل الصلاة. قد يدخل المرء مهموماً أو مسؤولاً عن أمر عاجل. المطلوب أن يميز

بين ما يستطيع إغلاقه وما لا يستطيع. يغلق الممكن، ويفوز العاجز إلى الله، ثم يعود كلما شرد. هذا أصدق من انتظار صفاء كامل قد لا يأتي. وإزالة الشاغل سبب مباح يعين على أداء العبادة، وليست عبادة مستقلة ذات عدد مخصوص.

إزالة الشاغل قبل أن يتحول إلى وسواس في الشاغل

ثبت أصل مراعاة ما يشوش المصلي في حديث الطعام ومدافعة الأخبثين، وفي رد الخميصة ذات الأعلام لما ألهت في الصلاة. لكن هذا الباب نفسه قد ينقلب إلى تشدد: يظل المرء يفتش عن كل صوت ولون وحركة، ويظن أن صلاته لا تصلح إلا في بيئة يتحكم في جميع تفاصيلها. المقصود معالجة الشاغل الغالب الممكن، لا بناء عالم لا يتحرك فيه شيء.

وقد يكون بعض المشتت داخلياً لا يزول بإطفاء الأجهزة. خصومة، أو خوف من نتيجة، أو قائمة أعمال طويلة. هنا يفيد إجراء بسيط قبل الصلاة: يفصل بين ما يحتاج فعلاً عاجلاً وما يمكن إرجاؤه، يؤدي الأول إن اتسع الوقت، ويكتب الثاني أو يفوضه، ثم يدخل. فإذا عاد الخاطر لم يناقشه طويلاً، بل يرجع إلى القراءة والذكر. مقاومة الخاطر بمجادلته قد تمنحه زمناً أكبر من زمن الصلاة.

والميزان بعد العبادة ليس أن يسأل: هل خطر ببالي شيء قط؟ فهذا قد يفتح باب الوسواس. يسأل سؤالاً أهدأ: هل استسلمت لكل خاطر، أم كنت أرجع؟ وهل يوجد سبب متكرر أستطيع إصلاحه؟ الرجوع نفسه فعل مجاهدة، ولا يلزم أن يشعر صاحبه كل مرة بلذة ظاهرة. ومن رحمة الشريعة أن التكليف متعلق بالوسع، لا بصورة ذهنية مثالية لا يقدر عليها أكثر الناس.

دل حديث الخميصة في صحيح البخاري 373 على أن معالجة المشتت الحسي عمل مشروع؛ فقد أبعد الثوب ذو الأعلام لما شغل النظر في الصلاة. والاستفادة المعاصرة لا تحتاج إلى توسيع النص فوق دلالاته: كل ما يتكرر منه التشويش يعالج بسبب مناسب مباح. يُغلق التنبيه، ويبعد ما يضيء فجأة، ويختار من المكان ما يقل فيه المرور، ويقضى من الحاجة العاجلة ما يمنع الطمأنينة إذا أمكن من غير تفويت للوقت.

لكن إزالة المشتتات لا تتحول إلى شرط للكمال؛ فالبيت ليس مسجداً خالياً، والمسجد قد يزدحم، والحياة لا تتوقف. بعض الناس ينتظر بيئة مثالية ثم لا يصلي بقلب مجاهد في البيئة المتاحة. الصواب أن يفرق بين شاغل يستطيع إزالته وشاغل لا يملكه. الأول يعالجه، والثاني يصبر عليه ويرجع كلها انجذب إليه. وبذلك لا يظلم نفسه بإهمال الأسباب، ولا يظلم الواقع بطلب ما لا يمكن.

النجاح هنا ليس انعدام كل خاطر، بل قصر مدة الغياب وسرعة العودة.

المشت يُزال بحسب سلطانه

ليست الأشياء في قوة واحدة: نقش أمام العين، وتنبيه مسموع، وخصومة في القلب، ودين في الذمة. يثبت صحيح البخاري 373 إزالة شاغل مرئي، لكن معالجة الخصومة لا تكون بتغيير الجدار. يحتاج كل مشتت إلى بابه؛ المحسوس يبعد، والحق يؤدي، والفكرة المؤجلة تكتب، والوسوسة يعرض عنها.

قبل الصلاة يصنف المرء أقوى شاغل لا أطول قائمة. فإن كان الهاتف أغلقه، وإن كان موعداً دون الخطوة التالية، وإن كان حقاً عاجلاً أداه. ثم لا ينتظر فراغاً كاملاً؛ فالدنيا لا تخلو من الأصوات. الخشوع يتعلم وسط قدر من النقص، وإزالة السبب ليست ضماناً للشعور، لكنها صدق في الأخذ بما يملك.

ليست الشواغل كلها أجهزة. منها حاجة البدن، وحق العبد، وذنوب، وخوف مستقبل، ووسوسة، ومشتت بصري. لكل نوع علاج؛ جمعها تحت عبارة «ضعف تركيز» يجعل الخطة عمياء.

الحاجة تقضى، والحق يؤدي، والذنوب يتاب منه، والمستقبل يؤخذ له سبب ثم يفوض، والوسوسة تعالج بالاستعاذة والحكم،

والمشتت يبعد. قد تجتمع الأنواع، فيبدأ بالأوضح والأكثر تكراراً.
لا يطالب نفسه بحل الحياة كلها قبل التكبير.
والتمييز يمنع الظلم. إذا كان الخاطر حقاً لأحد لا يسميه شيطاناً
ليتهرب، وإذا كان وسواساً لا يفتح له محكمة كل مرة. العلم بالحال
يحتاج صدقاً واستشارة أحياناً.

التطبيق بعد عدة صلوات أن يسجل نوع الخاطر لا محتواه
التفصيلي: بدن، حق، عمل، صورة، وسواس. يظهر النمط، فيختار
علاجاً. التسجيل وسيلة مؤقتة؛ إذا صار مراقبة مرهقة تركه.

61 | النظر إلى موضع السجود

تفاصيل نظر المصلي ومسائله موضع بحث فقهي، فلا نثبت هيئة مخصوصة بغير دليل محرر. لكن المعنى التربوي ظاهر: العين إذا راحت تتبع الحركة والزخرفة حملت إلى القلب صوراً جديدة كل لحظة. ومن جمع بصره على موضع لا يشغله كان أقرب إلى حفظ انتباهه.

يختار المصلي مكاناً قليل المشتتات إذا قدر، ويزيل صورة غالبية أو شاشة مضيئة، ولا يحكم على قلوب الناس من هيئة أبصارهم. وإذا احتاج إلى نظر معتبر أو صلى في زحام، عمل بما يستطيع. المقصود خدمة الصلاة، لا صناعة وسواس حول حركة العين.

تفاصيل موضع نظر المصلي باب فقهي، فلا تنسب فيه سنة بعينها من غير نص صحيح صريح وتحرير لأقوال الفقهاء. والثابت في صحيح البخاري 751 أن النبي ﷺ وصف الالتفات في الصلاة بأنه اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد. والمقصود التربوي الأوثق هنا ألا يرسل المصلي بصره يتتبع الناس والزخارف والحركة. البصر باب إلى القلب، وتقليل جولانه يعين على جمع الانتباه، من غير أن يجعل هيئة واحدة معياراً للحكم على خشوع الناس.

وقد يصلي المرء في مسجد مزدحم، أو في موضع لا يملك تغيير تفاصيله. عندها يعمل بما يستطيع: يتجنب التطلع، ولا يراقب المارين، ولا يجعل اضطراب الخارج ذريعة لتترك المجاهدة. وإذا احتاج إلى نظر معتبر، كمتابعة الإمام أو دفع ضرر، لم يحمل نفسه حرجاً. الخشوع عبودية واعية، لا انقطاع عن الواقع.

غض البصر داخل الصلاة وخارجها طريق واحد

حفظ البصر في الصلاة لا ينفصل عن عادته خارجها. العين التي تدرت ساعات على القفز السريع بين الصور يصعب عليها أن تسكن بمجرد التكبير. وليس في هذا حكم قاطع على قلب صاحبها، لكنه تفسير عملي لجزء من الشرود. الطريق لا يبدأ باتهام التقنية أو الناس، بل بحاسبة عادة النظر: ماذا ندخل على القلب، وكم نترك له من السكون، وهل نغلق ما لا يحل أصلاً؟

ومع ذلك يجب التفريق بين الحكم الشرعي والملاحظة التربوية. تحريم النظر المحرم ثابت بأدلته، أما أثر كثرة التنقل المباح بين الصور في الانتباه فهو باب تربية وتجربة، لا يُقدّم على أنه نص شرعي مخصوص. يمكن للمرء أن يجرب تقليل التدفق قبل الصلاة ويراقب أثره من غير أن يحرم على نفسه أو على غيره ما أحل الله. وفي الصلاة يختار المصلي الموضع الأقل تشتيتاً إن أمكن، ولا يتتبع الداخل والخارج. فإن وقع أمامه ما لم يملك تغييره، حفظ

بصره بقدر استطاعته ولم يدخل في صراع يفسد عليه العبادة. وقد يحتاج إلى النظر لدفع ضرر أو متابعة لازمة؛ فلا يجعل الوسيلة مقصداً مستقلاً. العبرة أن يخدم البصر حضور القلب، لا أن يتحول الحديث عن موضع النظر إلى باب خصومة أو حكم على خشوع الآخرين.

ومن ثمرات هذا الأدب أن يبقى المصلي منشغلاً بإصلاح نفسه. فإذا رأى غيره ينظر لسبب لا يعرفه لم يتهم قلبه، وإذا احتاج هو إلى حركة بصر لدفع أذى أو متابعة إمام لم يتعامل مع الحاجة كأنها هدم لعبادته. المجاهدة لا تعني الجمود، وإنما تعني ألا يترك حاسة العين بلا حراسة. وما ضبط من الخارج خدم الداخل، دون أن يدعي أحد أن الظاهر كشف له سر القلب.

غض البصر تدريب يوم كامل

النظر إلى موضع السجود داخل الصلاة أدب معروف في بابه، لكن العين تدخل الصلاة بما جمعت قبلها. الأمر القرآني بغض البصر [النور: 30] يحرس المادة التي تصل إلى القلب، ويمنع أن يصير النهار معرضاً مفتوحاً ثم تطالب الركعة بحو كل صورة.

اختبار الفصل ليس مراقبة العين بقلق، بل قطع مسار معلوم: حساب يثير فتنة، أو تصفح بلا غرض، أو تتبع لما لا يعني. حين يتركه المرء لله يخفف مورداً من موارد الشرود، ويؤدي عبادة

مستقلة ولو لم يجد أثراً سريعاً في صلاته. وإذا وقع نظر عابر صرفه ولم يحول العثرة إلى استسلام. غص البصر خشوع خارج الصلاة يهئ لخشوع داخلها.

النهي عن رفع البصر في الصلاة والذم الوارد في الالتفات لا ينفصلان عن تربية العين في اليوم كله. العين المعتادة على التشتت تحتاج مجاهدة أكثر، والعين المصونة ليست معصومة من الخاطر لكنها أقل حملاً.

لا يختزل غص البصر في باب واحد، مع عظم ذلك الباب. يشمل ترك فضول لا ينفع، وعدم مراقبة الناس، وتقليل التنقل الذي يبدد الانتباه. هذه درجات تربوية، وليست كل نظرة في الحكم نفسه؛ الفقه يفرق.

ومن الخشوع ألا ينظر الإنسان إلى صلاة الآخرين ليقيمها. قد يرى حركة ولا يعرف سببها. يصلح نفسه وينصح بعلم عند الحاجة من غير تجسس ولا ازدراء.

التطبيق أن يجعل الطريق إلى المسجد أو المصلى فرصة لخفض المثيرات، لا لآخر جولة تصفح. في الصلاة يستقر بصره وفق السنة، وإذا تحرك عاد. لا يجعل العين موضوع الصلاة كله.

62 | التدرج لا الادعاء

وعد الله أهل المجاهدة بالهداية إلى سبله [العنكبوت: 69]، ولا يدل ذلك على أن كل أثر يظهر في الموعد الذي يختاره العبد. الخشوع تربية تتداخل فيها المعرفة والتوبة والعادة والافتقار. والصدق أن يرى المرء نقصه من غير أن يتزين بدعوى مقام لم يبلغه، ومن غير أن يجعل النقص حجة للانقطاع.

يبدأ بما يقدر على حفظه: طمأنينة ركن، أو فهم الفاتحة، أو ترك مشتت متكرر. فإذا استقر وسّع إصلاحه. هذا تنظيم مباح لا عبادة ذات عدد مخصوص. والمقياس ليس شعور يوم واحد، بل دوام العودة، مع أداء الواجبات والتوبة من المحرمات من غير تأجيل باسم التدرج.

في صحيح البخاري 6464 أن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل، مع الأمر بالسداد والمقاربة. لا يختص الحديث بتدريب الخشوع، لكن قاعدته تمنع اندفاعاً قصيراً يعقبه انقطاع طويل. من أراد إصلاح صلاته فليختر باباً واحداً: فهم الفاتحة، أو ترك الهاتف، أو الطمأنينة في الركوع، ثم يحفظه حتى يستقر قبل أن ينتقل إلى غيره.

والتدرج لا يعني الرضا بالتقصير، بل صدق المعالجة. الادعاء يقيس النجاح بالشعور السريع، أما التربية فتقيسه بالثبات والعودة.

قد يزيد الشرود في أيام التعب، وقد يفتح الله في صلاة دون أخرى؛ فلا ينسب العبد الفضل إلى نفسه، ولا يحكم على الطريق بالفضل من يوم واحد. كل عودة صادقة تدريب على العبودية.

التدرج الذي لا يؤجل التوبة

التدرج في بناء العادة لا يعني التدرج في ترك الحرام على معنى الرضا ببعضه. التوبة من الذنب واجبة بحسب حاله، وأداء أركان الصلاة وواجباتها لا يؤجل بحجة التدريب. الذي يتدرج فيه العبد هو اكتساب كمالات الحضور، وتوسيع فهمه، ومعالجة عوائق متعددة لا يستطيع جمعها في يوم واحد. هذا الفرق يحفظ التدرج من أن يصبح اسماً لطيفاً للتسويف.

ومن علامات الخطأ الصادرة أن يكون لها أثر محدد يمكن مراجعته: يتعلم معنى الفاتحة، أو يطمئن في ركن كان ينقره، أو يقطع تنبيهات الهاتف وقت الصلاة. فإذا استقر باب انتقل إلى غيره. وليس لازماً أن يسجل كل شيء أو يحول العبادة إلى مشروع أرقام؛ المقصود معرفة موضع الإصلاح ومنع النية العامة من الذوبان.

والتعثر داخل الطريق لا يحو الطريق. من حافظ أياماً ثم عاد إلى العجلة لا يقول إن المحاولة كانت نفاقاً، ولا يزين لنفسه الرجوع. يجدد التوبة ويبحث عن سبب الانقطاع. قد تكون الخطوة

فوق طاقته، أو البيئة أقوى من عزمه، أو أنه طلب شعوراً سريعاً فلم يجده. المداومة المذكورة في صحيح البخاري 6464 تعلم السداد والمقاربة، ولا تمنح ضمناً بحال قلبي بعينه. قال النبي ﷺ: «وَأَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا إِلَى اللَّهِ وَإِنْ قَلَّ» في صحيح البخاري 6464. يُستفاد من القاعدة أن إصلاح الصلاة يحتاج حملاً يمكن مواصلته. ومن التطبيق أن يختار المصلي أسبوعاً لضبط الطمأنينة، وآخر لفهم الفاتحة، وثالثاً لإغلاق الشواغل قبل التكبير. لا يجعل هذا التقسيم عبادة مؤقتة ذات فضل خاص، بل وسيلة تنظيمية مباحة لمراجعة الواجبات والسنن والمعاني.

والقياس النافع ليس عدد المشاعر، بل ثبات الفعل الصحيح. هل صار يدخل قبل ضيق الوقت؟ هل قل العبث؟ هل عرف معنى الذكر؟ هل يعود عند الشرود بدل الاسترسال؟ هذه علامات يمكن ملاحظتها دون ادعاء علم بالقبول. وإذا فشل في أسبوع لم يهدم الخطة، بل يصغر المهمة ويزيل سبب التعثر. التدرج الصادق يرفض عذرين متقابلين: عذر من يؤجل الإصلاح بحجة الضعف، وغرور من يظن أن اندفاعاً واحدة نقلته إلى مقام راسخ.

التدرج يحفظ الصدق من الادعاء

يريد المبتدئ أحياناً أن يصلح كل صلاة وذكر ونوم في يوم واحد، ثم تضعف الخطة فيفسر سقوطها بأنه سقوط قلبه. يفتح

صحيح البخاري 6464 باباً آخر: الدوام وإن قل. ولا يعني ذلك تقليل الواجب أو الرضا بالخلل، بل اختيار وسيلة صغيرة ثابتة تعين على أداء الواجب وتحسين النافلة. يختار المرء محوراً واحداً لمدة مناسبة: الطمأنينة في الركوع، أو حفظ دعاء صحيح، أو إغلاق الشاشة قبل المغرب. يقيس الفعل لا المشاعر؛ هل التزم السبب أم لا؟ فإذا استقر أضاف غيره. ولا يجعل المدة عدداً شرعياً ملزماً، بل أداة تعلم. التدرج الصادق لا يقول «قد خشعت»، بل يقول «أخذت بسبب وأرجو من الله القبول».

قد تقع آية في القلب فتغير قراراً في لحظة، وقد يتعلم العبد الطمأنينة بعد أشهر من المجاهدة. كلا الطريقتين من فضل الله. الخطأ أن يحتقر البناء الطويل لأنه بلا لحظة مدهشة، أو أن يضمن دوام الأثر العاجل بلا رعاية. الدوام في صحيح البخاري 6464 يحفظ الفتحة من أن يبقى ذكرى.

بعد كل نفحة يحتاج القلب إلى عمل صغير يصونها، وبعد كل فتور يحتاج إلى رجوع لا إلى قصة يرويها عن ماضيه. وهكذا يتحول الخشوع من موسم انفعال إلى طريق: علم يتجدد، وعبادة تحفظ، وذنب يتاب منه، وحق يؤدي، ورجاء لا ينقطع.

التدرج طريقة لبناء العادة والعلم، لا رخصة في الإقامة على ذنب واجب الترك. يترك المحرم بحسب استطاعته الشرعية الآن،

ويرد الحق، ثم يتدرج في المهارات التي تحتاج تدريباً: الفهم، وتقليل الشرود، وطول النافلة.

قد يخلط الإنسان بينهما فيقول: سأقلل المعصية قليلاً باسم التدرج، مع قدرته على القطع، أو يطالب نفسه بخشوع كامل فوراً. الأولى تسويف، والثانية تحميل. الميزان معرفة نوع التكليف. التدرج الصادق له اتجاه ومراجعة. إذا لم يتحرك بعد زمن صار شعاراً. لكنه لا يقاس بانفعال يومي؛ قد يكون التقدم انتظام الصلاة أو انخفاض الاسترسال أو تعلم معنى.

التطبيق فصل الورقة إلى «واجب الآن» و«مهارة تبنى». يضع تحت الأول ما علم وجوبه، وتحت الثاني خطوة صغيرة. يستشير إن التبس الحكم. بهذا لا يتحول اللطف بالنفس إلى خداع، ولا الحزم إلى قنوط.

صلاة مودع بلا صناعة خوف

تذكر «أعمال القلوب» في مبحث «الطريق إلى الخشوع»، من أسباب الخشوع أن يصلي المرء صلاة من يظن أنه قد لا يعود إليها، وأن يستحضر مشاهد الآخرة. يعمل هذا المعنى حين يقصر قائمة التأجيل، لكنه يفسد إذا تحول إلى هلع أو إلى ادعاء يقين بقرب الأجل.

صلاة المودع لا تعني توديع المسؤوليات، بل أداء الصلاة كأن الفرصة لا تضمن مرة أخرى. يرد الحق الذي يستطيع، ويعتذر عن ظلم، ويمنح الركعة قدرها، ثم يخرج إلى عمله. الموت هنا ميزان قيمة، لا ذريعة لترك عمارة الحياة التي كلف بها.

واستحضار الآخرة يضع الصلاة في سياقها: وقوف اليوم باختيار العبد يذكره بوقوف الغد الذي لا يملك دفعه. لكن التفاصيل الغيبية تؤخذ من النص الثابت، ولا توسع بالمخيلة طلباً للتأثير. يكفي أن يعلم أنه ملاق ربه وأن عمله معروض، فيستقيم خوفه مع الرجاء.

التدرج في هذا الباب مهم. قد لا يحتمل بعض الناس خطاباً شديداً بسبب حزن أو وسواس؛ يعطون من المعنى ما يصلحهم، ويذكرون بسعة الرحمة وباب التوبة، ويحاولون إلى المختص عند الحاجة. الوعظ الخاشع لا يكسر من يريد إعادته إلى الله.

63 | الدعاء بقلب خاشع

في صحيح مسلم 2722 استعاذة النبي ﷺ من قلب لا يخشع، وفي الدعاء تعليم للعبد ألا يتكل على معرفته بخطوات التركيز. القلب بيد الله، والعبد مأمور بالسؤال والعمل والتوبة. يقوله وهو يفهم حاجته، لا بوصفه صيغة تضمن أثراً فورياً.

وصدق الدعاء يظهر في معالجة ما يناقضه. من يسأل قلباً خاشعاً يجتهد في ترك الظلم والمعصية، ويرد الحقوق، ويتعلم ما يقول في صلاته. ليس المذنب مطروداً من الدعاء؛ بل الدعاء والتوبة طريق رجوعه. وكلما طال الطريق ازداد افتقاراً، لا اعتماداً على مهارته.

ثبت في صحيح مسلم 2722 أن النبي ﷺ كان يستعيز من قلب لا يخشع، مع الاستعاذة من علم لا ينفع ونفس لا تشبع ودعوة لا يستجاب لها. اجتماع هذه المعاني يكشف أن الخشوع ليس تقنية ذهنية منفصلة؛ القلب يحتاج تزكية، والعلم يحتاج ثمرة، والنفس تحتاج مجاهدة، والدعاء يحتاج افتقاراً. لا يملك العبد أن يأمر قلبه فيطيع دائماً، لكنه يملك أن يسأل ربه ويأخذ بالأسباب.

ومن حضور الدعاء أن يفهم العبد ما يسأل، وألا يجعل اللفظ ستاراً لبقاء السبب الذي يقسي قلبه. من استعاذ من قلب لا يخشع ثم أصر على ظلم ناقض سؤاله بعمله. ولا يعني ذلك أن

المنذب ممنوع من الدعاء؛ بل يبدأ بالدعاء والتوبة معاً، ويكرر الرجوع من غير قنوط ولا ادعاء بلوغ.

الدعاء لا يعني من رد المظالم

الاستعاذة من قلب لا يخشع دعاء جامع، لكنها لا تصبح بديلاً عن إصلاح ما يقسي القلب. من ظلم إنساناً ثم طلب خشوعاً لا يطالبه ضميره بشيء، فقد فصل عبادة القلب عن حقوق العباد. والدعاء الصادق يدفع إلى التوبة: يرد ما يستطيع من الحقوق، ويعتذر حيث يكون الاعتذار إصلاحاً، ويكف الأذى، ثم يسأل الله قلباً حياً.

ولا يعني هذا أن كل غياب للخشوع عقوبة محددة على ذنب بعينه؛ الجزم بسبب غيبي لحالة شخصية يحتاج دليلاً، ولا نملكه. نقول بقدر ما دلت عليه النصوص العامة: المعصية تضر القلب، والطاعة تزكيه، والتوبة باب مفتوح. أما تعيين أن الشرود وقع بسبب واقعة مخصوصة فاستنتاج لا يقدم على أنه خبر عن الله.

والدعاء نفسه يحتاج صدق افتقار، لا جودة أداء صوتي. قد يقوله العبد في هدوء ولا يبكي، فيكون صادقاً، وقد يتأثر صوته ولا نعلم من باطنه شيئاً. لذلك يحفظ المرء لسانه من تزكية نفسه، ويكرر السؤال مع العمل. وإذا طال الطريق لم يترك الدعاء؛ لأن استمرار الحاجة هو معنى العبودية، لا دليل رفض.

وصف الله الصالحين بقوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: 90]. جمعت الآية مسارعة العمل ودعاء الرجاء والخوف والخشوع؛ فلا يفصل سؤال القلب عن حركة الجوارح. الدعاء بقلب خاشع ليس انتظاراً سلبياً لتغير الحال، بل اعتراف بالحاجة يتبعه بذل السبب. يسأل العبد ربه، ثم يترك المعصية التي تقسيه، ويتعلم ما يجهله من صلاته، ويصلح ما يقدر عليه من بيئته.

وفي صحيح مسلم 2722 الاستعاذة من قلب لا يخشع. يحسن أن يقولها المسلم بلفظها الثابت، من غير اختراع عدد أو وقت لم يرد. ثم يقرأ الاستعاذة على نفسه: هل العلم الذي يطلبه يثمر؟ هل نفسه تزداد شبعاً بالدنيا كلها أعطاها؟ هل دعاؤه مصحوب بصدق الرجوع؟ ليست الأسئلة لإحباطه، بل لتمنع انفصال اللسان عن الطريق. وقد يدعو طويلاً ولا يرى أثراً سريعاً؛ يبقى مأموراً بالدعاء والعمل، ولا يحكم على الغيب من تأخر شعوره.

الدعاء لا يعني من اكتشاف المانع

في صحيح مسلم 2722 استعاذة من قلب لا يخشع مع سؤال تزكية النفس. الدعاء يعلن العجز عن إصلاح القلب استقلالاً، لكنه لا يبيح ترك السبب. من دعا ثم أبقى مظلمته وشأسته وجداله كما هي لم يجمع بين السؤال والعمل.

الاختبار أن يقرن كل دعاء بسبب واحد مشروع. يسأل قلباً خاشعاً ويتعلم معنى ما يقرأ، أو يرد حقاً، أو ينام نوماً يحفظ الفريضة. وإذا فعل لم يمت بعمله ولم يطالب بنتيجة وجدانية فورية. قد يستجيب الله بإعانتته على الاستمرار قبل أن يرزقه لذة، وقد تكون الاستجابة في كشف مانع لم يكن يراه. الدعاء قائد للمجاهدة، لا بديل منها.

الاستعاذة من قلب لا يخشع ثابتة في صحيح مسلم 2722، وهي اعتراف بأن القلب بيد الله. لكن النبي ﷺ أرشد أيضاً إلى أسباب محددة عند الشاغل والوسوسة والخطأ. الجمع بين الدعاء والسبب هو الهدى، لا اختيار واحد منهما ضد الآخر.

قد يكرر العبد الدعاء سنوات ويحافظ على المانع الذي يعرفه. لا يعني ذلك أن دعاءه باطل، لكنه مدعو إلى صدق أكبر: ما الباب الذي أستطيع إغلاقه؟ وقد يبذل الأسباب كلها ثم لا يجد ما يريد؛ هنا يظهر الافتقار ولا يتهم الله ولا نفسه بلا علم.

ومن الموانع ما يحتاج متخصصاً: اضطراب نوم، ألم، أو قلق. طلب العلاج سبب، والدعاء يصحبه. لا يضع الكتاب وصفة طبية ولا يعد بنتيجة.

التطبيق أن يلحق كل دعاء بخطوة إن كانت معلومة: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»؛ ثم يترك شاشة، أو يرد حقاً،

أو يتعلم معنى. وإذا لم يعرف قال بصدق: لا أعلم، وسأل وواصل
العبادة.

64 | صحبة تذكرك بالله

أمر الله نبيه ﷺ أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم يريدون وجهه [الكهف: 28]. وفي التعبير بالصبر إشارة إلى أن الصحبة الصالحة ليست دائماً موافقة للهوى؛ قد ترد الإنسان إلى فرض أهمله، أو تنبهه إلى كلمة ظلم بها، أو تمنعه من انشغال يبدد قلبه. وليست الصحبة تبعية عمياء ولا عصمة لأشخاص. علامتها أن تزيد معرفة الله وأداء الحقوق، وأن تقبل النصيحة وتمنع التعلق المفسد. قد تكون صديقاً صادقاً أو بيتاً يتواصى أو مجلس علم منضبطاً. المهم أن تعين على الطريق، لا أن تصبح هي غاية الطريق.

قال تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الكهف: 28]. في الآية أمر بصبر النفس، لأن الصحبة الصالحة لا توافق الهوى دائماً؛ قد تذكر بفرض، أو ترد غيبة، أو تكشف إفراطاً. علامتها أن تقود إلى الله وتحفظ الحقوق، لا أن تصنع تعلقاً بالأشخاص أو حصانة من النقد.

وقد تكون الصحبة مجلس علم منضبطاً، أو صديقاً صادقاً، أو بيتاً يتواصى بالصلاة من غير قسوة. ولا يشترط كثرة اللقاء؛ المهم أثره. فإذا خرج المرء من مجلس أكثر اشتغلاً بالناس وأقل قياماً

بالواجب، فليفتش في نوع الصلحة وإن لبست ثوب الموعظة. الصلحة المعينة على الخشوع تخفض الضجيج حول الذات وتفتح باب العمل.

الصلحة التي تعينك على الفرائض أولاً

قد يجب المرء مجالس المواعظ، لكنه يخرج منها متأخراً عن حق أهله أو عمله أو صلاته. هنا ينبغي أن يعيد تعريف الصلحة الصالحة: ليست التي تمنح انفعالاً دينياً فحسب، بل التي تعينه على الفرائض وترده عن الظلم وتعلمه الصدق. قوله تعالى في الكهف 28 يجمع الصبر مع من يريدون وجه الله، لكنه لا يبيح إهدار بقية الحقوق ولا يجعل كل تجمع يحمل شعاراً دينياً مزكياً لنفسه. والصاحب النافع لا يستعبد صاحبه ولا يحتكر طريقه إلى الله. يقبل النصيحة، ويعرف قدره، ولا يطلب طاعة مطلقة. فإذا صارت العلاقة قائمة على الخوف من الشخص، أو على إخفاء الخطأ حماية لصورته، فقد دخلها ما يناقض التربية على الخضوع لله. هذا ضابط عام، أما الحكم على جماعة أو شخص بعينه فيحتاج وقائع وعدلاً ولا يبنى على الظن.

وقد يجد الإنسان عوناً في بيته أكثر من مجلس بعيد: تذكير لطيف بالصلوة، ووقت مشترك للقرآن، وامتناع عن السخرية من محاولة الإصلاح. وقد تكون الصلحة كتاباً موثقاً مع عالم يشرح،

إذا لم يجد مجلساً مناسباً. لا يُكَلِّف المرء صورة واحدة من الصلابة، لكنه لا يستغني عن بيئة تقلل الغفلة وتعينه على الرجوع. قال تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الكهف: 28]. وبين النبي ﷺ أثر المجلس بمثل حامل المسك وناخ الكير في صحيح البخاري 5534. يجتمع الأهلان على أن المجالسة تنقل أثراً، وأن اختيار البيئة عمل تربوي. فلا يكفي أن تكون الصلابة ممتعة أو كثيرة الحديث عن الدين؛ الأهم أن تعين على قصد وجه الله، وأداء الصلاة، وحفظ اللسان، والقيام بالحقوق.

وتُختبر الصلابة بالنتيجة الممتدة لا بحرارة المجلس وحدها. هل تجعل صاحبها أصدق في بيته؟ هل ترده إلى فرض ضيعه؟ هل تحتمل نصحه إذا أخطأ؟ الصلابة التي تبني الخشوع لا تعزل الإنسان عن أسرته ومسؤوليته، ولا تجعل الشيخ أو المجموعة بديلاً من الدليل. وإذا اختلف الأصحاب في مسألة اجتهادية حفظوا الأدب، ولم يحولوا الخشوع إلى شعار للانتصار. وقد يكون أنفع ما يقدمه الصديق تذكيراً هادئاً بالوقت، أو سكوتاً عن غيبة، أو سؤالاً عن حق غاب.

الصحبة تُعرف بما تردك إليه

ليست الصحبة النافعة مجلساً كثير الكلام عن الأحوال فقط. يثبت مثل المجلس الصالح في صحيح البخاري 5534 أثر المجالسة، لكن ثمرة صحبة الخشوع أن ترد الإنسان إلى الله وإلى حقوقه، لا أن تعلقه بصورة الواعظ أو المجموعة. صاحب الصادق يذكر بلطف، ويحفظ السر، ولا يتاجر بضعف صاحبه.

يختبر المرء مجلسه بعد انفضاضه: هل أعانه على صلاة في وقتها، وعلى قول أحسن، وعلى عمل خفي؟ أم زاده مقارنة وجدالاً وتبعاً للناس؟ وقد تكون الصحبة كتاباً موثقاً أو درساً منضبطاً إذا لم يجد رفيقاً قريباً، مع بقاء حاجة الإنسان إلى جماعة المسلمين. المقصود بيئة تسند الطاعة من غير وصاية على البواطن.

الصحبة الصالحة تعين على الوقت والعلم والرجوع، لكنها لا تمنح أحداً سلطة على باطن صاحبه. قد يذكر الصديق بلطف، ويشاركه درساً أو صلاة، ويستر تقصيره، ولا يحوله إلى مشروع تقييم دائم. والخشوع لا يقاس بالانتماء إلى مجموعة أو شيخ. الدليل هو الحاكم، والناس يصيبون ويخطئون. يجب المرء أهل الخير وينتفع بهم ولا يعطل عقله ولا يبرر تجاوزاً باسم التربية.

من علامات الصحبة النافعة أنها تردك إلى الله والحق، لا إلى الإعجاب بالشخص. وإذا أخطأت ساعدتك على التصحيح لا على تزيين صورتك. وإذا نجحت لم تجعل الفضل ملكاً للجماعة.

التطبيق اختيار شخص أمين تسأله عن عادة واحدة: الوقت أو العلم، لا عن سريرتك. نتفقان على تذكير مباح، ثم يبقى كل واحد مسؤولاً. لا يتحول التذكير إلى تجسس.

الباب التاسع: حين يخشع القلب

صحة تحفظ الوجهة ولا تصنع التبعية

النص الشرعي: أمر الله نبيه ﷺ أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ونهاه أن تعدو عيناه عنهم طلباً لزيينة الحياة الدنيا [الكهف: 28]. وفي صحيح البخاري 5534 مثل المجلس الصالح وحامل المسك، وجليس السوء وناخ الكير. النصان يقرران أثر الصحة، لكنهما لا يلغيان عقل الفرد ومسؤوليته.

الصحة الصالحة لا تعني جماعة معصومة ولا شخصاً يملك مفاتيح القلوب. علامتها أنها تردك إلى الله والفرائض والحقوق، وتسمح بالنصيحة، ولا تبني ولاءها على إخفاء الخطأ. قد يكون الصاحب الصالح عالماً أو قريباً أو زميلاً بسيطاً؛ القيمة فيما يحمله من صدق وأمانة وتذكير.

والصبر في الآية مهم. الصحة النافعة ليست دائماً الأكثر بريقاً أو منفعة اجتماعية. قد تحتاج إلى احتمال بقاء المجلس، وتفاوت الطباع، وخدمة لا يراها الجمهور. لكن الصبر لا يعني قبول الأذى المستمر أو السكوت عن استغلال؛ الحدود العادلة تحمي المقصد.

«ولا تعد عيناك عنهم» تعالج نزوع القلب إلى استبدال أهل الصدق بأهل الزينة لمجرد المكانة. في العصر الرقي قد تكون العين هي قائمة المتابعة: من يمنحك معيار القيمة؟ من يجعل العبادة تبدو عرضاً؟ ومن يعيدك إلى واجبك من غير ابتزاز؟ اختيار ما تراه كل يوم صورة من اختيار الصحبة.

ولا يكفي أن نطلب صاحباً يذكرنا بالله؛ علينا أن نكون كذلك. لا نثقل الآخرين باللوم، ولا نتبع أحوالهم، ولا نستعمل أسرارهم مادة للنصيحة العامة. التذكير الخاشع يعرف وقته وخصوصيته، ويترك للآخر مساحة القرار بعد البيان.

تطبيق: يرسم المرء ثلاث دوائر: شخص يسأله في العلم، وشخص يشاركه عادة خيرة، وشخص يأمنه على ضعفه. قد تجتمع في واحد وقد تفرق. ثم يحدد تواصلاً واقعياً يحفظ الصلاة أو القراءة أو الحق. وإذا وجد صحبة تجره إلى معصية متكررة قلل طريقها بوضوح من غير تشهير. الصحبة سبب، والهداية من الله، والمسؤولية لا تنتقل من قلب إلى آخر.

65 | تلين الجوارح

وصف الله أثر كتابه في الذين يخشون ربهم: تقشعر جلودهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله [الزمر: 23]. اللين انتقال من انقباض الخشية إلى سكون الذكر، ولا يقتصر أثره على انفعال البدن. إذا رق القلب كان أولى أن يكف اللسان واليد عن الأذى، وأن يحمل القوة على العدل.

ولا تُقرأ القلوب من علامة واحدة. قد يبكي إنسان ولا نعلم حقيقة باطنه، وقد لا يظهر الدمع ويصدق أثر العبادة في أمانته. لذلك يراقب العبد مجموع سلوكه: هل هدأ غضبه؟ هل صار أرحم بالضعيف؟ هل رجع إذا أخطأ؟ هذه أسئلة محاسبة، لا أحكام على الناس.

قال تعالى: {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: 23]. واللين لا يساوي ترك الحق أو العجز عن القرار؛ إنما يخرج القلب من القسوة التي لا تتأثر بوعد ولا وعيد. فإذا لان القلب هدأ اللسان عن الفحش، وكفت اليد عن الأذى، وصار الحزم أعدل وأبعد عن التشنفي.

ولا يصح أن نجعل مظهراً واحداً دليلاً قاطعاً على باطن إنسان. قد يبكي أحد ولا يكون البكاء علامة كمال، وقد لا يبكي آخر ويظهر خشوعه في استقامة وعفة وأداء أمانة. الثمرة تقرأ في مجموع

السلوك، لا في لقطة عابرة. لذلك يراجع العبد جوارحه بعد العبادة: هل ردت الصلاة غضبه إلى العدل؟ هل منعه من كلمة جارحة؟

لين الجوارح يبدأ بكف الأذى

من السهل أن يفهم لين الجوارح على أنه هدوء الحركة والصوت فقط، مع أن أول ثمراته أن يأمن الناس من الأذى. قد تكون حركة المصلي ساكنة ثم يخرج لسانه جارحاً، أو يده متعدية، أو حكمه جائراً. سورة الزمر 23 تربط لين الجلد والقلب بذكر الله؛ والتطبيق التربوي يطلب من هذا اللين أثراً في السلوك، من غير أن نجعل تصرفاً واحداً شهادة نهائية على باطن صاحبه.

واللين لا يلغي القوة المشروعة. رب أسرة يحتاج إلى قرار، ومدير يحتاج إلى محاسبة، ومظلوم يحتاج إلى طلب حقه. الفرق في العدل والنية والطريقة: لا يتلذذ بالإهانة، ولا يزيد العقوبة لأنه غضب، ولا يجعل السلطة باباً لتفريغ ما في نفسه. وإذا أخطأ رجع؛ فالرجوع ثمرة لين أيضاً.

ومن أنفع المحاسبة أن يبدأ بالأذى المتكرر الصغير: نبرة احتقار، مقاطعة، تأخير حق، أو عبوس دائم في وجه من لا يملك دفعه. إصلاح هذه الأمور قد يكون أصدق من البحث عن مشهد مؤثر

جديد. الخشوع الذي لا يقترب من مواضع الأذى يبقى محتاجاً إلى امتحان.

قال تعالى: {ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: 23]. اللين المذكور استجابة للوحي بعد الوجل، وليس ذوباناً يلغي التمييز بين حق وباطل. فقد يلين القلب فيرحم، ويزداد في الوقت نفسه ثباتاً على حكم الله. ومن هنا لا تُقاس ثمرة الخشوع بانخفاض الصوت دائماً أو بالعجز عن المواجهة؛ فقد يكون الواجب نصحاً واضحاً، أو منع ظلم، أو رد أمانة، ويكون الخشوع في عدل الأداء ونقاء القصد.

أما الجوارح فتترجم ما استقر بوجوه متعددة: يد تكف عن العدوان، ولسان يترك الفحش، وعين تنصرف عن الحرام، وقدم تمضي إلى حق. هذه العلامات أبطأ من الانفعال وأصدق بقاء. ولا يملك الإنسان أن يشهد لنفسه بكمال الباطن بسببها، لكنه يملك أن يتخذها مجال مراجعة. فإذا كثرت الصلاة وبقي الأذى على حاله، فالسؤال الصحيح ليس: لماذا لم أبك؟ بل: ما الذي لم يصل من معاني الصلاة إلى خلقي وقراري؟

لين الجوارح ليس رخاوة الإرادة

إذا خشع القلب ظهرت آثاره على الجوارح بقدر، كما يلخص موضع ابن رجب في «الذل والانكسار للعزیز الجبار» موضع:

«وأصل الخشوع...». لكن اللين لا يعني ضعفاً عن قول الحق أو أداء العمل. قد يكون الخاشع حازماً في أمانة، سريعاً في نجدة، ثابتاً أمام باطل، لأن سكونه لله حرره من رد الفعل لنفسه. والاختبار عند الاستفزاز: هل تنخفض حركة الجسد والصوت بما يسمح للحق أن يظهر، أم يندفع المرء ثم يسمي اندفاعه غيره؟ اللين أن يملك الاستجابة، لا أن يسقط الحدود. وفي البيت والعمل يظهر قبل المسجد: يد لا تؤذي، وصوت لا يهين، ومشية لا تتكبر. الجارحة الخاشعة أداة طاعة قوية، لا جسداً منزوع الإرادة. خشوع الجارحة في الصلاة سكون واتباع، وخارجها يظهر في يد لا تبطش ولسان لا يجرح وعين لا تتجسس. لا يكفي أن تلين الحركة أمام الناس ثم تشتد في البيت حيث يقل الجمهور. ليس اللين ضعفاً أمام الظلم. قد يمنع الإنسان أذى بحزم، لكن لا يتجاوز. الفرق في الحق والمقدار والقصد. الجارحة الخاشعة أداة طاعة، لا أداة صورة. ومن الخطأ الحكم على أصحاب الإعاقات أو الحركات اللاإرادية من ظاهرهم. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والقلوب لا تراها العيون. الأدب أن نحفظ لهم مكانهم ونتعلم الأحكام التي تيسر عبادتهم.

التطبيق بعد الصلاة مراقبة جارحة واحدة في موقف معلوم: اليد عند الغضب، أو اللسان في النقاش. إذا كف أذى فقد ظهر أثر، وإذا أخطأ تاب. لا يدعي الكمال.

الثمرة تبدأ بمقاومة الوسواس

تعد «أعمال القلوب» في مبحث «ثمرات الخشوع»، من ثمرات الخشوع طرد وساوس الشيطان، والرفعة، والفلاح، ومحاسن الأخلاق، وردَّ العبد إلى حكم العبودية، وتفاوت قيمة الأعمال. وهذه الثمرات لا تعطى بوصفها ضمانات عاجلة لكل شعور؛ هي اتجاهات يثمرها صدق العبادة مع الزمن.

أولى الثمرات أن يعرف القلب كيف يعود. ليس النجاح أن لا يطرأ خاطر قط، بل أن لا يسلم له القيادة. كل عودة هادئة من الشroud تدريب على الحرية من المثير الأقوى. ويتجاوز أثرها الصلاة: يقل اندفاعه خلف التنبيه والرغبة والغضب، لأنه تعلم أن وجود الدافع لا يوجب طاعته.

ثم تلين الجوارح بمعناها الأخلاقي. لا يقتصر اللين على خفض الرأس، بل يظهر في كف الأذى، وضبط اليد، وإعطاء الطريق والبيت والعمل حقها. وقد يحتاج الموقف حزمًا، اللين لا يلغي القوة، بل يمنع أن تتحول القوة إلى تشف أو استعلاء.

ولا يقيس العبد الثمرة بيوم واحد. ربما بقيت عادة قديمة تحتاج علاجاً طويلاً، وربما رأى تحسناً ثم نكس. ينظر إلى المسار: هل صار أسرع رجوعاً؟ أقل دفاعاً عن الخطأ؟ أصدق في الخلوة؟ هذه العلامات لا تمنحه حكم القبول، لكنها تعينه على شكر النعمة ومعرفة موضع العمل.

66 | تقل المعصية في الخلوة

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [المالك: 12]. حين تغيب أعين الناس يبقى علم الله، وتظهر جهة القلب من غير زينة الصورة. ومن ثمرات الخشوع أن يضيق العبد منافذ المعصية الخفية ولا يصلحها.

لا يعني الوقوع في ذنب أن الطريق انتهى؛ الواجب توبة صادقة وإصلاح السبب بقدر الاستطاعة. قد يحذف منفذاً، أو يغير وقتاً، أو يطلب عوناً مأموناً. استحضر المراقبة بلا سبب عملي قد يضعف، والسبب بلا توبة قد ينقل المشكلة؛ واجتماعهما أقرب إلى صدق المجاهدة.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [المالك: 12]. الخلوة تكشف جهة القلب؛ إذ تسقط رقابة الصورة ويبقى علم الله. وليس المقصود أن من وقع في ذنب خفي لا خشوع له أبداً، بل أن ثمرة الخشوع تدفعه إلى تضيق منافذ الذنب وسرعة التوبة وعدم المصالحة معه.

والعلاج يجمع بين القلب والسبب: استحضر نظر الله، وحذف المنفذ، وتغيير الوقت أو المكان، والاستعانة بمن يحفظ السر إن احتيج إلى محاسبة مأمونة. الوعظ الذي يترك الباب مفتوحاً يحمل

الإرادة وحدها ما لا تحتمل. والسبب بلا توبة قد ينقل المشكلة ولا يشفيها.

الخلوة ليست شاشة فقط

يكثر الحديث عن معاصي الخلوات في الأجهزة، وهي باب ظاهر، لكن الخلوة أوسع: مال لا يراك صاحبه، وأمانة تستطيع إخفاءها، وكلمة تكتبها باسم مستعار، وحكم تصدره وأنت آمن من الاعتراض. خشية الغيب في الملك 12 تربي مراقبة لا تتعلق بمكان واحد. كلما غاب نظر الناس ظهر سؤال: من الذي أطيعه حين لا يشهدني إلا الله؟

والعلاج لا يقوم على التخويف وحده. يحتاج إلى إغلاق الطريق، وملء الفراغ بالمباح النافع، ومعرفة الأوقات التي يضعف فيها المرء. وقد يحتاج إلى مختص أو رفيق أمين إذا تحولت العادة إلى إدمان أو ضرر متكرر؛ طلب المساعدة لا ينافي التوبة ولا التوكل. ولا يوعد بنتيجة نفسية أو علاجية بغير علم.

وإذا وقع الذنب فلا يحوله الشيطان إلى هوية: «أنا لا أصلح». يفرق بين إدانة الفعل والحكم على المستقبل. يبادر إلى التوبة، ويعيد بناء الحاجز، ويتعلم من منفذ السقوط. بقاء الندم والمقاومة خير من مصالحة الذنب، ولا يزكي الإنسان نفسه لمجرد أنه خفي عن الناس.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [المالك: 12]. يبرز في الغيب معنى مراقبة الله حين لا يتوقع العبد مدحاً ولا لوماً من البشر. لذلك تكون الخلوة موضع بناء لا موضع افتضاح فقط: يثبت فيها على فرض، ويترك فيها محرماً، ويعمل خيراً لا يعرفه الناس. ولا يُطلب منه أن يفتش عن خفايا غيره؛ الآية تربيته على خشيته هو، لا على ادعاء كشف السرائر. وللوقاية من معصية الخلوة جانب إيماني وجانب عملي. يذكر علم الله ويستحضر الحساب، ثم يضع حواجز واقعية: يغير وصوله إلى المادة المحرمة، ويقطع الوقت الذي تتكرر فيه الفتنة، ويطلب مساعدة أمانة عند الحاجة. وإذا زل لم يجعل السر حجة على الاستمرار، بل يبادر بالتوبة ويعيد بناء الحاجز. الخشوع لا يجعل الإنسان معصوماً، لكنه يمنع قلبه من الاطمئنان إلى المعصية ومن تحويلها إلى نظام خفي دائم.

الخلوة تكشف لمن كان السكون

حين يغيب الجمهور يسقط كثير من دوافع الصورة. لذلك تكون الخلوة موضع فحص للإخلاص لا موضع أمن من الحساب. يقرر صحيح مسلم 2564c أن نظر الله إلى القلوب والأعمال، فلا تكفي هيئة أمام الناس ولا دعوى باطن بلا فعل. إذا تحسنت الصلاة

في العلن وتهاون بها صاحبها وحده، وجد سؤالاً يستحق الإصلاح.

لا يعالج ذلك بإسقاط العمل العلني، بل بإضافة طاعة خفية صغيرة وحفظ الواجب في الخلوة. وقد تكون ترك معصية لا يعلم بها أحد أصدق تدريب؛ يغلق الباب الذي يقدر على فتحه لأنه يعلم نظر الله. ولا يخبر الناس بما فعل طلباً لتوثيق صلاحه. ثم إذا زل تاب سريعاً، فلا يحول السر إلى سجن يبعده عن الرحمة.

يحتاج القلب إلى خلوة يسمع فيها، وإلى جماعة يعبد الله معها ويؤدي حقوقها. الخلوة وحدها قد تخفي عيوب المعاملة، والجماعة وحدها قد تشتت صاحبها أو تغذي صورته. لذلك نثكاملان: يصلح سره ثم يخرج رحيماً أميناً، ويخالط الناس ثم يعود يستغفر مما علق به.

لا يحدد الكتاب مقداراً واحداً للناس؛ تختلف الأحوال والواجبات. لكن الميزان أن لا تهدم الخلوة حقاً، ولا تهدم المخالطة فريضة. من صدق خشوعه لم يجعل سكينته امتيازاً يطلب الجميع بحمايته، بل تعلم أن يحمل منها ما يعينه على خدمة من حوله. حين يغيب الناس يبقى علم الله. الخشوع الذي يعتمد على الجمهور يضعف في الخلوة، أما من عرف ربه استحيًا وخاف ورجا. لا يعني ذلك أن المؤمن لا يزل؛ يعني أنه لا يجعل غياب الخلق إذناً دائماً.

وقد تقع الخلوة في الهاتف أكثر من المكان. شاشة صغيرة تفتح ما لا يراه أهل البيت. العلاج يجمع مراقبة الله وحواجز عملية: تصفية، ومكان مفتوح، ووقت محدد، ومحاسبة أمينة. السبب لا يخلق التقوى لكنه يحميها.

إذا وقع الذنب ستر نفسه وتاب ولم يحوله إلى قصة عامة ولا إلى هوية يائسة. وقد يحتاج أن يطلب عوناً من شخص موثوق من غير تفاصيل تفتح باباً آخر. لكل حالة فقهها.

التطبيق تحديد خلوة واحدة يتكرر فيها الضعف ووضع حاجز قبلها. ثم دعاء واستغفار وعمل صالح. لا ينتظر الخشوع في الصلاة بينما يغذي نقيضه في السر.

67 | يهدأ طلب المدح

حكى القرآن قول الأبرار في إطعامهم أنهم لا يريدون جزاءً ولا شكوراً من الناس [الإنسان: 9]. والخشوع يعيد العمل إلى هذه الجهة: قبول الله لا تصفيق الخلق. قد يفرح الإنسان بثناء عارض، لكن الخطر أن يصبح الثناء شرط استمراره أو سبب مضاعفة العمل.

يعالج القلب بعمل خفي حين يكون الإخفاء أصلح، وبمراجعة باعته حين يظهر الخير لمصلحة. لا يترك تعليماً نافعا لمجرد خوف مجمل من الرياء، ولا يعرض كل طاعة ليطمئن إلى صورته. يسأل نفسه برفق: هل أبقى على العمل لو غاب اسمي؟ ثم يستعين بالله ويمضي، من غير تزكية ولا شلل.

طلب المدح قد يدخل من باب صالح: تعليم، أو صدقة، أو كلمة نافعة، ثم يتحول نظر القلب من قبول الله إلى استجابة الناس. الخشوع يعيد مركز الثقل؛ يرى العبد عمله ناقصاً، ويعلم أن الناس لا يملكون له قبولاً عند الله. ولهذا لا يضطرب كلما غاب الثناء، ولا يضاعف العمل لمجرد أن العيون حضرت.

ولا يلزم من ذلك إخفاء كل خير؛ فقد تكون المصلحة في إظهاره أو التعليم به. الميزان هو الغاية وطريقة الأداء. يسأل العبد نفسه: هل كنت سأفعل هذا لو لم يعرف اسمي؟ وهل أحزن

لقوات النفع أم لقوات الذكر؟ هذه أسئلة محاسبة لا أحكام على البواطن. والعمل الخفي دواء، لكنه لا يمنح صاحبه شهادة إخلاص.

طلب القبول أوسع من طلب الإعجاب

قد يهدأ طلب المدح الظاهر ويبقى طلب صورة أدق: أن يُعرف الإنسان بأنه لا يطلب المدح. النفس تستطيع أن تصنع من التواضع مقاماً للثناء، ومن إخفاء العمل قصة تروى لاحقاً. لذلك لا يكفي تغيير المشهد الخارجي، بل يسأل العبد عن الجهة التي يريد بها بعمله، ويستعيد بالله من فساد القصد من غير وسواس يفكك كل نية.

ليس المطلوب أن يفتش المرء قلبه حتى يعجز عن كل عمل. يبدأ مستعيناً بالله، ويصحح نيته إذا لاحظ التفاتها، ويكمل الخير. ترك العمل خوفاً من الرياء قد يكون باباً آخر من مداخل النفس، كما أن إظهاره بلا حاجة قد يفتح باباً. الحكم يختلف باختلاف العمل والمصلحة، ولا تصنع قاعدة واحدة لكل الأحوال.

ومن ثمرات الخشوع أن يصبح القبول أهم من التصفيق. لا يستطيع العبد أن يجزم بقبول عمله، ولذلك يجمع بين الرجاء والخوف، ولا يحول قلة تفاعل الناس إلى حكم على قيمة الطاعة.

قد يشكرهم على كلمة طيبة، لكنه لا يبيع اتجاهه لها. هذه محاسبة داخلية لا تبيح اتهام نيات الآخرين.

جاء في صحيح مسلم 1905a حديث أول من يقضى عليهم يوم القيامة، وفيه التحذير الشديد ممن عمل ليقال عنه ما يجب. دلالة الحديث هنا أن صورة العمل الكبيرة لا تغني إذا انحرف القصد. لذلك فقلة طلب المدح ليست زهداً في نفع الناس، بل تحرير للعمل من أن يصبح استفتاءً دائماً على قيمة صاحبه. قد يفرح المؤمن بوصول الخير أو بكلمة تشجيع، لكن الخطر أن يصير الثناء شرطاً للاستمرار.

والدواء لا يكون بالانسحاب من كل عمل ظاهر؛ التعليم، والإمامة، والإدارة، والدعوة أعمال يراها الناس. إنما يكون بتجديد النية، وحفظ نصيب خفي من الطاعة، وقبول أن ينسب الفضل إلى غيره إذا حصل المقصود. ويختبر نفسه عند غياب اسمه: هل يواصل خدمة الحق؟ وعند النقد: هل يبحث عن الصواب أم عن استرداد صورته؟ هذه المراجعة لا تمنحه حكماً قاطعاً على إخلاصه، لكنها تكشف مواضع تحتاج علاجاً. والخاشع يخاف على عمله مع حسن ظنه بربه، فلا يأمن ولا يقنط.

المدح معلومة لا غذاء القلب

لا يملك الإنسان منع كل فرح بكلمة طيبة، لكن يمكنه منعها من أن تصبح شرطاً للاستمرار. يحذر صحيح مسلم 1905a من أعمال عظيمة قصد بها السمعة، فيتأكد أن حجم العمل لا يصحح فساد المقصد. والدواء ليس رفض كل شكر بخشونة؛ يقبله بأدب ويرد الفضل إلى الله، ثم يراجع مساره.

الاختبار أن يؤدي عملاً لا يظهر اسمه فيه، أو أن يستمر في خير حين ينقطع الثناء. إذا هبط حماسه عرف أن للقلب نصيباً يحتاج مجاهدة، ولم يحكم على كل عمله بالبطالان. يجدد القصد أثناء الطريق؛ فالإخلاص ليس لحظة بداية تنتهي، بل عودة متكررة من الجمهور إلى الله.

الإنسان يحب أن يرى أثر عمله، وقد يفرح بثناء صادق. المشكلة حين يصير الثناء شرط استمرار العبادة أو مقياس القبول. الخشوع يرد القيمة إلى علم الله، من غير أن يطالب الإنسان بكرامية كل كلمة طيبة.

قد يخف الرياء بإخفاء العمل الممكن، وقد يكون العمل علنياً بطبيعته كالتعليم والإمامة. هنا يجاهد القصد ولا يترك الواجب. وإذا جاء المدح خاف من الفتنة وشكر الله واستعمل المعلومة إن كانت نافعة.

ولا يدعي أنه لا يبالي بأحد؛ هذه دعوى قد تخفي كبراً. يقبل
نصح الناس ولا يعبد رأيهم. يفرق بين تغذية الصورة وبين معرفة
أثر العمل لتحسينه.
التطبيق ترك إعلان عبادة لا حاجة لإعلانها، أو تأخير الحديث
عنها، وملاحظة ما يحدث في القلب. إذا حزن لغياب الثناء عرف
باب المجاهدة. لا يفضح نفسه ولا يطلب شهادة من الناس بأنه
مخلص.

68 | تحسن الصلاة

تعود ثمرة الخشوع إلى الصلاة نفسها: طمأنينة أبين، وعبث أقل، وفهم أوسع لما يقال، ورجوع أسرع بعد الشرود. هذه علامات يمكن ملاحظتها، لكنها لا تمنح صاحبها حكماً بقبول العمل ولا منزلة على غيره. التحسن درجات، وقد يتفاوت مع التعب والمرض والهمل.

تكفي مراجعة عائق متكرر بدل محاكمة كل خاطر. إن كان يعجل أصلح العجلة، وإن كان يجهل ذكراً تعلمه، وإن كان هاتفه يقطعه أغلقه. ثم يترك التفتيش المرهق الذي يفتح الوسواس. تكرر الصلوات فرص للتعلم، لا نسخاً متتابة من فشل واحد.

تحسن الصلاة لا يقتصر على زيادة الشعور؛ يظهر في الطمأنينة، وحفظ الأركان، ومعرفة ما يقال، وقلة العبث، والقدرة على العودة بعد الشرود. وهذه معايير أكثر عدلاً من مطاردة حال وجداني قد يقوى ويضعف. من تعلم الطمأنينة من حديث المسيء صلاته، وأصلح عجلته، فقد تقدم ولو لم يجد الانفعال الذي تخيله.

والمراجعة بعد الصلاة ليست محكمة قاسية. يذكر عائقاً واحداً بلا جلد للذات: تأخر، أو هاتف، أو معنى مجهول، ثم يهتئ سبب الإصلاح للصلاة التالية. أما تفتيش كل خاطر فقد يفتح

الوسواس ويشغل عن المقصود. الصلاة مدرسة يومية، وتكررها رحمة؛ كل فرض فرصة جديدة لا نسخة من الفشل السابق.

قياس التحسن بلا تحويل الصلاة إلى تجربة جافة

يمكن ملاحظة بعض التحسن: استقامة الأركان، وقلة العجلة، ومعرفة الأذكار، والرجوع الأسرع بعد الشرود. لكن الصلاة ليست اختبار إنتاجية، ولا ينبغي أن يقف المصلي بعد كل فرض لينح نفسه درجة. القياس خادم للإصلاح حين يكشف عائقاً، ويصبح عائقاً إذا شغل القلب بالنتيجة والصورة.

الأفضل أن تكون المراجعة خفيفة ومتباعدة بحسب الحاجة. إذا تكرر خلل واضح عاجله، وإذا كان الأمر مجرد تفاوت طبيعي في الشعور لم يطارده. وقد يكون اليوم الذي صلى فيه مثقلاً وحافظ على الفرض من أعظم أيام مجاهدته، وإن لم يجد انشراحاً. لا نزن العبادة بالشعور وحده، ولا نزعم معرفة قبولها.

وتحسن الصلاة يشمل الفقه؛ فقد يكون سبب الاضطراب جهلاً بحكم أو ذكر أو ركن. سؤال أهل العلم في موضعه جزء من الإصلاح. ولا يستحي المرء من تعلم ما ظنه بديهاً، حديث المسيء صلاته أصل في أن الخطأ يُعلم، وأن الطمأنينة ليست ترفاً وجدانياً بل من صفة الصلاة الصحيحة.

التحسن في الصلاة مسار معرفي وسلوكي. يبدأ بمعرفة الفرائض والطمأنينة والأذكار الثابتة، ثم بملاحظة العائق المتكرر. وقد يكون الخطأ في أصل الأداء لا في الشعور: عجلة تمنع استقرار الأعضاء، أو جهل بمعنى الفاتحة، أو شاغل اختير بإرادة المصلي. علاج هذه الأمور مقدم على مطاردة حالة وجدانية؛ لأن العبادة تبنى على العلم والاتباع، ثم يرزق الله القلب ما يشاء.

وتفيد المراجعة إذا كانت محددة ومختصرة. بعد الصلاة لا يعيد المصلي محاكاة كل لحظة، وإنما يلتقط أمراً قابلاً للإصلاح: موضعاً أسرع فيه، أو سبباً شغله، أو ذكراً يريد تعلم معناه. يكتبه إن نفعه ذلك، ويهيئ سببه للصلاة التالية، ثم يمضي إلى واجبه. أما الاستغراق في تحليل الخواطر فقد يصبح وسواساً جديداً. والفرق أن المراجعة تنتج قراراً صغيراً، بينما الوسواس يعيد السؤال من غير نهاية ولا ثمرة.

تحسن الصلاة يُرى في موضع الخلل

قد يقول المرء إن صلاته تحسنت لأنه وجد راحة، والراحة نعمة، لكنها ليست القياس الوحيد. حديث المسيء صلاته في صحيح البخاري 757 يضع علامات يمكن تعلمها: صحة الأركان والطمأنينة. وحديث السكينة في البخاري 636 يضيف حسن

الدخول. هذان أصلان ظاهران يقيان من تحويل التقييم إلى مزاج.

يختار المصلي خلاً معلوماً ويراقب إصلاحه: هل يستقر في الرفع؟ هل يأتي بلا جري؟ هل يتابع الإمام؟ ثم يترك قبول الصلاة لله. قد تتحسن الهيئة ويحتاج القلب زمناً، وقد يجد القلب رقة ويبقى حكم يجب تعلمه. الجمع بين الفقه والافتقار هو التحسن الآمن؛ لا شهادة ذاتية بالكمال ولا إهمال للعلامة الظاهرة.

من مؤشرات التحسن: حفظ الوقت، والطمأنينة، وفهم الذكر، وانخفاض الاسترسال، والعودة الأسرع، وأثر الصلاة في ترك منكر. هذه مؤشرات تعلم، لا أحكام قبول. قد تزيد المشاعر وقد لا تزيد.

القياس نفسه قد يصير فتنة إذا راقب الإنسان كل لحظة. لذلك يكون متباعدًا وبسيطًا، ويركز على سلوك يمكن رؤيته. لا يعطي نفسه نسبة خشوع ولا يقارن أرقامه بالناس.

وقد تتراجع الصلاة في أسبوع مرض أو حزن مع بقاء صدق العبد. يراعي الظرف ولا يترك الأصل. التقدم ليس خطأً مستقيماً، والرجوع بعد التراجع جزء منه.

التطبيق اختيار مؤثر واحد لشهر، كالدخول في الوقت أو إزالة الهاتف. إذا استقر انتقل إلى فهم ذكر. يطلب الاستمرار لا الإثارة.

التحسن لا يساوي دوام اللذة

النص الشرعي: لم تجعل سورة المؤمنون خشوع الصلاة وصفاً منفرداً؛ أحاطته بأعمال تحفظ علاقة العبد بربه وبنفسه وبالناس، ثم عادت في ختام الصفات إلى المحافظة على الصلوات [المؤمنون: 11-1]. هذا البناء يجعل التحسن أوسع من ارتفاع شعور اللذة داخل الركعة.

قد يتحسن المصلي لأن شروده صار أقصر، أو لأنه صار يعود بلا يأس، أو لأنه حفظ الوقت، أو رد حقاً كانت الصلاة تذكره به. وقد تمر عليه صلاة دافئة ثم لا يظهر لها أثر. لا نهمل الشعور الجليل، لكنه ليس المؤشر الوحيد ولا الأكثر انضباطاً. والقياس نفسه قد يفسد الخشوع إذا تحول إلى مراقبة قهرية. من يسجل كل خاطر وحركة قد يدخل الصلاة وهو يراقب أداءه بدل أن يعبد. لذلك يكون القياس خفيفاً وخارج الصلاة، وفي أشياء قابلة للملاحظة: الوقت، سبب شاغل متكرر، حق أدى، أو عادة تقلصت.

التحسن الحقيقي يقبل التذبذب. قد يتقدم أسبوعاً ويتراجع آخر بسبب مرض أو ضغط. المهم أن يعرف جهة الرجوع، وأن لا يحول التراجع إلى هوية. يراجع السبب ويعدل الخطئة، من غير أن يحو تاريخ المجاهدة أو يعلن بلوغ مقام.

كما ينبغي أن يبقى باب الشكر مفتوحاً. إذا وفقه الله لحضور أو طمأنينة لم ينسبها إلى عبقريته في التدريب، ولم يحتقر من لم يجدها. يشكر النعمة ويحفظها بالطاعة، ويعلم أن القبول غيب لا يملكه. وإذا لم يجدها لم يترك السبب ولا الدعاء. تطبيق: في نهاية الأسبوع يجيب عن أربعة أسئلة فقط: هل حفظت الفرض؟ ما الشاغل الذي قل؟ ما الحق الذي خرج معي من الصلاة؟ وما السبب الواحد الذي سأعدله؟ لا يمنح نفسه درجة، ولا ينشر السجل. المقصود التعلم، لا بناء صورة ذاتية جديدة باسم الخشوع.

69 | يعظم القرآن

القلب الخاشع لا يجعل القرآن خلفية صوتية لحركة لا تنتهي. يسمع أمره ووعدده ووعيدده وأسماء ربه، ويعرف أن التعظيم لا يكتمل بحسن الصوت وحده. في الإسراء 107-109 يقود العلم بالوحي إلى السجود والتسبيح وزيادة الخشوع؛ فالاستجابة من ثمرات المعرفة.

ومن التعظيم أن يطلب معنى الآية من تفسير موثوق، وألا ينسب إلى الله خاطراً شخصياً. يقرأ قدراً يستطيع فهمه، ويطفىء ما يمكن من المشتتات، ثم يبحث عن موضع عمل: حق يؤديه أو نهى يجتنبه. كثرة التلاوة فضل، والعمل بما اتضح يحفظها من أن تصبح عادة بلا أثر.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا} إلى قوله: {ويزيدهم خشوعاً} [الإسراء: 107-109]. الآيات تربط العلم بالسجود والتسبيح وزيادة الخشوع؛ فالمعرفة التي لا تحرك عبودية تبقى ناقصة الثمرة. وليس المقصود تكلف البكاء، بل استقبال الوحي بوصفه خطاب هداية لا مادة صوتية عابرة.

وتعظيم القرآن يظهر في الوقوف عند أمره ونهيه، وفي الرجوع إليه عند النزاع، وفي صيانة التلاوة من الامتهان. قد تكون البداية

بآيات قليلة يفهمها القارئ ويعمل بها. كثرة الصفحات فضل، لكن السرعة التي تترك القلب خارج النص لا تحقق وحدها مقصد التدبر. وكلها صعب الفهم رجع إلى تفسير موثوق، ولم يجعل خاطره الشخصي معنى ملزماً للآية.

تعظيم القرآن يحفظ حدوده في الفهم

من تعظيم القرآن ألا ينسب إليه القارئ كل خاطر مر به عند التلاوة. قد يفتح له معنى تربوي صحيح في نفسه، لكنه يميزه عن تفسير الآية وعن مراد الله الجازم. يرجع في المعنى إلى تفسير موثوق، وينظر في السياق، ولا يقتطع لفظاً ليبنى عليه وعداً شخصياً أو حكماً على غيره. هذا الضبط لا يطفئ التدبر؛ بل يحميه من أن يصبح حديث النفس باسم الوحي.

ويظهر التعظيم كذلك في العمل بما اتضح. إذا قرأ عن الأمانة وهو يؤخر حقوق الناس، فباب التدبر الأقرب أداء الحق. وإذا قرأ عن اللسان فبدأ بغيبة يعرفها، كان أثر القراءة أصدق من كثرة الخواطر. الآيات في الإسراء 107-109 تعرض علماً يقود إلى السجود والتسبيح وزيادة الخشوع؛ ووجه الاستدلال هنا أن المعرفة المثمرة تستجيب، لا أن كل قارئ يلزمه المظهر نفسه.

ومن الأدب ألا يجعل القرآن خلفية لصخب لا يسمعه فيه، وألا يقطع التلاوة لكل تنبيه يمكن تأجيله. لكن أحوال الناس

تختلف، وقد يقرأ الوالد بين حاجات أبنائه أو العامل في فسحته. المقصود بذل الوسع في الحضور، لا احتقار القراءة القليلة ولا اشتراط عزلة لا يملكها الجميع.

وصف الله أثر الوحي فقال: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: 23]. فالقرآن يحدث خوفاً ورجاءً وهداية، لكن الثمرة لا تُحتزل في الإحساس الجسدي؛ آخر الآية يرد الأمر إلى ذكر الله وهدايته. قد يتأثر قارئ ولا يبكي، وقد يبكي آخر، وكلاهما مأمور بالعمل.

وتعظيم القرآن يجمع صيانة اللفظ وصحة الفهم وامتنال الحكم. يقرأ القارئ بتؤدة ممكنة، ويراجع تفسيراً موثقاً، ويميز بين النص وما يستنبطه منه. ثم يسأل: ما الأمر أو النهي أو الوعد الذي ينبغي أن يغير قراره؟ لا يتكلف استخراج تكليف خاص من كل آية، ولا يجعل التدبر باباً لإحداث معان بلا علم. يكفي أحياناً أن يرد مظلمة لأن آية ذكرته بالعدل، أو يثبت على طاعة لأن الوعد أعاد إليه الرجاء. هكذا ينتقل التعظيم من المصحف إلى السلوك من غير ادعاء.

عظمة القرآن تظهر في حقه عليك

تعظيم القرآن لا يقاس بزينة المصحف أو جمال الصوت وحدهما. في صحيح البخاري 5050 بلغ السماع بالنبي ﷺ إلى الدمع عند آية الشهادة، والآية نفسها تحمل مسؤولية. من عظم القرآن صدق خبره، واثمر بأمره، ووقف عند نهيه، ورجع إلى أهل العلم فيما أشكل.

والاختبار عند آية تخالف عادة محبوبة: هل يبحث القارئ عن مخرج يحفظ عادته قبل أن يفهم الحكم، أم يدخل بقلب قابل للحق؟ لا يعني القبول إلغاء السؤال؛ يسأل ويتعلم، لكن غايته الهداية لا الغلبة. وقد يبدأ التعظيم بحفظ المصحف من الامتihan، ثم يكتمل بحفظ حدوده في اللسان والمال والنظر. الصوت باب، والامثال ثمرة.

قد يجود القارئ الصوت ويتأثر السامع، وهذا خير إذا صح وأخلص، لكن التعظيم يكتمل حين يقبل القلب حكم القرآن في الموضع الذي يخالف هواه. السجود والتسبيح والبكاء في [الإسراء: 107-109] جاء مع العلم وتصديق وعد الله.

لا يطالب كل قارئ بأثر جسدي واحد، ولا يجعل جمال الأداء بديلاً عن الفهم. كما لا يحتقر التلاوة الحسنة؛ هي وسيلة شريفة إذا خدمت الكلام ولم تستعرض صاحبها.

ومن التعظيم ألا يقتطع الآية لتزيين رأي، وألا يغير لفظها، وألا ينسب تفسيراً بلا علم. التحقيق القرآني جزء من الخشوع للكلام. التطبيق عند آية حكم أن يسأل عن معناها وسياقها قبل استخدامها، ثم يراجع موقفه. إذا لم يعلم سكت وسأل. الصمت المؤقت خير من جرأة مزينة بالمشاعر.

70 | ترق المعاملة

قال الله لنبيه ﷺ: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159]. اللين رحمة، ولا تستقيم دعوى قلب قريب من الله مع الإقامة على إذلال الناس. وأقرب ميادين الاختبار البيت والعمل ومن لا يملك الرد. لا يعني الرفق إسقاط الحقوق. يستطيع الإنسان أن يصحح ويمنع ويطلب، لكن بلا تشف ولا تحقير. وقد يكون أول أثر للصلاة أن يعيد كلمة قاسية، أو يعتذر، أو يؤدي حقاً آخره. هذه أفعال صغيرة في ظاهرها، لكنها تكشف انتقال العبادة من المصلى إلى المعاملة.

قال تعالى لنبيه ﷺ: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159]. لا تستقيم دعوى قلب خاشع مع استدامة الغلظة على الأهل والضعفاء. وقد يكون الإنسان هادئاً في المسجد ثم سريع الأذى إذا خولف؛ هنا تظهر الحاجة إلى نقل أثر العبادة من الهيئة إلى الخلق.

والرفق لا يسقط الحدود ولا الحقوق. قد يقول الخاشع «لا»، ويطلب بحق، ويصحح خطأ، لكنه يفعل ذلك بلا تحقير ولا انتقام. يختار كلمة أدق، ويعطي المخطئ فرصة للفهم، ويعتذر إذا

تجاوز. هذا الامتحان اليومي أصعب من لحظة انفعال، ولذلك كان أصدق في كشف الأثر المتبقي.

رقة المعاملة تبدأ بالأقربين

قد يسهل على الإنسان أن يرفق بمن يراه قليلاً، ويصعب عليه أن يحفظ لسانه مع من يشاركه البيت والعمل كل يوم. هناك تسقط الزينة وتظهر العادة. فإذا أراد أن يختبر أثر الصلاة، فلينظر في أمان أهله من غضبه، وفي إنصاف زميله، وفي طريقته مع العامل ومن دونه قوة. لا نطلب صورة كاملة، بل اتجاهًا صادقًا وإصلاحًا مستمرًا.

وقوله تعالى في آل عمران 159 يبين أثر اللين في اجتماع الناس حول النبي ﷺ، مع الأمر في الآية بالعفو والاستغفار والمشاورة. فلا يُخْتزل اللين في نبرة هادئة؛ قد يصحبها استبداد. الرفق الأقرب إلى المعنى يسمع ويشاور ويعفو في موضع العفو، ولا يترك الحق في موضع يجب فيه البيان. وهذا تلخيص لوجه الاتصال بالموضوع، لا ادعاء استيفاء تفسير الآية.

ومن العلاج أن يؤخر الرد حين يغضب إن لم يترتب على التأخير ضرر، وأن يعيد صياغة كلمة كان يمكن أن تؤذي، وأن يعتذر بلا التفاف. ليست هذه أذكراً محددة ولا سنناً عددية؛ إنها وسائل

أخلاقية يختار منها ما يصلح لحاله. ثمرة الخشوع أن يزداد العبد عدلاً ورحمة، لا أن يطالب الناس باحترام حاله وهو يؤذيهم. في صحيح مسلم 2581 وصف المفلس بأنه يأتي بأعمال ثم تكون عليه مظالم في الناس، وفي صحيح البخاري 6018 الأمر بترك أذى الجار وقول الخير أو الصمت وإكرام الضيف. يضع الأهلان ميزاناً يمنع فصل العبادة عن المعاملة. ليست كثرة الصلاة رخصة في جرح الناس أو أكل حقوقهم؛ بل الخشوع الصادق يزيد حساسية القلب للظلم، ويجعله أسرع إلى الاعتذار والرد والإصلاح.

ولهذا تكون مراجعة الخلق جزءاً من برنامج الخشوع. يختار المرء حقاً محدداً أهمله: ديناً يؤخره مع القدرة، أو قريباً يقطعه، أو كلمة يكرر بها الأذى، ثم يصلحه. ولا يعلن قائمة إصلاحاته ليثبت صلاحه؛ يكفي أن يؤدي الحق. وإذا احتاج إلى حزم في معاملة لم يخلطه بالإهانة. فالرفق ليس تنازلاً عن الواجب، والعدل ليس قسوة. وأشد مواضع الامتحان من لا يملك الرد: صغير، أو عامل، أو محتاج؛ هناك يظهر هل هذبت السجدة سلطان النفس.

رقة المعاملة لا تختار المريح فقط

يظهر حسن الخلق سهلاً مع الموافق، ويصعب مع من يطالب بحق أو يخالف رأياً. أمر القرآن بالقول الأحسن [الإسراء: 53]،

وجعل عباد الرحمن إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً [الفرقان: 63]. ليس في ذلك قبول الظلم أو ترك البيان، بل منع الشيطان من تحويل الخلاف إلى عدوان.

يختبر المرء خشوعه في أول كلمة بعد الاستفزاز: هل يسمي الفعل بلا إهانة الشخص؟ هل يسمع قبل الرد؟ هل يعتذر إذا بان خطؤه؟ وقد يحتاج إلى حزم أو شكوى نظامية، فيفعلها من غير تشف. الرقة التي لا تظهر إلا مع الضعيف ليست ثمرة كاملة؛ واللين الذي يضيع حقاً ليس حكمة. المعاملة الخاشعة تجمع الرحمة والعدل.

ليس كل أثر وجداني ثمرة مكتملة. قد يرق القلب ولا يعرف صاحبه ماذا يفعل، وقد يعرف الحق ولا يملك في لحظته قوة كاملة على أدائه. ووظيفة التربية أن تصل الأثر بالحق خطوة خطوة. لذلك ينفع أن يسأل المرء سؤالين: ما الدليل؟ وما العمل الممكن؟ الأول يحرس الخشوع من الخرافة، والثاني يحرسه من الاكتفاء بالانفعال.

وحين يكون العمل حقاً للناس لا يصح تأجيله بحجة بناء القلب. رد المال والاعتذار وترك الأذى واجبات أو حقوق بحسب مواضعها، والخشوع يعين عليها ولا يستبدلها. وقد يكون أول طريق القلب أن يفعل العبد ما أمر به وهو يجاهد قسوته، ثم تفتح

الطاعة باب الفهم واللين. لا ينتظر شعوراً كاملاً كي يطيع، ولا يزعم أن الحركة الظاهرة وحدها أغنته عن إصلاح الباطن.

قد يكون المرء هادئاً في المسجد سريع الغضب في البيت. لا يعني ذلك بطلان كل خير، لكنه يكشف فجوة يجب ألا تجمل. الصلاة التي تذكره بالله ينبغي أن تعود معه إلى أضعف من حوله. الرفق لا يمنع وضع حدود أو تأديباً مشروعاً أو مطالبة بحق. الفرق في العدل والطريقة والمقدار. الخشوع يقلل حب الانتصار للنفس، فيستطيع صاحبه أن يتوقف عند الحق.

وفي العمل تظهر الرقة في احترام وقت الناس ومالهم، لا في الابتسام وحده. وفي الأسرة تظهر في الإنصات والاعتذار. وفي الطريق تظهر في كف الأذى.

التطبيق اختيار علاقة واحدة يكثر فيها التوتر، وربط صلاة معينة بكلمة ممنوعة: لا سخرية، لا رفع صوت، أو اعتذار عند الخطأ. هذه وسيلة تربية، لا نذراً ولا عبادة مخصوصة.

الخشوع ومحاسن الأخلاق

تربط «أعمال القلوب» في مبحث «ثمرات الخشوع»، الخشوع بمحاسن الأخلاق؛ فالمعنى الذي يخفض القلب لله ينبغي أن يخفف الكبر والفظاظة والظلم. هذه الصلة تمنع الفصل بين لحظة العبادة وطريقة معاملة القريب والبعيد.

الأخلاق هنا ليست زينة تضاف بعد اكتمال العبادة. إنها امتحان لما فهمه العبد من وقوفه بين يدي الله. من عرف فقره كان أقدر على الاعتذار، ومن عرف اطلاع الله كان أصدق في الأمانة، ومن رجا رحمته كان أرفق بالتائب، ومن خاف عدله لم يستعمل سلطته بلا حد.

لكن الثمرة لا تظهر في المواقف السهلة وحدها. قد يكون رقيقاً مع من يمدحه وقاسياً مع من يحتاجه، أو متواضعاً في المجلس ثم متعالياً في البيت. لذلك يبدأ القياس بالأقربين وبالمواضع التي يملك فيها قوة. لا يطلب شهادة الناس، بل يبحث عن حق محدد يصلحه. وإذا اكتشف تناقضاً لم يترك الصلاة حياءً من نقصه، ولم يتخذ الصلاة غطاءً له. يجمع بين العبادة ورد الحق. هذا الجمع هو الذي يجعل الخشوع بناءً لا مشهداً: يعود إلى الله، ثم يعود إلى الخلق بما أوجب الله.

71 | يزداد الافتقار

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15]. الفقر إلى الله لا ينتهي بتحسين العبادة؛ بل يظهر فيها أكثر. من وفق إلى حضور قلب علم أنه لم يملكه بنفسه، ومن ابتلي بالشroud عرف حاجته إلى المعونة.

لهذا يجتمع الحمد والاستغفار بعد الطاعة: حمد على التوفيق، واستغفار من النقص. ولا يقارن العبد قلبه بقلوب الناس، ولا يحتقر من يجاهد. كل فتح يزيد سؤال القبول، وكل ضعف يعيده إلى الباب، فلا يتحول الخشوع إلى مادة للعجب.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15]. الفقر وصف ثابت للعبد، لا مرحلة يتجاوزها بكثرة العبادة. وإذا ذاق شيئاً من الخشوع عرف أنه عطية تحتاج حفظاً وشكراً، لا ملكاً شخصياً يفاخر به. ولهذا يجتمع الحمد والاستغفار بعد الطاعة: يحمد على التوفيق، ويستغفر من النقص.

والافتقار يحمي من مقارنة القلوب. لا ينظر إلى غيره ليقرر أنه أخشع، ولا يحتقر مبتلي بالشroud، ولا ييأس من نفسه إذا ضعف. يسأل ربه الثبات ويواصل السبب. وكلما صلحت له صلاة عرف مقدار حاجته إلى قبولها. هذه ثمرة هادئة لا تحتاج إعلاناً.

الافتقار يحفظ القلب من عبادة التجربة

قد يتعلق طالب الخشوع بتجربة سابقة: ليلة بكى فيها، أو صلاة وجد فيها سكوناً، ثم يقضي عباداته التالية وهو يطارد النسخة نفسها. بهذا يتحول المقصود من عبادة الله إلى استعادة شعور. والافتقار يحمره: يعبد الله في الإقبال والإدبار، ويرجو الفتح من غير أن يشترطه، ويعلم أن ربه هو الغني الحميد وأنه الفقير في كل حال [فاطر: 15].

ولا يعني ذلك إهمال الأسباب التي نفعته؛ يمكنه أن يكرر التهيؤ والقراءة الهادئة وترك المشتت. لكنه لا يعتقد أن السبب يملك النتيجة، ولا ييأس إذا تخلف الأثر. قد تكون عبوديته في صلاة مجاهدة هي الصبر والوفاء، لا اللذة. ولا نجزم بمراتب الأعمال عند الله، وإنما نقرر أن التكليف لا يسقط بتفاوت الشعور.

ويظهر الافتقار بعد الطاعة في الاستغفار وعدم المن. لا يمين على أهله لأنه صلى، ولا يرى لنفسه منزلة على من يجاهد شروده. كل توفيق يزيده رحمة بالمتأخرين وخوفاً على نفسه. فإذا تحول ما وجده إلى كبر، علم أن باباً من الإصلاح ما زال مفتوحاً.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15]. لا ينتهي هذا الفقر بإتمام الصلاة؛ بل يظهر بعدها في طلب القبول والثبات. فالعبد لم يخلق توفيقه، ولم يضمن سلامة عمله من النقص، ولم يستغن عن الهداية التي سألها في كل

ركعة. لذلك لا يخرج من عبادة حسنة ليقارن نفسه بالناس، وإنما يحمد الله ويستغفره ويخاف على عمله من الآفات دون سوء ظن برحمة ربه.

ومن ثمرة الافتقار أن يتعامل مع الفتور بواقعية. إذا ضعف لم يقل إن الباب أغلق، ولم يخترع لنفسه مقاماً ثابتاً فقدّه؛ يعود إلى الفرائض والأسباب المعلومة. وإذا فُتح له لم يحوله إلى قصة تفوق. يحفظ النعمة بالكتمان حيث لا مصلحة في الذكر، وبالشكر، وبمواصلة القليل الدائم. وحين يرى مقصراً يدعو له وينصحه بحسب الحكمة، لأنه يعرف أن القلوب بين توفيق وابتلاء، وأنه محتاج إلى الله في اللحظة نفسها التي يقدم فيها النصيحة.

بعد أسابيع من التدريب قد تحسن الصلاة، فيتسلل اعتقاد أن الخطوة صنعت القلب. هنا يعود العبد إلى معنى الاستعانة في الفاتحة وإلى دعاء تزكية النفس في صحيح مسلم 2722: السبب مأمور به، والتوفيق من الله. لا يلغي ذلك التعلم، لكنه يمنع عبادة المنهج.

والاختبار حين نثعر الخطوة. إن قال المرء: «فقدت كل شيء» كان متعلقاً بصورة نجاحه؛ وإن رجع إلى الله وعدّل السبب واستمر عرف فقره. يشكر على الفتح ولا يزيكي نفسه، ويستغفر عند التقصير ولا يقنط. كل درجة من الخشوع تزيد رؤية الحاجة، لا الشعور بالاستغناء.

بين السبب والمنة

وقد يُساء فهم الأسباب التطبيقية، فيظن المرء أن ترتيب الهاتف أو تعلم المعنى أو التبكير ينتج الخشوع إنتاجاً حتمياً. وهذه أسباب نافعة، وليست مفاتيح تملك القلب. فإذا نفعت شكر الله، وإذا قصرت راجعها، وإذا استوفت وبقيت القسوة استمر في الدعاء والتوبة. فلا يُحتج بالقدر لترك السبب، ولا يُحتج بالسبب على رب القدر.

هذا التوازن يريح من مطاردة وصفة أخيرة. ربما يكون مانع اليوم تعباً، ومانع الغد مظلمة، وفي يوم ثالث ابتلاء يربي الصبر. وظيفة العبد الصدق فيما يعلم، وطلب العلم فيما يجهل، ورد الأمر إلى الله فيما لا يملك. كلما ازداد علمه بأسباب الخشوع ازداد تواضعه، لأن التجربة تعلمه أن فتح القلب عطاء لا استحقاق.

تكرار التطبيقات في الكتاب لا يحولها إلى وصفات مضمونة. هي مقترحات تنظيمية مستنبطة من المعاني، تقبل التعديل بحسب حال القارئ، ولا تنسب إلى السنة إلا ما ثبت. قد تنفع كتابة السؤال شخصاً، وينفع آخر إبعاد الهاتف، ويحتاج ثالث إلى تعلم معنى الذكر، ورابع إلى علاج أو استشارة. الجامع أن يأخذ كل واحد بالسبب المشروع ويعرف أن فتح القلب هبة من الله.

ولهذا تنتهي كل خطة عند باب الافتقار: يخطط العبد ولا يعبد خطته، يحاسب نفسه ولا ييأس منها، يطلب الأثر ولا يدعيه،

ويشكر إذا فتح الله عليه. وإذا تأخر عليه الخشوع لم يترك الفريضة ولم يخترع قصة تعوضه؛ يبقى على الباب، يصلح ما علم من موانعه، ويستعيد بالله من قلب لا يخشع، ويرجو أن يحيي الله قلبه كما يحيي الأرض بعد موتها.

إذا فتح الله على العبد في صلاة فقد يتسلل العجب: وصلت. الخشوع نفسه يحيي من هذا؛ لأنه انكسار ومعرفة بالفقر. يعلم أن الحال هبة، وأن القلب يتقلب، وأن الواجب شكر لا تزكية. ولا يعني الافتقار إنكار التقدم. يشكر النعمة ويستعملها، لكنه لا يجعلها ملكاً مضموناً. من علامات الشكر أن يرحم من يجاهد، وألا يحول تجربته إلى معيار عام.

إذا انقطع الحال لم يطارد صورته. يعود إلى الأسباب والعبادة ويقبل أن الطريق ليس إنتاج شعور. ربما كان ثباته في الجفاف أصدق في باب لا يراه.

التطبيق بعد لحظة حضور أن يقول الحمد لله ويمضي في حقه، ولا يكثر روايتها. يحفظ السر ما أمكن، ويسأل الثبات من غير دعوى.

العز الذي يولده الافتقار

تذكر «أعمال القلوب» في مبحث «ثمرات الخشوع»، الرفعة وعلو المنزلة ضمن ثمرات الخشوع. يبدو ذلك لأول وهلة بعيداً عن

الانكسار، لكنه ثمرة له: من ذل لله تحرر من أن يجعل رضى الناس إلهاً صغيراً يدير قراره.

العز ليس خشونة ولا امتناعاً عن الاعتذار. الخاشع يعتذر لأنه لا يعبد صورته، ويقبل الحق لأنه لا يرى الرجوع هزيمة. وفي الوقت نفسه لا يبيع دينه طلباً للقبول، ولا يسمح باستغلال تواضعه. يفرق بين خفض الجناح للمؤمنين وبين تمكين الظالم من حق ليس له.

ويحفظ الافتقار هذا العز من الكبر. لا يقول: استغيت عن الناس مطلقاً؛ فهو محتاج إلى تعاونهم ونصحهم وحقوقهم. إنما يستغني قلبه عن عبادتهم، ويستعمل الأسباب من غير أن يجعلها مصدر القيمة. إذا مدح شكر ولم يتغذ على المدح، وإذا ذم راجع الحق ولم يهدم بمجرد الصوت.

كل فتح يعيده إلى الباب. إن وفق لطاعة قال: فضل من الله، وإن أخطأ قال: أستغفر وأتعلم. بهذا يبقى عزيزاً بالعبودية، فقيراً إلى ربه، ليناً مع الخلق، ثابتاً عند ضغطهم.

72 | خشوع يبقى بعد السجادة

افتتحت سورة المؤمنون بالفلاح والخشوع، ثم مضت إلى اللغو والزكاة والعفة والأمانة والعهد والمحافظة على الصلاة [المؤمنون: 11-1]. هذا السياق يرفض حبس الخشوع داخل السجادة. يبقى لكل عبادة حكمها، لكن القلب الذي تعلم الوقوف بين يدي الله يحمل أثر الوقوف إلى كلامه وماله وعلاقاته.

وأقرب تطبيق هو الحق التالي للصلاة: وعد يوفى، أو نظر يغض، أو كلمة تصلح، أو مال يرد. لا يجعل المصلي ذلك عهداً مبتدعاً بعد كل فرض، بل يستحضر واجباً معلوماً كان سيواجهه على كل حال. فإذا امتدت السجدة إلى الاستقامة ظهر شيء من ثمرتها، وإذا وقع الخلل بقي باب التوبة والإصلاح مفتوحاً.

العودة إلى السجادة بعد كل تعثر تعلم العبد أن الفلاح لا يبنى بلحظة واحدة. وسياق سورة المؤمنون [المؤمنون: 11-1] يضع الصلاة أول السلسلة وآخرها، وبينهما مجالات يحرسها المؤمن في يومه. وظيفة هذا الترتيب هنا ليست إعادة تعداد الصفات، بل بيان أن المحافظة تجدد العهد كلما تعرضت حلقة من حلقاته للضعف.

وقال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: 45]. فإذا خرج العبد من الصلاة إلى الموضع نفسه

الذي يعصيه فيه، فليجعل الذكر الذي حمله مانعاً عملياً: يرد الأمانة، أو يغض البصر، أو يصلح كلمة. لا يبتدع عهداً تعبدياً جديداً، يختار حقاً شرعياً معلوماً يؤديه. وهكذا تبقى السجدة في هيئة الاستقامة بعد أن ترفع الجبهة عن الأرض.

ما بعد السجادة هو زمن الوفاء

تجمع أوائل سورة المؤمنون بين الخشوع في الصلاة والإعراض عن اللغو وحفظ الفروج والأمانات والعهود والمحافظة على الصلوات. ترتيب هذه الخصال في سياق واحد يربط العبادة بالحياة من غير أن يذيب خصوصية كل حكم. فالخشوع ليس بديلاً عن الأمانة، لكنه يعين عليها؛ والصلاة ليست خلقاً اجتماعياً فقط، لكنها تربي صاحبها على الحق.

وزمن الوفاء يبدأ في أول موقف بعد السلام. قد يكون رسالة تحتاج صدقاً، أو مალًا يجب رده، أو عيناً تحتاج غضاً، أو قريباً ينتظر كلمة لينة. لا يلزم أن يحمل المصلي قائمة طويلة بعد كل صلاة؛ يكفي أن لا يعزل ما قرأه وذكره عن القرار التالي. فإذا أخطأ رجع إلى التوبة والإصلاح، ولم يستخدم صلاته لتسكين الضمير مع بقاء المظلمة.

وهنا يكتمل معنى {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: 45] في التربية: لا نحكم على صلاة شخص بعينها من

خطأً واحداً، ولا نزعماً أن كل مصل معصوم، لكننا نطالب أنفسنا بأن نمنح الصلاة طريقاً إلى السلوك. كل حق يؤدي بعد السجود شاهد عملي، وكل رجوع عن أذى امتداد لمعنى العبودية خارج المصلي.

قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: 45]. يدل ذلك على مقصد عظيم للصلاة، ولا يجوز للمصلي أن يزيك نفسه لمجرد الأداء. المعيار العملي أن يحمل من الصلاة مانعاً يواجهه به موضع المعصية التالي. إذا كان ضعفه في اللسان راقب الكلمة، وإذا كان في المال راقب الحق، وإذا كان في النظر قطع السبب. ليست هذه عهداً مبتدعة ولا أعداداً ملزمة؛ إنها ترجمة للواجب الشرعي الذي تذكره الصلاة به.

ويربط حديث الدوام في صحيح البخاري 6464 بين صدق البداية واستمرار الأثر. لا يُطلب تحول شامل في يوم واحد، بل انتقال ثابت من عبادة إلى خلق. ومن المفيد أن يختار المرء ثمرة واحدة يراجعها زمنًا: أمانة يؤديها، أو غيبة يتركها، أو موعد صلاة يحفظه. فإذا ثبتت أضاف غيرها. وهكذا تبقى السجادة نقطة انطلاق لا جزيرة منفصلة، ويصير الخشوع قوة ترتيب للحياة: يردها إلى الله، ويقلل سلطان الهوى، ويجعل كل رجوع بعد الزلل خطوة صادقة لا مشهداً عابراً.

ما بعد السجادة هو صفحة الامتحان

قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: 45]. لا تمنح الآية المصلي شهادة تلقائية، بل تكشف مقصداً وأثراً ينبغي طلبه. فإذا انتهت الصلاة جاء أول موضع اختبار: شاشة، أو كلمة، أو مال، أو موعد، أو شخص يحتاج حلماً. لا يطلب العبد تحولاً شاملاً في ساعة. يحمل من كل صلاة تكليفاً قريباً: يغض نظره في المرة التالية، أو يرد أمانة، أو يمسك عن غيبة. وإذا زل لم يقل إن صلاته بلا أثر؛ يتوب ويستأنف، ويبحث عن سبب الخلل. الخشوع الباقي ليس شعوراً ممتداً طوال اليوم، بل سلطان معنى يعود عند القرار ويمنع القلب أن ينسى لمن صلى.

جاء في سنن أبي داود (4985): «يا بلال، أقم الصلاة، أرحنا بها»، وصححه الألباني. وجاء في سنن النسائي (3940) أن قرّة عين النبي ﷺ جعلت في الصلاة، وحكم دار السلام عليه بالحسن. وهذه أحكام منقولة عن الجهات المذكورة، وليست حكماً إسنادياً مستقلاً هنا.

الراحة بالصلاة لا تعني أن كل مصل يشعر بها فوراً، ولا أن من ثقلت عليه منافق أو محروم. قد تثقل لجهل أو ذنب أو تعب أو اضطراب، ويبدأ الطريق بأداء الواجب مع طلب المعونة. كما

لا تعني الراحة تحويل الصلاة إلى مهرب من مسؤولية؛ النبي ﷺ كان يعود منها إلى أعباء الرسالة والحقوق.

الفرق بين «أرحنا بها» و«أرحنا منها» يظهر في موضع الصلاة من اليوم. إذا كانت عبثاً يريد الإنسان التخلص منه أسرع فيها، وإذا كانت رجوعاً إلى ربه دخلها ليعيد ترتيب قلبه ثم يخرج أقوى على التكليف. وقد لا يشعر بالراحة في كل مرة، لكن المعنى يبقى وجهة.

التطبيق عند الشدة ألا يشترط زوالها بعد الصلاة. يدخل بها إلى الله، يؤدي ما شرع، ثم يخرج إلى السبب. إن سكن قلبه شكر، وإن بقي الألم لم يتهم عبادته. الراحة الكبرى في صدق العبودية، لا في ضمان مزاج دائم.

تفاضل الأعمال بسرائرها وآثارها

تختم مادة ثمرات الخشوع في «أعمال القلوب» في مبحث «ثمرات الخشوع»، بالإشارة إلى تفاوت الأعمال؛ فقد تتشابه صورتان ويختلف قدرهما بما في القلب وما يصدقه من اتباع. هذا المعنى يربي التواضع، لأنه يمنع الثقة بالصورة وحدها.

لا يملك الإنسان ميزان القبول، لكنه يملك أسباباً يراجعها: صحة العمل، والإخلاص، وحضور المعنى، وترك المنة، وأثر العبادة في الحق. قد تكون ركعتان قصيرتان أصدق من طول يصنعه نظر

الناس، وقد يكون طول مشروع صادق عبادة عظيمة. لا يحكم من الخارج وحده ولا يجعل القلة فضيلة بذاتها. ولهذا لا تنتهي الصلاة عند السجادة. ما بعدها يكشف بعض ما حملته: أمانة في الموعد، وكف للسان، ورفق في البيت، وتوبة من خلوة. وإذا لم تظهر الثمرة فوراً لم يبطل كل خير، لكنه يعرف أن أمامه عملاً لم يكتمل. ويبقى الاستغفار بعد الطاعة حارساً لهذا المعنى. يعترف العبد أن عمله دون حق الله، ويرجو القبول، ثم يمضي إلى الواجب التالي. لا يسكن إلى التجربة ولا يعبد خطة الإصلاح؛ يعبد الله، ويأخذ بالأسباب، ويعود كلها فتر.

عهد ما بعد الصلاة

النص الشرعي: من الدعاء الثابت: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها» في صحيح مسلم 2722. الاستعاذة اعتراف بأن الخشوع عطية يطلبها العبد، لكنها لا تلغي الأسباب التي كلف بها. وفي القرآن تمتد أوصاف المؤمنين من خشوع الصلاة إلى الإعراض عن اللغو والزكاة وحفظ الفروج والأمانات والصلوات [المؤمنون: 1-11]. البقاء بعد السجادة إذن ليس شعوراً محفوظاً، بل شبكة وفاء.

قد يخرج المصلي من صلاة رق فيها ثم يفتر، فيظن أن الأثر ضاع كله. وقد يخرج بلا رقة ظاهرة ثم يصدق في حق، فيحتقر ما وقع لأنه لم يشعر. الميزان أوسع من الحالتين. القلب يتقلب، والعبادة تتكرر، والثمره قد تظهر في قرار صغير لا في حرارة طويلة. المطلوب ألا يتحول الكتاب نفسه إلى تجربة شعورية تنتهي عند صفحته الأخيرة. القراءة التي لا تنقل سؤالاً واحداً إلى الواقع قد تصبح صورة أخرى من التلقي المريح. وفي المقابل لا يحمل القارئ نفسه برنامجاً ضخماً ينهار سريعاً. يختار من أبواب الخشوع ما يمس خلله الأقرب.

يمكن جمع الطريق في أربعة عهود. عهد مع النص: لا ينسب إلى الله ورسوله ما لم يثبت. وعهد مع الصلاة: يؤديها في وقتها ويعالج سبباً معلوماً للشرود. وعهد مع الناس: يرد حقاً وكيف أذى. وعهد مع نفسه: يحاسب فعلاً محدداً من غير تزكية ولا سحق. هذه العهود لا تمنح شهادة قبول، لكنها تجعل الدعوى قابلة للمراجعة.

وقد يقع المرء بعد أيام. لا يعيد المشروع من الصفر، ولا يقول إن كل ما سبق كان كذباً. يعود من الموضع الذي تعثر فيه، ويستغفر، ويعدل السبب. الاستقرار ليس خطأ مستقيماً؛ هو وفاء متجدد بجهة السير. ومن الخشوع أن يقبل العبد ضعفه من غير أن يتخذ عذراً دائماً.

تطبيق لأربعة عشر يوماً: يثبت صلاة واحدة يعتني بمقدماتها، ويحذف شاغلاً واحداً، ويحفظ دعاءً صحيحاً يفهمه، ويؤدي حقاً مؤجلاً، ويتصل بصحبة تعينه. يسجل الفعل لا المشاعر: حضر في الوقت أو لم يحضر، رد الحق أو لم يرده، أغلق الشاغل أو تركه. بعد أسبوعين يراجع السبب ويعدل الخطوة. لا ينشر النتيجة، ولا يقارنها بتجربة غيره.

ثم يبقى الدعاء: قلب لا يملكه صاحبه يسأل ربه أن يخشعه، وجوارح في يده يسوقها إلى الطاعة. بين الطلب والعمل تمضي الطريق؛ لا اعتماد على الحيلة، ولا ترك للحيلة، بل افتقار يبذل وسعه ثم يعلم أن الفضل كله لله.

خاتمة

ليس الخشوع شيئاً يُمْتَلِكُ ثم يؤمن عليه؛ هو افتقار متجدد. قد يفتح الله للعبد في صلاة، ويبتليه بالشروء في أخرى، فيتعلم ألا يعجب بحاله ولا يئأس من ضعفه. الميزان أن يعود إلى الذكر والحق، وأن يتبع علمه بعمل، وأن تكون صلاته باباً إلى صدق أوسع في حياته.